

الباب الرابع

التربية في العصور الحديثة

الفصل التاسع

التربية الأوروبية والغربية

في العصور الحديثة

مقدمة :

يمثل عصر النهضة بداية العصور الحديثة التي تمثل مرحلة هامة لتطور المجتمعات الأوروبية والغربية ، فقد شهدت هذه المجتمعات عدة تحولات هامة سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية أدت بها إلى هذا التطور . وترتبط هذه التحولات بالنهضة العلمية التي أدت إلى حركة الكشوف البرتغالية واكتشاف الدنيا الجديدة وحركة الإصلاح الدينى ، كما ترتبط هذه التطورات بحركة التنوير، والثورة الصناعية وغو الرأسمالية والتوسع الإستعماري وظهور القوميات الأوروبية وإختراع قوة البخار والكهرباء والإنجازات العلمية الأخرى وكذلك ترتبط بالحريين العالميتين . وتعتبر الحرب العالمية الثانية إنتصاراً للديمقراطية والحرية والقيم الإنسانية . وكان من الطبيعي أن تصاحب هذه التحولات انعكاسات مماثلة فى التربية . فقد واكبت التربية هذه التحولات وكانت إنعكاسا صادقا لها . وهو ما سنحاول أن نتعرض له بشئ من التفصيل فى الصفحات الآتية . وسنبداً بالكلام عن عصر النهضة .

التربية في العصور الحديثة

مقدمة عامة :

يقف الشرق والغرب على مفترق طريقين فى نهاية العصور الوسطى . أحدهما يشير إلى طريق الهاوية والإنهيار بعد عز وإزدهار أضاء سناه فى كل بقاع الأرض طيلة قرون من الزمان . وهو الطريق الذى سلكه الشرق العربى وإنتهى به فى نهاية المطاف إلى فترة من الظلام الدامس الذى خبا فيه كل نور وتحجر فيه العقل ونضب معين الفكر وقفل باب الإجتهداد . وسادت فترة من الركود الفكرى والثقافى خيمت على كل الأرجاء . وتقطعت فيها السبل بين الشرق العربى وبين العالم الخارجى . وعاش فى عزلة شديدة تقوقع خلالها على نفسه لينام نومته الكبرى التى لم يفق منها إلا فى نهاية القرن الثامن عشر عندما

بدأت مصر تفتيح على طرقات الحملة الفرنسية عليها (١٧٩٨م) . وعندها بدأت مصر ومعها العالم العربى تنفض عن نفسها غبار الركود . وأخذت الحياة تتجدد فى أوصالها وتتصل عروق الدم فيها بمنابع جديدة لعالم جديد كانت فى عزلة عنه . وسنعرض إلى تفصيل الكلام عن هذه الفترة عند الكلام عن الشرق العربى .

أما الطريق الثانى فهو طريق تمتد مسيرته بأوروبا لتواصل فيه تحولها الإجتماعى والفكرى والحضارى . ومع أن هذا الطريق لم يكن كله مفروشا بالورود إلا أنه إنتهى بأوربا إلى فترات من الإنتعاش إستطاعت معها أن تحقق نهضتها الحديثة . فقد مرت أوربا بعد رحلة العصور الوسطى بعصر النهضة طيلة القرون من الرابع عشر إلى السادس عشر . وشهدت بعدها حركة الإصلاح الدينى التى قادها مارتن لوثر ، والثورة العلمية . كما شهدت فى القرن الثامن عشر حركة التنوير وعصر العقل والثورة الصناعية وما صاحب ذلك من إنجماوات وتطورات تربوية تعليمية . وستناول الكلام فى السطور التالية عن التربية فى العصور الحديثة فى الغرب والشرق . وسنبداً بالتربية فى الغرب .

التربية فى عصور النهضة (١٤٠٠-١٨٠٠ م)

مقدمة :

يمثل عصر النهضة كما أشرنا بداية العصور الحديثة . وقد بدأت حركة النهضة من إيطاليا التى تعتبر قلبها النابض . ومنها إنتشرت سريعا إلى جميع البلاد الأوربية وإن كان أثرها متفاوتا . ففى إيطاليا بدأت النهضة بالإتجاه الإنسانى الفردى الذى يؤكد على الحرية الفردية الشخصية . ولما كانت إيطاليا الوطن القديم لحضارة الإغريق والرومان فقد كان تمسك الإيطاليين بهذه الحضارة أكثر من غيرهم . وكان من الطبيعى أن يعملوا على إحياء تراثهم الحضارى القديم . وشهدت إيطاليا إهتماما كبيرا بالدراسات الإنسانية وإحياء الآداب والفنون الحرة . وأصبح المثل التربوى الأعلى هو المثل اليونانى فى إهتمامه بالتربية الحرة التى إستهدفت التربية المتوازنة للجسم والعقل والخلق وتربية الإنسان الحر فى المجتمع الحر . كما برز الإهتمام بالتربية الأدبية والتربية الجمالية . وفى فرنسا كان أهم مظاهر النهضة يقظة حركة الأدب والفنون . وكانت قوة دافعة للنهضة . وفى إنجلترا تمثلت مظاهر النهضة فى الإهتمام

بالآداب والعلوم . وفى أسبانيا والبرتغال كانت حركة الكشوف الجغرافية التى قادها فاسكو دى جاما . ومعها بدأت حركة الإستعمار الأوربي والإستيطناني للشرق . وفى ألمانيا وهولندا إمتد تأثير النهضة إلى ما هو أبعد من الآداب والفنون . فشمّل الإصلاح الأخلاقي والإجتماعي الذى أدى فى نهاية الأمر إلى حركة الإصلاح الديني .

وقد إرتبط عصر النهضة بتفكك النظام الإقطاعي ونمو السلطات السياسية والقومية للدولة ونمو التجارة وازدهارها . وقد شهد عصر الثورة والتمرد من جانب الفلاحين والعبيد على أسيادهم ومن جانب الملوك ضد السلطة البابوية والدينية . ولعل أبرز ما تميز به عصر النهضة هو البحث العلمي للكشوف البرتغالية لكولومبس وماجلان وفاسكو دى جاما ، وما صاحب هذه الكشوف من إكتشاف الأمريكتين أو الدنيا الجديدة وإكتشاف رأس الرجاء الصالح والشرق الأقصى وإمتداد النفوذ الأوربي إلى خيرات الشرق وثرواته . وهو ما يعتبر بداية لحركة الإستعمار الأوربي الحديث . وتتميز عصر النهضة بالإصلاح الديني والإتجاه العلمي فى تفسير الظواهر بدلا من تفسيرها فى نطاق خوارق الطبيعة والروحانيات .

الحركة الإنسانية :

إرتبط عصر النهضة بالحركة الإنسانية فى إهتمامها بالآداب الكلاسيكية واللغات القديمة اللاتينية واليونانية وآدابها واعتبار هذه الآداب الوحيدة الجديرة بالإحترام دون سواها . وقد إهتمت الحركة الإنسانية بالإنسان وطبيعته البشرية . واعتبرت دراسة الآداب القديمة الطريق الذى يوصل إلى كمال هذه الطبيعة البشرية . ومن رواد الحركة الإنسانية بترارك الإيطالي (١٣٠٤ - ١٣٧٤ م) الذى هاجم جامعات العصر الوسيط كأوكار للجهل المطبق . وإنتقد بشدة الفلسفة الرهبانية الإسكولائية أو المدرسية وإهتمامها بفلسفة أرسطو . وأبدى إعجابه بكتابات شيشرون الروماني وبوكاشيو الإيطالي (١٣١٣ - ١٣٧٥ م) الذى كان شغوفاً بدراسة المؤلفات الإغريقية وبخاصة أشعار هومر وبودي Bode الفرنسي الذى كتب عن التربية الحرة للأمير ، وإرازموس الهولندي (١٤٦٦ - ١٤٣٦ م) الذى إهتم بدراسة الآداب القديمة فى جامعة كمبردج وجامعات فرنسا . وأشام Ascham الإنجليزى أستاذ اللغة اليونانية فى جامعة كمبردج والمؤدب الخصوصي

للملكة إليزابيث وصاحب الرسالة المعروفة فى التربية باسم " معلم المدرسة " التى تعتبر أول رسالة تربوية باللغة الوطنية وتحتل مكانة كبيرة فى تاريخ التربية .

النظرية التربوية الإنسانية :

تمثل معظم الآراء التربوية والنظرية الإنسانية بصفة عامة أفكار العالم اليونانى والرومانى القديم كما تعتبر إحياء لهذه الأفكار مع إدخال بعض التعديلات عليها هنا وهناك تحت تأثير التراث الشرقى والمسيحى . وكان لكونتليان الرومانى بالذات التأثير الكبير على الكتاب والمفكرين الإنسانيين . وقامت النظرية التربوية الإنسانية على إحياء الدراسات الإنسانية والاهتمام بها وهى الدراسات التى عرفت بإسم " الفنون الحرة " . واعتبرت المحتوى المناسب لتعليم الرجل الحر . وتهدف النظرية التربوية الإنسانية إلى تكوين وتشكيل الإنسان الكامل خلقا ودينا من أجل سعادته ومن أجل المواطنه وخدمة الدولة . ونظرت إلى هذا الإنسان الكامل على أنه الذى يستطيع أن يقوم بأدوار قيادية مختلفة فى شتى المجالات . وكان اهتمام الإنسانيين بالدراسات الإنسانية والفنون الحرة التى تتصل بكل الجوانب المعرفية الإنسانية . وإلى جانب التربية العقلية والأخلاقية أولوا اهتماما كبيرا إلى التربية الجسمية من سباحة وركوب خيل وقفز وملاكمة ورقص كجزء من التربية الحرة . وهى نفس الفكرة القديمة لدى الإغريق . وذلك لأهمية هذه التربية بالنسبة للجسم وأهميتها أيضا فى تربية طبقة الحكام فى فنون الحرب . وقد نظر الإنسانيون إلى التمرينات الجسمية على أنها تساعد الفرد على التخلص من التعب العقلى وتشيريه وتحفزه للتعليم . وهو ما نادى به الغزالى قبل ذلك بقرون . وهكذا كانت التربية الإنسانية مزيجا من عناصر يونانية ورومانية وشرقية ومسيحية . وقد احتفظت من المسيحية بفكرة الخلاص الأبدى كما حافظت أيضا على التربية الفروسية التى سادت العصور الوسطى . وكان النموذج المثالى للتربية الإنسانية هى شخصية رجل البلاط . وهو نموذج مختلط من شخصية الإقطاعى الأرسطراطى القديمة وشخصية الطبقة الجديدة من الأمراء التجار . وقد طالبت النظرية التربوية الإنسانية بالاهتمام بطريقة التعليم إلى جانب الاهتمام بمحتواه ، فالطريقة لا تقل أهمية عن المحتوى . ومن أهم المبادئ التى تقوم عليها هذه الطريقة من وجهة نظر التربية الإنسانية أن يوجه المعلم طريقته على أساس مراعاة الفروق العقلية والجسمية بين التلاميذ

وأن يكتشف إهتمامات التلاميذ وقدراتهم ويعمل على تنميتها . كما يجب أن يحرص على جذب إنتباه التلاميذ وإهتمامهم وألا يصل بهم إلى درجة التعب العقلي . وقد سلم أنصار التربية الإنسانية بأن بعض التلاميذ يصعب عليهم تعلم دروس معينة . فهذا أكبر الإنسانيين إيرازموس على سبيل المثال يعتقد أن بعض التلاميذ قد لا يبدون إستعدادا لتعلم دروس معينة أكثر مما يبديه حمار فى تعلم العزف على الفيولين

وأكدت التربية الإنسانية على إهتمام طريقة التدريس بالمعانى والأفكار أكثر من مجرد الإهتمام بالألفاظ والكلمات . كما إهتمت بالمدح والثواب كوسيلة ناجحة للتعليم . وشجبت العقاب الجسمى وإعتبرته غير لائق بكرامة الإنسان الحر ولا يساعد على تكوين الأخلاق الطيبة الكريمة . كما أنه قد يعوق التعليم نفسه . ونادى كل من إيرازموس وإليوت بإستخدام الصور المرئية كوسيلة تعليمية . وهى فكرة تطورت فيما بعد على يد كومينيوس . كما نادى المربون الإنسانيون بإستخدام الإمتحانات لحفز التلاميذ على بذل مجهود أكبر فى التعليم . وقد كانت الإمتحانات نادرة الإستخدام قبل تلك الفترة وعرفت بالصين قديما وجامعات أوروبا فى العصور الوسطى .

وطالب المفكرون الإنسانيون وعلى رأسهم إليوت بتنظيم التعليم على مستويات ثلاثة : المستوى الأول حتى سن الرابعة عشر ويكون التعليم فيه عبارة عن الأساسيات المعرفية والأدبية بصورة عامة . والمرحلة الثانية حتى سن السابعة عشر ويعلم فيها الخطابة اللاتينية والمنطق والتاريخ والجغرافيا وكذلك التدريب السياسى والعسكرى . أما المرحلة الثالثة فهى حتى سن الحادية والعشرين ويهتم فيها أساسا بتعليم الفلسفة والأخلاق . وإهتمت التربية الإنسانية بالمعلم وبصفاته النوعية العقلية والخلقية والمعرفية واعتبرت توفر هذه الصفات فيه ضرورة بالإضافة إلى طيب أصله وعراقة منبته . وقد كانت التربية الإنسانية موجهة أساسا إلى فئة خاصة لتعليم أبناء الطبقة الراقية الأرستقراطية بحكم المولد والثروة . ولم يهتموا بما عداهم وإن كان بعضهم لم ينكر على الطبقة الفقيرة أن تتعلم التعاليم الدينية .

قضية اللاتينية واليونانية : سبق أن أشرنا إلى أصل هذه القضية عند كلامنا عن التربية الرومانية . وهنا نقول إن أهم القضايا التربوية الحيوية فى

عصور المذهب الإنساني فى القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر كانت تدور حول التساؤل عما إذا كان الهدف من تعلم اللاتينية واليونانية هو التعرف على مضمون الأدب فيهما أو من أجل الفصاحة فى التعبير كما يمثلها شيشرون الخطيب . وقد أطلق على أنصار الرأى الأخير " الشيشرونيون " وهم الذين ذهبوا إلى القول بأهمية دراسة اللاتينية وأساليبها بصورة أساسية . وبإستثناء الحركة المدرسية نجد أن الحركة الإنسانية والحسية والواقعية والاجتماعية كانت رد فعل للشيشيرونية .

وبالرغم من دور الإصلاح البروستانتى فى الإسراع يجعل التعليم الابتدائى باللغة المحلية ، فإننا لا نجد أحدا من التربويين الإنسانيين يحذ التوسع فى الدور المطلوب من اللغات المحلية . وكان إرازموس مثالا نموذجيا للإنسانيين حين قال بصراحة إنه يمتنع عن إستخدام اللغة المحلية . وكان يعرف الهولندية بالطبع حيث نشأ فى هولنده إلا أن أغلب محادثاته فى إنجلترا كانت باللغة اللاتينية . وقد كتب يقول إن اللغة المحلية الدراجة لا ينبغى أن تعتبر أداة مناسبة للتعبير الأدبى . وقد قال الإنسانى الفرنسى مونتانى (١٥٣٣-١٥٩٢م) " إنى أحس بالارتياح عند إستعمال اللاتينية وكأنها لغة طبيعية بالنسبة لى ، إذ أننى أفهمها أكثر مما أفهم الفرنسية " . وقد ساند الإنسانيون اللغة اللاتينية بكل ثقلهم . ورفعوا مكانتها لمدة ثلاثمائة عام على الأقل فى المدارس الأوربية الثانوية . ولم تفقد اللاتينية مكانتها حتى فى أمريكا بالرغم من معارضة بنيامين فرانكلين (١٧٠٦ - ١٧٩٠م) . إلا أن صراع فرانكلين مع أنصار اللاتينية ينتمى إلى فترة لاحقة . وهكذا كان ينظر إلى اللاتينية واليونانية على أنهما لغتان حيتان لامبتان .

مكانة المرأة وتعليمها :

لم يحدث عصر النهضة أى تغيير هام فى التقاليد الأوربية المتصلة بالمرأة ونظرتها إلى قدرتها ومكانتها الاجتماعية . فقد حتمت السماء والمجتمع أن يكون مجالها المنزل . وعلى هذا فإنه لا يجوز لها أن تتلقى أى نوع من التربية الحرة المتصلة بالحياة العامة فى المجتمع . لأن هذه الحياة ليست مجالها . ومعظم المؤلفين والمفكرين الإنسانيين فى هذه الفترة لم يتناولوا تعليم المرأة بالتفصيل . بيد أن دور المرأة الأم فى تعليم أبنائها قبل المدرسة حظى بإهتمام كبير . وبعض

الكتاب رأى أنه من المرغوب أن تكون الأم قادرة على التخاطب مع أبنائها باللغة اللاتينية . وكانت البنت تتعلم فى المنزل على يد مؤدبين خصوصيين . وقد رأى المفكرون والكتاب الإنسانيون على الرغم من إختلافهم حول طبيعة المرأة ضرورة تربيته تربية عقلية وخلقية من أجل رقيها ورفع شأن أسرتها ومجتمعها . وقد شهد عصر النهضة إنشاء مدارس لتعليم البنات مبادئ التربية .

نقد النظرية التربوية الإنسانية :

كانت التربية الإنسانية تربية أرسطراطية خلقت فجوة بين الطبقات المتعلمة وبين جماهير الناس . وكان هذا أكبر مواطن ضعفها . وكانت المدارس فى ظل التربية الإنسانية تركز كل همها على تعليم اللغة اللاتينية واليونانية وكانت دراسة اللغة اللاتينية تشغل معظم وقت التلميذ ، وكانت تهمل تعليم اللغات المحلية . وكانت الرياضيات تحظى باهتمام قليل منهم . وعاب النقاد على التربية الإنسانية أنها خلقت متعلمين جهلاء . لأنهم وإن كانوا متعلمين لا يعلمون شيئا عن الناس والأشياء والعالم الطبيعى والإجتماعى الذى يعيشون فيه . وهكذا فشلت التربية الإنسانية فى الواقع فى تحقيق المصلحة العامة المشتركة للناس . وقد رأى نقاد التربية الإنسانية أن علاج هذا الضعف يكون بالتوسع فى التربية الإنسانية ذاتها لتشمل جمهورا عريضا من الناس . كما إهتم بعض النقاد بأن تتسع التربية الإنسانية لتشمل تعليم اللغات الحديثة والمحلية والعلوم والقانون والطب والإقتصاد والسياسة . وقد مهدت هذه الإنتقادات إلى توجيه الإهتمام بالعلوم وبالواقع المادى والإجتماعى كما تعبر عنه الخبرات والتجارب . وبدت الحاجة إلى نظرية تربوية جديدة . وجاءت الحركة الواقعية لتعبر عن إحتياجات ومطالب هذا الواقع الجديد . وهكذا كان ظهور الحركة الواقعية كرد فعل للحركة الإنسانية . وحولت الحركة الواقعية الإهتمام من الفنون السبعة الحرة إلى الإهتمام بدراسة الظواهر الطبيعىةوالإجتماعية . بيد أنه يمكن أن نميز بين ثلاثة إجهادات رئيسية للحركة الواقعية أحدهما إنسانى والثانى إجتماعى والثالث حسى وهو ماستفصل الكلام عنه فيما بعد .

خلاصة :

يمكننا من خلال عرضنا السابق أن نلخص أهم الإجهادات الإنسانية التربوية

فى عصر النهضة فيما يلى :

- ١ - تميزت التربية بالإتجاه من العالمية إلى المحلية نتيجة لنمو القوميات والإتجاه العلمانى والإنسانى للتربية . وكانت الفكرة المسيطرة على الفكر المسيحى فى العصر الوسيط فكرة الإمبراطورية العالمية والثقافية ووحدة الجنس ووحدة الكنيسة .
- ٢ - تركزت الأهداف التربوية حول تربية الإنسان من أجل المواطنة وخدمة الدولة وهى بداية فكرة علمانية التربية . وقد ظهرت بصورة رئيسية فى عصر التنوير إلا أنها لم توضع موضع التنفيذ إلا فيما بعد .
- ٣ - ظهر الإهتمام بالأداب الكلاسيكية القديمة والعلوم الإنسانية لا سيما فى التعليم الثانوى بإعتبارها العلوم التى تربي الإنسان الحر وهى الفكرة اليونانية الرومانية القديمة للفنون الحرة .
- ٤ - تركز إهتمام التربية حول الإنسان والحياة الدنيا والإستمتاع بها .
- ٥ - تركز الإهتمام بالأخلاق أكثر من التركيز على الدين فى حد ذاته .
- ٦ - الإهتمام بالتربية الفنية والجمالية والرياضية كجزء من التربية الحرة وهو مايعتبر إحياء للفكرة اليونانية القديمة . والهدف منها تدريب الجسم وإكسابه الصحة والقوة وتدريب الطبقة الحاكمة على فنون الحرب .
- ٧ - إهتمت الطريقة التربوية بالمتعلم وقدراته وميوله وطبيعته . وكان هذا بداية لعلم النفس الحديث .
- ٨ - قبل الإنسانىون أتباع كوينتيليان مبدأه بعدم ضرب الأطفال وجعل التعليم مشوقا ودراسة إهتمامات الطالب بحيث يراعيها المدرس ولا يتجاهلها . إلا أن تلك المبادئ الكونتيليانية قد قبلها الإنسانىون التربويون دون تحفظ وإن تجاهلوا فى التطبيق العلمى . وإن إستخدام القسوة التى سيطرت على الممارسة التربوية فى المدارس لشاهد على جهل مديريها ومدرسيها بالعظات الإنسانية التى جاءت قبل ذلك بثلاثة قرون .
- ٩ - كان هناك نظام التلمذة الصناعية والتعليم فى النقابات إلى جانب التربية المدرسية . وكان هذا النوع من التعليم بعد أبناء الطبقة الفقيرة والوسطى للاشتغال بالحرف والصناعات . وقد إستمرت النقابات تحظى بمركز قوى

فى مجال الحياة السياسية والاقتصادية خلال عصر النهضة .

١- بدأ تعليم الفرسان والنبلاء يفقد سلطانه نتيجة لفقد طبقة النبلاء لإحتكارهم السابق لفنون الحرب والسياسة ، وتحول تعليم أبناء هذه الطبقة إلى مدارس البلاط ومدارس النحو اللاتينية .

١١- ظل للكنيسة نفوذها القوى رغم الهجوم الذى وجه إليها وشهد عصر النهضة الصراع بين الدولة والكنيسة للسيطرة على التعليم .

١٢- شهد عصر النهضة ظهور المدارس العامة لتعليم العامة باللغة المحلية وكانت أقل من المدارس الأخرى . كما شهد بداية إنشاء مدارس لتعليم البنات مبادئ التربية فى بعض المدن ولا سيما فى ألمانيا وهولندا وفرنسا .

١٣- كانت التربية فى عصر النهضة بصفة عامة تربية أرستقراطية وتربية للخاصة والطبقات الغنية . وتركزت كذلك حول مثل الإنسانية الكلاسيكية وتنمية الرجل المهذب . أما الكنيسة فتركز إهتمامها أساس على تربية رجال الدين وإعداد القيادات للكنيسة .

أنواع المدارس فى عصر النهضة

كانت أهم المدارس فى عصر النهضة ما يلى :

١ - المدارس الأولية المحلية :

صاحبت النزعة المحلية التى برزت فى عصر النهضة ظهور نوع من المدارس التى استخدمت اللغات الدراجة بدلا من اللاتينية واليونانية فى التعليم . وكان التلاميذ يتعلمون فيها إلى جانب القراءة والكتابة بلغاتهم المحلية مبادئ العد والحساب والغناء . وعلى الرغم من الهجوم الذى وجه إلى هذه المدارس من جانب الحركة الإنسانية على أساس أنها لا تدرب العقل فإنها ظلت تقوى بإستمرار وتجذب إليها أعداداً متزايدة من التلاميذ حتى أصبحت هذه المدارس فى النهاية جزءاً من نظم التعليم القومية فى أوروبا .

٢ - المدارس الثانوية :

تطورت المدارس الثانوية فى عصر النهضة . وكان هذا التطور متمشياً مع بروز الإهتمام بالدراسات الإنسانية والكلاسيكية والعلوم الرياضية . وإلى جانب

استمرار النزعة التقليدية فى المدارس الأكاديمية شقت الدراسات الواقعية والعملية
طريقها بإنشاء نوع جديد من المدارس .

وكان إنشاء هذا النوع من المدارس معبرا عن الروح الجديدة التى بعثتها
الحركة الإنسانية . ومهدت لظهور التعليم الثانوى بمفهومه الحديث . وكانت
مدارس البلاط Courtier التى نشأت فى إيطاليا فى عصر النهضة هى النموذج
الذى أنشئ على غراره مدارس ثانوية مشابهة فى البلاد الأوربية الأخرى مثل
مدرسة النحو اللاتينى فى إنجلترا ومدرسة الليسية والكوليج فى فرنسا ومدرسة
الجمنازيوم فى ألمانيا . ومن أكثر هذا المدارس شهرة مدرسة " دافلتر " و " دى
فارونا " فى إيطاليا ومدرسة " ستيرم " فى ألمانيا . وكان الملوك والحكام هم
الذين ينشئون هذه المدارس . وكانت مقصورة على البنين وكانت داخلية
بمصروفات . ولهذا فقد كانت مدارس خاصة بالأغنياء . لكن كان يتاح لأبناء
خدم القصر الفقراء أن يتعلموا فيها بالمجان . وفيما يعد عندما أصبحت
الجامعات أكثر تحررية من قيود الشكلية فى التدريس أصبحت هذه المدارس بمثابة
إعداد للدراسة بالجامعة .

٣ - التعليم العالى :

استمرت الجامعات فى عصر النهضة على نفس الإنجاء السابق فى العصور
الوسطى . ولهذا بدأت بمعارضة الحركة الإنسانية والآداب الكلاسيكية القديمة فى
حين كان البلاط والحكام يشجعون هذه الحركة وتلك الآداب . واتحدت الكنيسة
مع الجامعات فى معارضة الحركة الإنسانية على أساس أنها تمثل تحديا خطيرا
للمشتغلين بالدين واللاهوت والفلسفة . ولكن مع تقدم الحركة الإنسانية بدأت
تجد تقبلا لها من الجامعات بالتدريج . ودخلت الدراسات القديمة والآداب
واللغات الكلاسيكية إلى هذه الجامعات وأنشئت لها الكراسى . وقد لعبت
جامعة باريس دورا هاما فى دفع الحركة الإنسانية . فاهتمت بالدراسات والآداب
الكلاسيكية . كما ساعد إختراع الطباعة آنذاك على ترويج نشر هذه الدراسات
والآداب .

٤ - المعلمون :

حظي المعلمون فى عصر النهضة بزيادة الإحترام لهم وارتفاع مكانتهم

الإجتماعية ودخلهم الإقتصادي وبخاصة معلمو التعليم الثانوى . وحظى التدريس بزيادة الإقبال عليه كوسيلة للعيش . وكان زيادة أعداد المعلمين العلمانيين عاملا هاما على التفرغ للإشتغال بالتعليم كمهنة بعد أن كانت وظيفة إضافية لرجال الدين . وهذا التحسن فى مكانة المعلم والإشتغال بالتعليم لا ينسحب على معلمى المدارس المحلية الذين كانوا فى مكانة وضيعة لإنخفاض مستواهم ونوعيتهم . ولم يكن يعترف بهم كمعلمين . وظل هذا التمييز فى المكانة بين معلمى المدارس الأولية والثانوية طابع التربية والغربية لعدة قرون بل وحتى العصر الراهن . وعلى الرغم من هذا فإن مجرد ظهور هؤلاء المعلمين فى المدارس المحلية كان يعتبر كسبا تربويا .

نماذج وشخصيات من التربويين الإنسانيين

فيرجيو (١٣٤٩-١٤٢٠ م) :

يرجع الفضل الأول فى تقديم أول نظرة إنسانية فى التربية إلى العالم الغربى، إلى " بيير باولو فيرجيو " الإيطالى الذى أحيا كتابات كونتليان فى التربية ليقدمها إلى من خلفوه خلال عصر النهضة . بل لقد فعل " فيرجيو " أكثر من ذلك لأن مؤلفه (فى طبائع الرجل المهذب والدراسات الحرة) يحمل عنوانا إنسانيا نموذجيا دنويوا . وكان فى إمكان جون لوك إستخدام نفس العنوان فى القرن السابع عشر فى إنجلترا . وكان فى إمكان مونتاني (١٥٣٣-١٥٩٢م) أيضا إستخدام نفس العنوان فى فرنسا . وكان يمكن أن يناسب العنوان الهدف التعليمى لفينيليون (١٦٥١-١٧١٥م) . لقد كتب فيرجيو مقالة لتوجيه أبناء اللوردات فى مدينة بادو الإيطالية . ولا يوجد إختلاف بين مقالته وبين ما كتبه كونتليان أو بلوتارخ . إنها نفس النصيحة التى قدمتها سيلفيوا إلى أديسلاوس الملك الشاب أو المجرى البوهيمى فى الخطاب الطويل الذى بعثت به إليه .

فيتورينو دافلتتر (١٣٧٨-١٤٤٦ م) :

كان فيتورينو دافلتتر الإيطالى رجلا عظيما مثقفا . كما كان أمل بداية عصر النهضة ومحققا لآمالها التربوية . ولم يسلم دافلتتر من القيود الضرورية التى إلتمز بها جميع الإنسانيين قبل عصرنا الحالى التى كانت تقصر التعليم على من عندهم فراغ الثروة ومسئوليات الأرستقراطية . إلا أن أرستقراطية دافلتتر

كانت أرستقراطية نشطة لها القيادة العبقرية فى الثقافة والإقتصاد والسياسة والحرب وفى الشئون الإجتماعية . ومن القيود الأخرى على فكر دافلتر فشله فى إدراج الدراسات العلمية فى منهج الدراسة مع أنه كان من أفضل الرياضيين فى عصره . وبهذا سلم إلى الإنسانين المعاصرين مشكلة إيجاد مكان فى التربية للنواحي العملية والعلمية . ويجب أن نعتز بقصورهم فى معالجة المشكلة بالرغم من حصادهم الفكرى لمدة خمسمائة عام من التاريخ .

ويعتبر دافلتر مثالا لأفضل من تعلموا تعليما دنيويا ومسيحيا من الإنسانين . وكان لديه قدر قليل من المعرفة العلمية . وكان تعليمه الإبتدائى والثانوى فى ثلاثية الفنون الحرة التى تشمل النحو والمنطق والبلاغة والرباعية التى تشمل الحساب والفلك والهندسة والموسيقى . ودخل الجامعة فى "بادو" عندما بلغ الثامنة عشرة . ودرس هناك البلاغة مع "بارزيزا" و "جيوفانى درافيتا" الذى قضى سنوات كتابع وتلميذ فى منزل "بترارك" أول شاعر وناقد أدبى يستخدم اللغة الإيطالية المحلية . وتعلم دافلتر قدرا كبيرا من الرياضيات إلا أنه تحول تماما فى " بادو " وتلا ذلك فترة درس خلالها اليونانية فى فينيسيا وعاد دافلتر إلى بادو ونجح كأستاذ جامعى فى البلاغة . ولم يرق له حال طلبة الجامعة وفوضويتهم ومضايقاتهم له . فترك " بادو " ليعمل لدى " جونزاجا " حيث حول منزلا صيفيا فى أملاك الأخير إلى مدرسة . ويمكن أن نستشف طبيعة هذه المدرسة من الإسم الذى أطلقه عليها دافلتر ، وكان جونزاجا مصيبا عندما أطلق على منزله الصيفى Lagiosa أى " منزل المتعة " . ولكن دافلتر غير الإسم قليلا ليناسب المدرسة فأصبح لاجيوكاسا Lagiocasa " منزل المرح " . ولقد كان هدفه أن يصبح التعليم أمرا سارا وهو ما كان ينادى به كوينتيليان .

ويتمثل المرح فى " منزل المرح " فى طريقة دافلتر ، وموقع المنزل . إذ لم يكن أمر الدراسة سهلا ميسورا . ألم يقل كوينتيليان إن الذاكرة هى أول علامات الذكاء ؟ ألم يقل بلوتارخ بأهمية شحن ذاكرة الشباب ؟ إذ يمكن إستخدام الذاكرة العامرة بالمعلومات فى الخطابة . وهو ما يتفق فيه مع كوينتيليان وشيشرون وكلاهما أستاذ فى البلاغة والخطابة كما كان دافلتر ذاته . لقد تعلم الطلبة الفصاحة بتعلم اللاتينية .

أصبحت مدرسة لاجيوكاسا أو مدرسة المرح من المدارس الرائدة فى القرن

الخامس عشر . وقد درس كتاب النحو اللاتيني الذى ألفه نيكولاس فى هذه المدرسة وهو الذى استخدمه إرازموس ككتاب مدرسى . وكان التعليم فى لاجيوكاسا يبدأ مبكرا فى الصباح وفى سن مبكرة من حياة الطفل . فقد أكد كونتليان أن سن الثالثة أو الرابعة سن مناسب لبداية التعليم . ولقد قبل دافلتر إدخال الأطفال مدرسة لاجيوكاسا فى سن الرابعة والخامسة . وكان يدرس فى المدارس الإبتدائية المهارات الثلاثة : القراءة والكتابة والحساب ، وكذلك مبادئ التعليم الدينى أو على الأقل حفظ المزامير والعقيدة . ودعاء الرب ومدح العذراء . وقد أدخل دافلتر لإهتمامه بالناحية الخلقية تعليم الأخلاق من خلال التعليق على الأساطير اليونانية والرومانية فى قصص بلوتارخ الخيالية وسير حياة الشخصيات الدينية البارزة .

وعندما يتمكن الأطفال من المهارات الثلاثة ، أو يبدأون فى ذلك ينتقلون إلى تعلم النحو اللاتينى المبسط . ولم تكن اللاتينية أمرا صعبا بالنسبة لهؤلاء كما نتخيل إذ كان يتحدث بها كبار الأطفال بينما يستمع لهم صغارهم طوال الوقت . كما لم تكن اللاتينية لغة غريبة بالنسبة للأذن الإيطالية . لقد أعدت القدرة على القراءة الطالب للمرحلة التالية وهى التمرين السليم على الخطابة والفصاحة . وإتبع دافلتر الهلينيين بإدخال التمرينات والألعاب الرياضية فى مدرسته . كما كان يكيف برنامج المدرسة لمساعدة الطالب على التهيؤ للعمل الذى سيغله مستقبلا .

إرازموس (١٤٦٦-١٥٣٦ م) :

يعتبر إرازموس الهولندى من أكثر المرين الإنسانيين الذين حظوا بإحترام علمى كبير . فقد كان لدراسته وبحوثه على المخطوطات القديمة والدينية تقدير كبير من جانب المشتغلين بمثل هذه الدراسات . كما كانت كتبه الدراسية لتعليم اللغة اللاتينية يستخدمها أعداد لا تحصى من الطلاب فى أوروبا . وقد درس فى جامعة كمبريدج وجامعات فرنسا كما عاش فى عدة بلاد .

ولم يتفوق أى عالم فى ذلك الوقت على إرازموس الذى كان كاثوليكيًا ومن رجال الدنيا . وكان على علاقة وثيقة بالدوائر الثقافية الإنجليزية خلال فترات إقامته بإنجلترا . ولم تحمه شهرته العلمية وزهده فى السياسة من التعصب ضده .

فياضطر إرازموس عام ١٥٢١م إلى ترك لوفيان بيلجيكيا بسبب المجادلات الدينية . وكانت آخر أيامه فى سويسرا حزينة بسبب من إنتقدوه بمرارة من الكالفينيين الذين كرهوه بإعتباره كاثوليكيًا . كما غضب من الكاثوليكين بسبب سخريته ومطالبته بمستويات ثقافية وروحية عليا من الفكر فى توجيه رجال الكنيسة الكاثوليكية .

وبالرغم من قوة إرازموس بين المثقفين فإنه كان عاجزا عن أن يحدث توازنا فى القوى مع الشيشيرونين . ولو كان قد تمكن من إقتناع الشيشيرونين لاستمر المذهب الإنسانى وأثره على التربية . إلا أن إرازموس فشل ولم تصبح الدراسات الإنسانية سوى إهتمام متزايد بالنحو والأسلوب أى بالشكل أكثر من المضمون .

وقد حدد إرازموس أهداف التربية بأنها تتمثل فى الفلسفة الدينية . فهى أول واجب للتربية فى نظره . يضاف إلى ذلك تعليم الفنون الحرة . وتعليم الفرد واجباته فى الحياة ، وتعليم الأخلاق الحميدة منذ الطفولة المبكرة . وفى كتابة التربية الحرة للأولاد Liberal Education for Boys ينضم إرازموس إلى نقاد الطريقة اللغزية الشيشيرونية فى التدريس التى كانت تهتم بالدراسات القديمة . وقد فعل ذلك أيضا فى كتابة In Praise of Folly . وهو لم يرفض هذه الدراسات لكنه إمتدح دراستها دراسة واسعة من أجل تنمية المعرفة والذوق والحكم السليم لا لمجرد الحفظ والإستظهار . وأكد إرازموس على إستشارة إهتمامات الأولاد بالتعليم المحفز لا بقمعها وتحطيمها بالنظام الصارم . كما يجب أن يستبدل العقاب بلطف المعاملة والتشجيع . وعارض بشدة إستخدام الطرق الجدلية الديالكتيكية للفلسفة المدرسية والمدرسة الدينية . وإعتبر إرازموس الإنسان خيرا بطبيعته ، وأن الطبيعة خيرة وكريمة ، وأن طبيعة الإنسان قابلة للكمال إذا هين لها النمو فى الإتهام المرغوب . وهو يعتقد أن الدين مسألة ذكاء وفطنة ، وأن الإنسان يستطيع أن يصل إلى الأفكار الدينية الصحيحة إذا هين له الكتب الدراسية المؤلفة بطريقة محكمة . وكان تأثير آرائه أنها ساندت الإعتقاد بأن على الشخص المثقف أن يعرف اللاتينية واليونانية . وقد كان ذلك مما حمله عصر النهضة إلى العالم الحديث .

رابيليه (١٤٨٣-١٥٥٣ م) :

يعتبر فرانسوا رابيليه أشهر المفكرين والمؤلفين الفرنسيين فى عصر النهضة . وقد كان راهبا لكنه إشتهر أكثر كطبيب . وقد إستطاع أن يضحك الناس على المدارس فى عصره فى كتابه " جارجانتوا وبنتا جرويل " Gargantua and Panta-gruel الذى كتبه بالفرنسية . واستطاع به أن يصل إلى جمهور كبير . وقد تهكم فيه على الشكلية الجافة التى سادت المدارس الإنسانية فى عصره نتيجة لإهتمامها بالدراسات الكلاسيكية الشيشرونية وهو بهذا يشارك إرازموس فى نقده للممارسات التربوية الشيشرونية التى كانت سائدة فى المدارس فى عصرهما . فى هذا الكتاب يصف رابيليه " جارجانتوا وبنتا جرويل " كعملاقين خرافيين يؤديان أعمالا خارقة فى أمور سخيفة وأخرى عظيمة على السواء . وقد كانت التربية الأولى لجارجانتوا السبب الرئيسى للهرء الذى كان رابيليه يعتقد أنه الشئ الذى كان فى مقدور التربويون فى العصر الوسيط إحداثة . فمعلم جارجانتوا الملك الشاب العملاق هو " لوفرنس " وهو سفسطائى عظيم ودكتور فى علم اللاهوت . وقد علمه مبادئه الأساسية تعليما جيدا حتى أنه يستطيع أن يذكرها من نهايتها حفظا عن ظهر قلب . وقد إستغرق ذلك منه خمس سنوات وثلاثة شهور . ثم قرأ عليه كتب دونات ، ولوفاست ، وثيرودوليت ، والأنوس فى بارابوليس . وقد إستغرق ذلك منه ثلاثة عشرة سنة وستة شهور وأسابوعين . ويجب أن نتذكر أنه كان فى ذات الوقت يتعلم الكتابة القوطية . وأنه كتب كل كتبه إذ لم يكن فن الطباعة مستخدما فى ذاك الوقت . ثم قرأ عليه بعد ذلك كتاب " الطريق ذات المغزى " ومجموعة أخرى . وقضى فى ذلك أكثر من ثمانية عشر عاما وأحد عشر شهرا . وقد تمكن من كل ذلك بحيث أنه فى المناظرات المدرسية مع زملائه الطلبة يمكنه أن يستظهر ما حفظ عن ظهر قلب . ولكن بعد هذا الوقت الطويل فى الدراسة والحفظ يكتشف والد جارجانتوا أن ابنه درس كثيرا لكنه لم يستفد مما درسه شيئا لأنه تعلم بالأسلوب القديم . بل إن الأب عندما قارن بين ابنه وبين صبي صغير لم يبلغ من عمره الثانية عشرة إكتشف أن ابنه غبى جاهل . ولكن جارجانتوا تتاح له الفرصة مرة أخرى ليتعلم بالطرق الحديثة هذه المرة . ويستخدم معلمه فى تعليمه الأساليب الحديثة المبينة على الملاحظة والبعيدة عن القسوة . وفيها ترتبط الدراسة بواقع الحياة كما ترتبط

الدراسة الفعلية بالتربية الجسمية . وقد ضمن رابيليه هذه القصة إنتقاداته التربوية للممارسات التربوية للمدارس فى عصره كما ضمنها خطته للإصلاح .
لقد كان رابيليه يريد أن يستبدل استظهار المعلومات والدراسات القديمة بدراسة العلم الطبيعى . وهو العلم الذى وضعه كبار العلماء الطبيعيين اليونانيين الذين كتبوا فى الفيزياء والرياضيات والطب وعلم الحيوان . لقد كان رابيليه من أكثر من يقدرون ما كان عليه العلم اليونانى تقديرا عظيما . لقد وضع أمامه هدفا يسدد إليه الضربات وهو العصر الوسيط والمدرسية والشيرونية . أما من لا يعرفون أو لا يقدرون الإهتمامات الفكرية الأصلية لعلماء العصر الوسيط فقد بلغ بهم السرور مبلغه وأعدوا للماضى قبرا لما سموه " الغشاة المدرسية للعصور البربرية " كما وصفها هيلتون . وقد عبر رابيليه عن وجهة نظره فى الإصلاح التربوى . ومع أنه فى هذا الإصلاح لم يرفض الدراسات الكلاسيكية إلا أنه أكد على ضرورة توجيه هذه الدراسات وتطويرها ليصبح لها معنى حقيقى فى توجيه السلوك بدلا من تأكيدها على القيمة النظرية واللغوية . وإقتراح منهجا يتضح منه أنه ضم فيه كل المواد التى وردت بذهنه . ومنها اللغات اللاتينية واليونانية والعربية والعبرية والنحو والرياضيات والهنسة والفلك والجغرافيا والتاريخ والموسيقى والقانون المدنى والفلسفة والعلوم الطبيعية والتربية الرياضية .

وتوجد إختلافات حقيقية بين إرازموس ورابيليه . ولكن بالرغم من هذه الإختلافات الأساسية نجد أن البرامج التربوية عند كليهما متفقة غير مختلفة وحتى يمكن التمييز بينهما فى الأهداف الأسمى يستحسن أن نعتبر رازموس إنسانا مسيحيا ورابيليه إنسانا دنيويا . وكان يرى أن معرفة أعمال القدامى هى أداة قوية لتحسين مستقبل البشرية .

ستيرم (١٥٠٨ - ١٥٨٩ م) :

شكل الإهتمام بالنحو وأسلوب اللغة اللاتينية الشيشرونية التربية الأكاديمية لعدة قرون فى كل أوروبا الشمالية وإن لم يكن بالضرورة فى إنجلترا . ثم إن الشيشرونيين أداروا المدارس ومارسوا التعليم . ولم يؤلف الشيشرونيين كتبا فى التربية . ولكن كان لديهم مدارس ليراها الزوار المشوقون لرؤية نماذج للمدارس التى أسسوها . فقد كان معارضو الشيشرونية يكتبون المقالات ضدهم . أما هم

فكان لديهم المدارس . وإذا ما تأثر أحد المسئولين عن تنظيم المدارس بما كتبه رابيليه ضدّهم فإنّه لن يسعى إلى رابيليه للإرشاد العملى . لأن رابيليه لم يدر مدرسة تحتضن نظرياته . وكان نفس الشئ منطبقا على مونتاني ولوك . إن ناظر المدرسة الذى تشغله مصاعب مسئوليات تنظيم المدرسة قد يطلع باهتمام على المقالات المناهضة للشيشيرونية ولكنه يجد فى المدرسة الناجحة إقناعا أكثر .

ويعتبر " ستيرم " مثالا للتعليم المدرسى فى الجزء الأخير من الفترة الإنسانية، كما كانت مدرسة " لاجيوكاسا " التى أشرف عليها " دافلتر " فى أوائل عصر النهضة . ويعتبر بعض المؤرخين " هذا الأخير " ممثلا للمذهب الإنسانى أو النهضة فى جنوب أوروبا . وآخرون إعتبروا ستيرم ومونتاني ورابيليه وإرازموس وكومنيوس ومكاستر وميلتون ولوك وهم التربويون فى أوروبا الشمالية . ولا يوجد لهذه الحدود الجغرافية ما يبررها . لأن المذهب الإنسانى تجاهل الحدود الجغرافية أو حتى التفرقة بين كاثوليكى جنوى وبروتستانتى شمالى . ولكن إذا وصل الأمر إلى النظرية والتطبيق التربوى فإن المرء يتبين هذا الاختلاف .

لقد إهتم البروتستانت بأن يكون التعليم الإبتدائى متضمنا تعليم جميع الأطفال اللغة المحلية حتى يضمنوا قدرتهم على قراءة الكتاب المقدس وكتب الحوار الدينى المكتوبة باللغة المحلية . وكانوا يعلمون أن غالبية السكان لن يواصلوا تعليمهم بدرجة كافية تمكّنهم من تعليم اللاتينية . ومثلهم فى ذلك مثل البيوريتان فى مستعمرة خليج ماساشوستس الذين استصدروا أوامر من المحكمة فى عامى ١٦٤٢م و ١٦٤٧م بإنشاء مدارس إبتدائية لنشر دعوتهم حيثما كان هناك عدد كاف من السكان .

وكان تنظيم " ستيرم " للمدارس الثانوية Gymnasium على أساس الفصول المنتظمة . وبهذا وضع الأساس للمدرسة الثانوية . وفى مدرسته التى بناها فى ستراسبورج قسم " ستيرم " المنهج على عشرة صفوف متدرجة يقوم بتدريس كل صف أو كل قسم من المنهج معلم خاص . وكل معلم عليه أن يتبع المنهج المقرر . وكان المنهج مصاغا على أساس مفهوم التربية الحرة فى عصر الإصلاح . وقد تضمن مختارات من الدراسات الكلاسيكية القديمة والكتب الدينية القديمة والفنون الحرة والكتاب الإنسانين والمصلحين . وهذا المنهج المتدرج يعتبر من التجديدات

التربوية التي أخذها بها " ستيرم " ونقله عن مدارس " أخوة الحياة العامة " التي وجدت في أوروبا الشمالية في تلك الفترة . وطبقت فيها لأول مرة تدريج الصفوف . وكان " ستيرم " نفسه قد درس في هذه المدارس في بلجيكا وتخرج منها .

وقد إنتقلت فكرة المدرسة المتدرجة إلى المدارس الأوربية والجزر البريطانية وأمريكا الشمالية . وعندما زار هوارس مان وهنرى برنارد وهما من رواد التربية الأمريكية في منتصف القرن التاسع عشر وشاهدا هذه المدارس كتبوا إلي السلطات التعليمية في بلدهما عن فوائد المدرسة المتدرجة وإمتدحاهما .

لقد أفتتح " ستيرم " الجمنزيوم في ستراسبورج عام ١٥٣٧ وكان قد نشر كتابه : " الطريقة الصحيحة لتأسيس المدارس للتربية الأوربية " إعلانا عن الهدف الذي تسعى مدرسته إلى تحقيقه ووسيلة ذلك . ولم تسيطر على ستيرم فلسفة خاصة في التربية . لكنه كان مغرما بالخطابة والفصاحة اللاتينية كمثلى أعلى وكهدف للتربية في عصر إكتشف طريقة إلى التطور العلمى والتكنولوجى . لقد شهدت تلك الفترة جاليليو وكبلر ونيوتن وليبنز وغيرهم .

حركة الإصلاح الدينى (القرن السادس عشر)

مقدمة تاريخية :

كان من التحولات الهامة التى شهدتها أوروبا الغربية فى عصر النهضة وعملت على تشكيل العقلية الأوربية الإنقسام الدينى الخطير الذى ظهر فى القرن السادس عشر الميلادى وتمثل فى ظهور تيار معارضة قوى لسلطة البابا والكنيسة فى روما . وقد ترتب على هذا النزاع إنقسام العالم المسيحى إلى العالم البروتستانتى Protestant * الذى أصبح يحتج على سلطة الكنيسة الرومانية ومعارضها . والعالم الكاثوليكى الذى ظل متمسكا بالكنيسة فى روما وظل مواليا لها . وقد ضم آنذاك إيطاليا وفرنسا وجنوب ألمانيا والنمسا وأسبانيا والبرتغال .

* هي من كلمة Protest أي يحتج أو يعترض . وقد سما بذلك لأنهم بزعمهم لوثر احتجوا على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية وممارساتها وعارضوها وخرجوا عليها وكونوا لأنفسهم مذهبا دينيا جديدا .

وكانت ألمانيا مهد هذه الثورة الدينية التي قادها . " مارتن لوثر " الأستاذ بجامعة وتنبرج . وقد ثار " لوثر " ضد سلطة الكنيسة الصارمة وسيطرة رجال الدين والممارسات الدينية غير المعقولة ومن بينها إنغماس الكنيسة فى الحصول على أموال بطريقة غير مشروعة وإعطاء نفسها حق منح صكوك الغفران مقابل الأموال . ونادى " لوثر " بالتمسك بتعاليم الإنجيل والرجوع إليه فى الأمور الدينية وليس إلى ما تقوله الكنيسة . ونادى بتحكيم العقل فى تفسير الكتاب المقدس .

وكان موقف الكنيسة الأوربية فى العصور الوسطى الرفض التام للعقل مما أدى إلى ظهور نظريات خاطئة عن الكون والفلك والطب والجغرافيا ومختلف العلوم . فقوس قزح على سبيل المثال هو قوس حربى بيد الله ينتقم به من عباده إذا شاء . وأنشئت محاكم التفتيش فى أوروبا على يد راهب يسمى " تور كماندا " لمقاومة الفكر التحررى والعلمى ولمقاومة تأثير ابن رشد وتلامذته لاسيما فى جنوب فرنسا وإيطاليا . وكان ابن رشد مشهورا بشروحه الوثقى لأرسطو وله مكانة علمية كبيرة . وفى الفترة من ١٤٨١ إلى ١٤٩٩ م حكمت هذه المحاكم - كما يروى المؤرخون - على ما يزيد على عشرة آلاف شخص بالحرق أحياء وحكمت بالشنق على أكثر من ٦٠ ألف شخص بعد التشهير بهم بالإضافة إلى عقوبات أخرى . كما أنها أحرقت التوراة بالعبرية .

وهكذا كانت حركة الإصلاح الدينى محاولة للتوفيق بين الدين والأخلاق من ناحية ومصالح المجتمع الأوربى الجديد من ناحية أخرى . كما كانت حركة الإصلاح الدينى رد فعل لهذا النظام الإقطاعى الذى تحالفت معه الكنيسة . وكانت الكنيسة تحصل على أموالها من أراضيها وممتلكاتها وعمل عبيدها وقد ساعدت حركة الإصلاح الدينى مثل هؤلاء العبيد وفلاحى الأرض على الكفاح للتخلص والتحرر من الإستغلال الإقتصادى لهم . كما أن حاجة المدن إلى مثل هؤلاء العمال ساعدهم على هذا التحرر .

وفجر " لوثر " الحركة البروتستانتية فى ألمانيا عندما دعا إلى تحرير الجماهير وتحرير رجال المسيح . ومن ألمانيا بدأت حركة البروتستانت أو المحتجين ومنها إمتدت إلى باقى دول أوروبا . ففى سويسرا نجد زعيمها المشهور " كالفن " الذى ثار على الكنيسة الكاثولوكية يطالب بالعودة والرجوع إلى الكتاب المقدس

ورفض كل ما عداه . ومن سويسرا إمتدت الحركة الكالفنية البروتستانتية إلى فرنسا حيث عرف أتباعها " بالهوجينوت " . وفى إنجلترا عرف أنصارها بالمتطهرين Puritans وفى اسكتلندا بالبريسبتاريين Presbyterians وإمتد تأثير الكالفنية إلى أمريكا أيضا . ولم تكن الحركة البروتستانتية ضد الدين وإنما ضد سلطان الكنيسة وجبروتها .

مكانة المرأة :

قال " لوثر " إن الرجل خلق أولا . ومن ثم يجب أن يحكم زوجته فى المنزل . وقال إن الله وهبها أردافا كبيرة حتى يمكن أن تبقى بالمنزل وتجلس عليها ، وأن واجبها الطبيعى الذى منحها الطبيعة إياه أن تنجب الأطفال . وقبل الثورة الصناعية فى أوربا كان مجال عمل المرأة هو المنزل . وكانت هناك حالات قليلة نادرة إستثناء من هذه القاعدة كأن تدير المرأة محلا أو فندقا أو تباع الأدوية وأدوات التجميل أو تقوم بأعمال التمريض أو تكفين الموتى . وبعض النساء كانت تدير مدارس للفقراء . وكانت هذه المدارس فى إنجلترا ومستعمراتها الأمريكية تسمى " مدارس السيدة " . وكانت بعض نساء الطبقة الأراستقراطية لاسيما فى العالم اللاتينى تتمتع بحرية أكثر من نظيراتها فى العالم الغربى الآخر ومن نساء الطبقة الوسطى والدنيا فى مجتمعها . فكانت نساء الطبقة الوسطى والدنيا على العموم يتركز عملها فى المنزل وواجباتها حسب أخلاقيات هذه الطبقة طاعة زوجها والعفة والاقتصاد فى المصروف وتدبير شئون المنزل وإنجاب الأطفال .

وكان الرجال يخشون النساء ويعتقدون أنهن موهوبات فى السحر ونظراً لأن المرأة أضعف من الرجل فإنها تقع بسرعة فريسة للشيطان . ولذلك كان من حق الزوج قانونا وخلقاً أن يضرب زوجته . وقد حدد القانون الإنجليزى إستخدام عصا للضرب لا تتجاوز فى سمكها حجم الأصبع . وحرم قانون ولاية ماساشوستس الأمريكية سنة ١٦٤١م مثل هذا العقاب الجسدى وإعتبره عملا منافيا للكرامة .

الاتجاهات التربوية لحركة الإصلاح الدينى

كان من أهم الاتجاهات التربوية التى ظهرت وعبرت عن نفسها بصورة عملية نتيجة لحركة الإصلاح الدينى متمشية مع منطق هذه الحركة فى الإصلاح الدينى

والإجتماعى . ويمكننا أن نعرض لأهم هذه الإتجاهات فيما يلى :

١ - برز نتيجة الإصلاح الدينى وظهور المذهب البروتستانتى الإهتمام باللغات الكلاسيكية . وهو أمر شاع فى عصر النهضة . إلا أن الهدف هنا كان من أجل أهمية هذه اللغات فى قراءة الكتاب المقدس وكتب السالفين باللغة الأصلية . ومن ناحية أخرى كان هناك إهتمام باللغات المحلية لأغراض دينية أيضا . فقد قام " لوثر " بنشر ترجمة للإنجيل باللغة الألمانية المحلية . وكان إستخدام لوثر للألمانية نذيرا بالتعليم العام . إذ يتحتم تعليم جميع الأطفال الألمانية إذا أريد أن يكون لترجمة الكتاب المقدس أية أهمية . لقد كان هدف لوثر من ترجمة الإنجيل أكثر من تلميح . وكان لدى كل قائد بروتستانتى نفس النوايا عن تعليمه للجماهير بلغتهم المحلية ومن النسخة المحلية من الكتاب المقدس .

٢ - ترتب على الإصلاح الدينى البروتستانتى الإهتمام بدراسة الدين وتنمية عاطفة الولاء والحب للكنيسة البروتستانتية .

٣ - نرنب على الحركة البروتستانتية إنتشار المدارس الدينية العامة التى تفتح أبوابها مجانا لكل الأطفال لكى يتعلموا فيها قراءة الإنجيل وتفسيره وشرحه بإعتبار أن هذا هو الطريق إلى السعادة الأبدية . وقد قام بإنشاء هذه المدارس الهيئات الدينية المختلفة .

٤ - عملت الحركة الإنسانية من ناحية وحركة الإصلاح الدينى من ناحية أخرى على التقليل من سيطرة الكنيسة على المدارس والتعليم . وبدأ البروتستانت يتوجهون إلى الحكومات القومية والمحلية لإنشاء المدارس وتنظيمها من أجل بناء المجتمع البروتستانتى . وهكذا بدأت مرحلة تعليمية هامة تميزت بها التربية فى أوروبا الغربية وهى مرحلة بناء النظم القومية للتعليم . ومع هذا فقد ظل للكنيسة رقابتها على التعليم بإعتبار التربية وظيفية لها لا سيما فى البلاد الكاثوليكية ومنها فرنسا وإيطاليا وأسبانيا .

٥ - بدأ فى عصر الإصلاح الدينى الإهتمام بإعداد المعلم ووضعت بعض المعايير التى تحدد مستويات المعلمين ووضعت البرامج لتدريبهم وإعدادهم . وقد حدد " لوثر " مواصفات المعلم بأن يكون جيد الإعداد وله إحترامه وكرامته،

وأن يعمل بترخيص من الدولة . وشهدت هذه الفترة إنشاء أول مدرسة لإعداد المعلمين فى العالم سنة ١٦٨٤م فى " ريمز " Rheims بفرنسا . وقد أنشأها " دى لاسال " مؤسس مدارس الإخوة المسيحية .

حركة الإصلاح الدينى والتعليم العام الشامل :

إن فكرة التعليم العام الشامل الإجبارى كما نفهمه اليوم هى فكرة قديمة تمتد جذورها القديمة إلى التربية الإمبرطية التى كانت تقدم لأبنائها المواطنين تعليما عاما مجانيا إجباريا . ولكنها إستثنت من هذا التعليم البنات وغير المواطنين من الذكور . أما نظام المنح الدراسية فيرجع إلى التربية الرومانية والعصور الوسطى عندما كان يقدم تعليم مجانى لبعض التلاميذ الفقراء . ولم يرض " لوثر " بهذا النظام الضيق . ودعا إلى إنشاء تعليم أولى عام مجانى وإجبارى لأبناء جماهير الشعب . وقد بنى رأيه هذا على إيمانه وعقيدته التى تقول بأن الله فرض على كل فرد قراءة وتفسير الإنجيل كطريق وحيد إلى الخلاص . وهكذا كانت دعوته إلى التعليم العام قائمة على هذا الأساس الدينى .

إن أصول التعليم الجماهيرى فى الغرب ترجع إلى المدارس الأولية البروتستانتية لتعليم القراءة باللغة المحلية . وكانت ألمانيا أسبق من غيرها فى جعل التعليم الأولى عاما والزاميا للجنسين منذ سنة ١٥٦٥م . وحدث ذلك فى هولندا سنة ١٦٨٩م وفى إسكتلندا سنة ١٦٨٦م ، وفى فرنسا سنة ١٦٩٨م وفى إنجلترا سنة ١٨٧٦م . ويرجع تأخر الإلزام فى إنجلترا إلى إنتشار التعليم الأهلى والخاص بفضل الهيئات الدينية الخاصة وإلى شعور الطبقات الحاكمة بأن تعليم الفقراء فى ظل النظام الإقتصادى السائد آنذاك غير ضرورى وغير مرغوب فيه .

وقد دعا " لوثر " إلى الحضور الإجبارى للأولاد فى المدارس لمدة ساعتين يوميا وللبنات لمدة ساعة واحدة . كما دعا إلى تعليم الأولاد أما البنات فتتعلم الواجبات المنزلية . وإعتقد " لوثر " بأن على الدولة أن تمول التعليم الإبتدائى والثانوى ويجب أن تدرس اللغات اللاتينية واليونانية والعبرية فى المدرسة الثانوية . وهكذا إرتبطت حركة الإصلاح الدينى بالتعليم العام المجانى الشامل الإلزامى . كما إرتبطت بإنتشار المدارس الخيرية المسيحية فى مختلف أنحاء العالم المسيحى فى إنجلترا والمستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية . لكن

ماذا كان من أمر التربية الكاثوليكية ؟ هذا ما سنتناوله فى السطور التالية :

التربية الكاثوليكية :

سبق أن أشرنا إلى أن جنوب أوروبا بقى على ولائه للكنيسة الرومانية الكاثوليكية . بيد أن الحركة البرتستانتيية كان لها تأثير من نوع آخر على الكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى إهتمام الأخيرة بحماية نفسها من المروق والإنشقاق عليها وما يتصل بذلك من ضرورة الإهتمام بحماية العقيدة الكاثوليكية . وقد تنبه الكاثوليك إلى أهمية التعليم فى تحقيق هذه الأهداف فعولوا على إصلاح تعليمى للكنيسة . وطوروا أسلوب القسس . وأعادوا تنظيم مدارس الأبرشيات . كما أنشأوا مدارس جديدة لإعداد الأطفال الكاثوليك . وقد بدت جهود الكاثوليك التربوية بوضوح فى فرنسا حيث أنشئت المدارس الكاثوليكية . وكان من أشهرها " مدارس الإخوة المسيحية " التى أسسها " جين باتيست دى لاسال " سنة ١٦٦٢م ، ومدارس " جمعية المسيح " التى تعرف " بمدارس الجزويت " . وكانت هذه المدارس خاصة بالبنين . كما أنشئت أيضا مدارس كاثوليكية للبنات بفضل جهود متعددة من أبرزها جهود " أخوات نوتردام " " وأخوات القديس يوسف " وغيرهن . كما كانت هناك مدارس الأديرة للبنات . وقد تركز إهتمام مدارس " دى لاسال " على التعليم الأولى . وكانت المدارس الأولية مجانية خاصة بتعليم الفقراء وكانت خاصة بالبنين فقط . وكانت تعلم باللغة الوطنية . وقد حقق " دى لاسال " شهرة كبيرة فى مجال إعداد المعلم . فإليه يرجع الفضل فى إنشاء أول " مدرسة نورمال " لإعداد المعلمين فى العالم . وهى المدرسة التى أنشأها فى " ريمز " بفرنسا سنة ١٦٨٤م كما أشرنا . وكان لا يسمح لأحد بالتدريس فى المدارس الأولية إلا إذا كان قد تخرج من هذه المدرسة . وكانت هذه المدارس الأولية أول من قسم التلاميذ إلى فصول حسب قدراتهم ومع مراعاة الفروق الفردية بينهم . أما مدارس الجزويت فكانت مدارس ثانوية وعالية إستهدفت إعداد القادة الذين ينافحون عن الكنيسة ويدافعون عن العقيدة الكاثوليكية . وكانت هذه المدارس جميعا من أولية وثانوية وعالية تحت إشراف الكنيسة الكاثوليكية وكانت هى التى تساعدها بأموالها .

وقد إهتمت مدارس الجيزويت بالتربية الجسمية والرياضية إلى جانب النواحي المعرفية الخاصة بالتربية الدينية والخلقية . كما إهتمت بإعداد أفضل للمهن .

فطوروا مدارس عالية لتخريج أفراد فى التخصصات المهنية المختلفة كاللاهوت والقانون والطب . وقدم الجيزويت نموذجاً ناجحاً من المدارس فاق فى أسلوبه ونظامه وجودته مدارس البروتستانت . فقد طور الجيزويت طريقة خاصة للتدريس اعتمدت على الإجابة والإتقان والشرح والمناقشة والفهم والتكرار والمراجعة المستمرة من جانب المعلم والمشاركة الفعالة من جانب التلميذ . كما اعتمدت طريقتهم على المنافسة والرغبة فى التفوق بين جماعات التلاميذ يتبارون من أجل الفوز بعضوية جماعة الشرف التى كانت تنظمها المدارس . واتبع الجيزويت نظاماً حازماً فى مدارسهم إلا أن العقاب البدنى لم يكن يستخدم إلا فى نطاق ضيق وفى ظل ظروف خاصة .

الحركة الواقعية فى القرن السابع عشر :

تعتبر الواقعية رد فعل ضد الحركة الإنسانية فى عصر النهضة . فقد انتقدت الواقعية التربية الإنسانية بأنها تربية عقيمة ذات منظور ضيق يقتصر على دراسات الآداب الكلاسيكية . كما أن طريقتها لفظية جوفاء تهتم بدراسة الألفاظ والأساليب البلاغية دون إهتمام بالفهم أو المحتوى . ومن ثم جاءت الحركة الواقعية بمنظور تروى واسع يتسع لعدد هائل من العلوم المختلفة المتنوعة . وجاءت أيضاً بطريقة جديدة تؤكد على أهمية فهم المحتوى واستخدامه فى معرفة ودراسة الواقع الإنسانى والطبيعى مما سيأتى تفسيره . وتستمد الحركة الواقعية إسمها من فكرتها الأساسية التى تقوم عليها وهى دراسة الواقع .

وقد إتخذت الواقعية عدة إتجاهات من أهمها : الإتجاه الواقعى الكلاسيكى الذى يسمى أحياناً بالإتجاه الواقعى الإنسانى ، والإتجاه الواقعى الحسى الذى يسمى أحياناً بالإتجاه الواقعى العلمى كما أشرنا .

الإتجاه الواقعى الكلاسيكى :

يمثل هذا الإتجاه كل من " فايفز " الأسبانى و " رابيليه " الفرنسى - وهو ينتمى إلى فترة سابقة وقد أشرنا إليه من قبل - و " ميلتون " الإنجليزى . ويعتبر الإتجاه الواقعى الكلاسيكى طليعة المدرسة الواقعية . ولذلك لم يستطع رواه أن يتخلصوا تماماً من تأثير الحركة الإنسانية التى كانت سائدة من قبل . ومن هنا إتخذ هذا الإتجاه تسميته . ويتفق أصحاب الواقعية الكلاسيكية مع

أسلافهم الإنسانيين فى تسليمهم بأهمية الآداب الكلاسيكية على أنها المواد الجديرة بالدراسة . إلا أن الإختلاف بينهم كان فى الهدف والطريقة . لقد إهتم الواقعيون الكلاسيكيون بأن تكون أهدافهم واقعية وطريقتهم واقعية أيضا .

كان هدف التربية فى نظر الواقعية الكلاسيكية هو فهم العالم الواقعى للإنسان والطبيعة ومساعدة الفرد على التلاؤم مع واقع البيئة التى يعيش فيها .

ومع أن الواقعية الكلاسيكية تهتم بدراسة الآداب الكلاسيكية فإنها لا تدرسها كهدف فى ذاتها . وإنما تدرسها بغرض نفعى وظيفى يتمثل فى قيمتها كمصدر للمعلومات التاريخية الإجتماعية والعلمية ودورها فى تنمية الشخصية الإنسانية الكاملة جسميا وعقليا وخلقيا وإجتماعيا ومهنيا لأداء العمل بكفاءة . وتهتم الواقعية الكلاسيكية بدراسة الكتب الكلاسيكية والموسوعية بإعتبارها الطريقة الصحيحة لتكوين مثل هذه الشخصية . إلا أن دراسة هذه الكتب يجب أن يتركز الإهتمام فيها على فهم معانى محتواها ومضمونها وليس على أسلوبها وألفاظها وتراكيبها وبلاغتها كما كان الأمر فى الإتجاه الإنسانى . ويضيف الإتجاه الواقعى الكلاسيكى إلى ذلك الألعاب الرياضية والمواد الجغرافية والتاريخية بإعتبارها موادا ضرورية لفهم واقع الإنسان والطبيعة . أما فى المدارس العالية والجامعات فكانت الدراسة تتركز على المواد الضرورية للإعداد للمهن فى اللاهوت والقانون والطب والهندسة بالإضافة إلى السياسة والحرب . وقد إهتمت الواقعية الإنسانية بدراسة اللغة اللاتينية بإعتبارها لغة حية بل وضرورية كلغة عامة مشتركة ولغة ثقافة تتخطى نطاق الحدود الإقليمية لتوحد بين العلماء فى مختلف البلاد ولتكون لغة تأليف الكتب التى توحد بين المؤلفين والدراسين فى شتى الأرجاء . وكان أساس هذا الإهتمام هو الإعتقاد بأن اللاتينية تحتوى كل المعارف العظيمة . بيد أن الواقعية الكلاسيكية لم تهمل اللغة القومية . بل إعتبرتها ضرورية للتعليم . ويجب أن يكون المعلمون قادرين على التحدث بها بلغة صحيحة . كما أن من واجبهم إلى جانب الآباء أن يعلموا التلاميذ الحديث بها . لقد كان منهج التربية كما تصوره الواقعيون الكلاسيكيون موسوعيا يعتمد أساسا على الكتب والمؤلفات العظيمة . وكان متسعا وشاملا لمختلف أنواع العلوم والفنون لدرجة جعلت تحقيقه بطريقة فعالة أمرا مستحيلا .

الإلتجاه الواقعى الحسى :

يمثل هذا الإلتجاه " فرانسيس بيكون " و " جون لوك " و " جون ستيوارت مل " من الإنجليز ، و " راتكه " الألمانى ، و " كومينبوس " الموارفى الذى تأثر بآراء بيكون وحاول تطبيقها .

ومن المعروف أن النظرية التربوية الإنسانية قامت على أساس إحياء فكرة الفنون الحرة لدى الإغريق والرومان التى تتميز بطابعها العلمائى . وهى بهذا كانت تتباين مع النموذج التربوى الدينى للمعصور الوسطى . ولكن كلا النمطين من التربية لم يكن كافيا لسد حاجة المجتمع الأوربى . فقد جاءت التربية الإنسانية أرسقراطية فى طابعها لا تعبر عن الإحتياجات الإجتماعية والفكرية . ولذلك ظهرت الحاجة إلى نوع من التربية يسد إحتياجات الطبقة الوسطى الجديدة التى بدأت تظهر فى أوربا وتأخذ دورها فى مختلف مجالات المجتمع . وكاه هذا إيذانا بمولد نظرية التربية الواقعية الحسية . وكان ظهور الإهتمام بالعلم والطريقة العلمية إلى جانب الإحتياجات القومية والتجارية عاملا هاما فى التركيز على الدراسات الواقعية وإصلاح طريقة التدريس وزيادة الفرص التعليمية للناس عامة .

وشهد القرن السابع عشر إهتماما باللغات المحلية وإستخدامها فى تحصيل المعرفة . كما إهتمت طريقة التدريس بالتعليم من خلال التجارب الحسية والإدراكية وليس من مجرد الألفاظ . وظهر الإهتمام أيضا بتعليم الأشياء والقوانين المتصلة بالعالم المادى من أجل السيطرة عليه . وشهدت أيضا الدعوة إلى فتح أبواب التعليم أمام كل الطبقات الإجتماعية . وكان من نتيجة الإهتمام بالتربية والتعليم عن طريق الخبرة الحسية وملاحظة الأشياء فى واقعها أن ظهرت فلسفة تربوية جديدة أخذت إسمها من هذا الإلتجاه الجديد وأصبحت تعرف بالنظرية التربوية الواقعية الحسية . ويمكننا أن نلخص أهم المبادئ والإلتجاهات التربوية الرئيسية لهذه النظرية فيما يلى : -

* يجب أن تهدف التربية إلى تمكين الإنسان من السيطرة على البيئة الطبيعية وعالمه الواقعى .

* تعتبر دراسة العلوم الطبيعية العلمية ضرورية من أجل مساعدة الإنسان على فهم بيئته وواقعه الطبيعى . ويجب أن يخصص لدراستها وقت كاف فى

المدرسة مع الإهتمام بالنواحي التطبيقية .

* يجب أن تهدف التربية أيضا إلى إثراء المعرفة وتنميتها من أجل رفاهية البشر والتقدم الإنساني ولذلك يجب الإهتمام بالتجريب والإكتشاف فى الأنشطة التربوية .

* لا ينبغي أن يقتصر التعليم على الكتب وحدها كما فى الإتجاه الواقعى الإنسانى وإنما يجب أن ينظر إلى الطبيعة على أنها كتاب مفتوح منه نتعلم أسرارها من أجل الإستفادة العلمية ومعرفة قوانينها والسيطرة عليها .

* قوى الإنسان هى جزء من قوانين الطبيعة . وعلى التربية أن تسعى لإكتشاف هذه القوانين الطبيعية للإنسان التى تتحكم فى تعليمه حتى يمكن تربيته على أساس سليم .

* يجب أن تتمشى التربية مع مراحل النمو السيكولوجى الطبيعى للطفل وأن تتمشى مع مداركه وقدراته . ويجب أن ينظم السلم التعليمى للمدارس على هذا الأساس .

* الحواس مصادر ضرورية . ومن هنا أخذت الحركة أسمها ويجب أن تستغل التربية هذه الحواس بكفاءة وأن تعمل على تنميتها من خلال التعليم عن طريق اللعب والعمل والنشاط والتمرينات وغيرها .

* يشترك الإتجاه الواقعى الحسى مع الإتجاه الإنسانى فى جعل اللغة الوطنية لغة التعليم وضرورة الإهتمام بتعليمها أولا قبل دراسة اللغات اللاتينية واليونانية وغيرها .

فرانسييس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦ م) :

يعتبر (فرانسييس بيكون) والذى شهر " بلورد ديكون " من أعظم من روج للعلم فى عهد الإصلاح الدينى . ولم يكن هو نفسه عالما وإنما كان فذا فى ترويج الأفكار والقيم العلمية . وذلك من خلال مقابلاته الكثيرة وتأثير وضعه السياسى ومكانته الإجتماعية . فقد ولد بيكون فى لندن عام ١٥٦١م فى أسرة عريقة . وكان أبوه حامل أختام الملكة فى عهد الملكة اليصابات (إليزابث) . وكانت أمه سليلة السير " أنتونى لوك " الذى كان مريبا لإدوارد السادس . وقد تبنى تربية أرسطراطية وتخرج من جامعة كمبريدج . واشتغل بالسياسة وانتخب

عضوا فى البرلمان . وتقلد عدة مناصب وأصبح قاضى القضاة وعرف عنه إستغلال مناصبه للحصول على الرشاوى . وإنتهى الأمر بطرده من الوظائف العامة .

ويمكن تأثير بيكون الحقيقى بصورة رئيسية فى قدرته على عرض الأساليب العلمية وتوضيحها بأسلوب بليغ مقنع مؤثر مع أنه - فى نظر بعض المؤرخين - لم يكن له أفكار علمية جديدة . وقد شعر بيكون بأن عقول الناس فى عصره قد سيطر عليها الخرافات والتقاليد البالية . وأنهم إعتمدوا أكثر من اللازم على فلسفة أرسطو والفلسفة المدرسية . وإنتقد هؤلاء لكثرة كلامهم وقلة عملهم وأنهم شغلوا بتنسيق الألفاظ والأساليب . وإعتقد أن العلاج الحقيقى لذلك هو الإعتقاد على الأسلوب العلمى . وفى كتابه " الكرامة والتقدم فى التعليم " إستعرض الجانب العلمى للتعليم ودافع عنه . وفى كتابه " الطريقة الجديدة " شرح بيكون بالتفصيل الطريقة الإستقرائية أو العلمية التى يمكن بها التوصل إلى المعرفة الدقيقة . وبين أن العالم ينبغى أن يلاحظ الطبيعة ويقوم بجمع المعلومات الكثيرة ويصل إلى التعميم من هذه المعلومات الجزئية عن طريق العناصر المشتركة وأوجه الشبه بينها .

وأكد بيكون على القيمة النفعية للمعرفة . وتكلم على العلوم الفلسفية القديمة والعلوم النظرية بأن مثلها مثل التماثيل فى قدمها وعدم تحركها . ومن ناحية أخرى إمتدح العلوم النافعة ذات القيمة العملية . وقد أراد بيكون بذلك أن يجذب الإهتمام لتسخير العلم فى خدمة الإنسان .

وقد آمن بيكون بأن المعرفة الحقيقية المثمرة هى معرفة الطبيعة . وهى المعرفة الجديرة بأن تعلم فى المدارس وأن يخصص وقت كبير لدراستها . إن المهمة الكبرى للتربية فى نظر بيكون هى تعليم قوانين الطبيعة وذلك لأهمية هذه العلوم فى معرفة قوانين الطبيعة . ومن هنا يجب أن تكون أكثر المواد الدراسية . وهو ما يجب أن يتجه إليها المعلم ويجب أن تمثل المحتوى الحقيقى للتعليم . وهكذا كان بيكون مهتما بمحتوى التعليم أكثر من إهتمامه بأى شئ آخر .

كومينيوس وآراؤه التربوية (١٥٩٢ - ١٦٧٠ م) :

هو أسقف بروتستانتى من مورافيا من رواد المدرسة الواقعية الحسية فى

التربية . وكان مدفوعا بالعدالة الإجتماعية وحب الخير للجماهير . كما كان مهتما بتحسين حياتهم . ولم تكن كتب التاريخ الغربية التي تناولت التربية خلال الجزء الأخير من القرن السادس عشر والقرن السابع عشر مخلصه فى عرض حقيقة الأخطار التي تعرض لها عدد من التربويين فى تلك الفترة المليئة بالصراع الدينى الهائل . منهم بيتر راموس (١٥١٥ - ١٥٧٢ م) الذى ألف كتابا لم ينل تقديرا كافيا حتى الآن . ونفى مرتين الأولى عام ١٥٦٢ م والثانية عام ١٥٦٧ م . ونفى معه آلاف من الفرنسيين البروتستانت الهوجونوت وقد قتل "راموس" فى المذبحة الوحشية يوم الإحتفال بيوم سانت باثلوميو (٢٣ - ٢٤ أغسطس ١٧٥٢م) . وبموجب أمر العفو سنة (١٥٩٨م) منحت الحرية الدينية للبروتستانت الفرنسيين . إلا أن الجدل الدينى المرير فى فرنسا لم يصل إلى نهاية . وتورط فيه التربويون أنفسهم . ولم يسلم كومينيوس من هذه المحن . ولم يكن له منافسون من بين أشهر التربويين فى أيامه . وأصبح كتابه فى النحو اللاتينى " فتح باب اللغات " من أحب الكتب وترجم من التشيكية إلى إثنتى عشرة لغة أوربية وأربع لغات آسيوية . وقد إزدادت شهرته بعد نشر كتاباته التالية مما أغرى كبار الإنجليز البرلمان على دعوة كومينيوس لتأسيس جامعته المثالية المسماة " باناسوفيك Pansophic أى المعرفة الشاملة . . ولكن ذلك لم يتم لإندلاع الحرب الأهلية الإنجليزية سنة ١٦٤٢م . ورحل كومينيوس إلى السويد بهدف تأسيس جامعته المنشودة . أما الشئ الذى لم ينتشر فهو أن القائمين على أمور كلية " هارفارد " الأمريكية دعوا كومينيوس - وكان وقتها يعيش فى هولندا - ليصبح رئيسا للكلية بعد إستقالة رئيسها " دنستر " عام ١٦٥٤ .

ونادى كومينيوس بكثير من المبادئ التربوية التى أكدها الإنسانىون ومن أهمها التأكيد على التعلم من خلال الحواس . وتعليم الأشياء لا الكلمات والألفاظ ، والإنتقال من السهل إلى الصعب ، ومن المعروف إلى المجهول وتنظيم المادة الدراسية تبعا لصعوبتها ، وتمشى التعليم مع عمر التلميذ وقدراته وإهتماماته ، وجعل الأطفال يتعلمون طرق العمل من خلال أنشطتهم وخبراتهم . وهى نقطة تردد صداها بقوة فى التربية الحديثة لا سيما لدى جون ديوى فيما بعد . ومن المبادئ التى نادى بها كومينيوس أيضا أن يكون جو المدرسة محببا للتلميذ . وأن تكون مزينة بالصور . وأن يكون المعلمون متعاطفين ، وأن يكافأ

المجد على جده . ونادى كومينيوس بتكافؤ الفرص التعليمية للأولاد والبنات بصرف النظر عن أوضاعهم ومكانتهم الإجتماعية . وقد كانت هذه الدعوى سابقة لأوانها ومضت بعدها ما يقرب من ثلاثة قرون قبل أن توضع موضع التنفيذ .

ونادى كومينيوس بالغاء النظام التعليمى الثنائى الذى كان قائما آنذاك فى أوربا . أحدهما نظام المدارس الأولية التى تعلم باللغات المحلية وهى لجماهير الشعب . وكانت هذه المدارس وضيعة . أما النظام الثانى فهو نظام المدارس الثانوية الكلاسيكية ذات المصروفات الباهظة والمقصورة على طبقات معينة من التلاميذ . ونادى بنظام تعليمى موحد يضم كل الأطفال ذكورا وإناثا من المراحل الأولى حتى المرحلة الجامعية . ويدرسون فيه منهجا موحدًا إجباريا حتى سن الثانية عشر (من ٦-١٢) . ثم يوجهون ويعدون للدراسة بالتعليم الجامعى على أساس قدراتهم وإستعداداتهم وليس على أساس من الجنس أو المكانة الإجتماعية . وقد طبق هذا النظام والسلم التعليمى أول ما طبق فى أمريكا .

ويجب أن نشير إلى أن كومينيوس لم يستطع التخلص من تعصب عصره ضد المرأة فمع أنه يساويها بالرجل من الناحية العقلية فإنه رأى تعليم المرأة كل ما يمكنها من رعاية منزلها وزوجها وأسرته .

جون ميلتون (١٦٠٨-١٦٧٤م) :

تعكس حياة " ميلتون " العملية الإنسجام بين المذهب الإنسانى الدينى والدينوى . فقد إتخذ " ميلتون " موقفا مستقلا فى النواحي الدينية مع إحتفاظه بكثير من صفات البيوريتانية . وقد كتب يقول بأن الغرض من التربية أن تصلح خرائب آبائنا الأوائل بطلب المعرفة الحقة لله ووجه من خلال معرفته وتقليده . وأن تصلح مثله وأن نقرب منه بأن نجعل أرواحنا حافلة بالفضيلة الحقة التى تتحد مع العطف الإلهى فى العقيدة وتصل إلى أقصى الكمال . كانت أفضل قصائد ميلتون " الفردوس المفقود دليلا على تمكنه من الأدب اليونانى والرومانى الكلاسيكى . لقد أثقل ميلتون قصيدته بالإشارة إلى الأدب الكلاسيكى حتى أنها تنتقد اليوم بأنها إستعراض للعلم وإن كان هذا أمرا مناسباً لزمانه .

لقد كانت كتابة ميلتون للشعر دليلا جزئيا على دنيويته . ألم يكن من صفات رجل البلاط والفارس القدرة على قرض الشعر ؟ بيد أن ميلتون أظهر الكثير من إنشغاله الدنيوى . لقد كان سكرتيرا للاتينية لأوليفر كرومويل عندما كان الأخير حاكم الكومنولث البريطانى (١٦٤٨-١٦٥٥م) . وكانت اللاتينية لغة الدبلوماسية والعلاقات الدولية . وقد شعر ميلتون كسكرتير اللاتينية بأنه يقوم بدور إيسوقراط (أى ينصح ويوجه الدولة) ولم يكن النصح والتوجيه شفويا ولكن فى صيغة خطابات مكتوبة .

ولقد ترسم "مليتون" خطى إيسوقراط الذى كتب وهو فى منزله الخاص مقالة إلى برلمان أثينا . وكانت مقالة ميلتون معدة على نسق دعوة إيسوقراط أثينا لقيادة حركة توحيد حكومات المدن اليونانية وخوض الحرب تحت قيادتها ضد الفرس .

وإذا إتجهنا إلى فكر ميلتون فى التربية فجدد نموذجاً لمعارضى الشيشرونية ومن يفرضون تعلم النحو اللاتينى واليونانى . وتشير مقالة ميلتون فى التربية عام ١٦٤٤م بسخرية إلى الدراسات الكلاسيكية على أنها " كلمات جوفاء " . . . كلمات وكلمات وكلمات " . ولقد ظهرت المقالة بعد سبع سنوات بعد أن رأس ميلتون مدرسته . وهى مدرسة النحو أو الأكاديمية كما كانت تسمى . لقد أقنعتة التجربة بأن طريق التعليم السليم ، وإن كانا شاقا عند صعوده ، يصبح فيما بعد سهلا تماما وأخضر ومفعما بالأمل والنغم على جانبيه بحيث لا تفوقه سحرا قيثارة " أورفيوس " . ولكن بطرق هذا الطريق إضطر ميلتون - مثل لوك - لإيجاد وسيلة لتشذيب العلم الشيشرونى وما به من لاتينية ويونانية . وكان ميلتون واضحا . فقد كتب يقول إننا نخطئ فى قضاء سبع أو ثمان سنوات فى تحصيل قدر من اللاتينية واليونانية البانستين . وهو قدر يمكن تعلمه بسهولة وإرتياح فى عام . ولكى يجعل الدراسة محببة إتخذ ميلتون طريقا رئيسيا يصله مع روسوفرانكلين ، وترهوى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الذين أصروا على أن يدرس الطلبة الدراسات الدنيوية التطبيقية . لقد وجه ميلتون طلبته إلى دراسة المؤلفات اللاتينية فى الزراعة حتى يتعلموا فيما بعد أن يحسنوا الحرث فى بلادهم ويحسنوا التربية السيئة ويعالجوا الضائع الذى يمكن أن يستفاد به . لقد أضاف ميلتون - عندما جعل من الدراسة هدفا فى تحسين مصير

الإنسان - إنسانية إلي إنسانيته المسيحية والديوية . وكانت تلك فلسفة فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦ م) الذى كان متحدثاً بإسم الإنسانية فى إنجلترا التى تعتبر خدمة البشرية صفة نبيلة . ولم يستطيع ميلتون الذى إتبع بيكون إلا أن يضمن المنهج الدراسى العلم الطبيعى الذى قال عنه بيكون بأنه أهم خادم للإنسان . ولكن الوقت لم يكن مناسباً بعد .

لقد إعتد نجاح الطلبة عند ميلتون على إجتيازهم مرحلة الدراسات الرباعية . فيدرسون الهندسة والرياضيات (الحساب) والفلك والجغرافيا . ثم تبدأ مرحلة العلوم التى تعتمد على الآلات مثل حساب المثلثات والعمارة والملاحة . ثم ينتقلون إلى الفلسفة الطبيعية . فيدرسون تاريخ الأجرام السماوية والمعادن والنباتات والمخلوقات حتى يصلوا إلى التشريح . وأخيراً يصلون لدراسة تلك الفنون التى تمكن الناس من الخطابة والكتابة المستفيضة الرشيقة . أما المنطق فإنه من الفائدة بحيث وضعه فى موضعه المناسب حتى يفتح عن البلاغة الرفيعة المنمقة . ويليه الشعر أو يسبقه لأنه أقل منه إعداداً ومهارة وإن كان أكثر حسية وعاطفة . من هنا فقط يبدأ الموسم الحقيقى للإثمار عندما يصير الطلاب كتاباً أكفاء ، ومؤلفين ممتازين فى جميع النواحي . إن مدرسة ميلتون قد تشبه إلى حد كبير مدرسة إسوقراط دون غيره . لأن إسوقراط هو الوحيد الذى وجه مدرسته نحو إعداد تلاميذها للحديث فى البرلمان أو المجلس . وجعل المعرفة الحرة ذات فائدة من خلال الخطابة . وهى تشمل جميع فنون الإتصال فى اللغة والنحو والبلاغة والمنطق . وكانت مدرسة ميلتون فى « سانت بول » تقوم على إفتراضات مشابهة ليتخرج منها أفضل خطيباً مشهوراً ومؤرخاً وشاعراً .

ويجب أن ندرك أن الإنسانين يميلون إلى التعميم أكثر من ميلهم إلى التخصيص . وقد حدد جون ميلتون الهدف الإنسانى من التربية الكاملة الكريمة بقوله « إننى أسميها تربية كاملة وكريمة تلك التى تناسب الإنسان ليعمل بعدل ومهارة وعظمة فى جميع المناصب عامة وخاصة فى السلم والحرب » . وقد بدأ المذهب الإنسانى الشيشرونى فى الخطابة والبلاغة . وكان ميلتون ذاته يكافح ضد المتخصصين كما فعل إرازموس قبله .

جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤ م) :

عاش لوك فترة تميزت فيها الحياة السياسية فى إنجلترا بالانقلابات

السياسية . وقد درس الطب لكنه لم يشتغل به . ومارس التعليم معلما خصوصا عدة سنوات فى أسرة " إيرل شافتسبرى الأول " . وبعدها ألف كتابه " بعض الأفكار حول التربية " سنة ١٦٩٣ م . وقد إستخدم فيه لوك نظرية العقد الإجتماعى لتبرير تحويل السلطة المطلقة للملك إلى سلطة الطبقة الوسطى فى البرلمان . والعقد الإجتماعى هو إتفاق بموجبه يفوض المواطنون السلطة إلى الحكومة فى مقابل قيام الحكومة بحماية الحقوق الطبيعية لكل المواطنين . وهى حق الحياة والحرية والتملك . وهى نظرية ترد صداها لدى روسو فيما بعد .

ولا يدانى مؤلف آخر مؤلف "لوك" . . ويصفه " ديورانت " بأنه أعمق الدراسات التى كتبت فى النظرية التربوية فى عصر لويس الرابع عشر وأعظمها نفوذا " . ولكن لم يكن يقرأ فى معاهد كونتليان للخطابة . ولا يرجع ذلك إلى أن لوك لا يمثل بذكاء هذا الإلتقاء السعيد بين الإنسانية الدينية والإنسانية الدنيوية . فقد كان لوك دنيويا وطالبا ناجحا فى العلم وعلم النفس (أنظر مقاله عن الفهم الإنسانى عام ١٦٩٠ م) . كما كان سكرتيرا خاصا لصديقه القوى " إيرل شافسترى " ومعلما خاصا لأسرته كما أشرنا . وكانت أفكاره التربوية دينية وإن كان الدين فى رأى لوك لا يلعب سوى دور ثانوى فى تكوين الرجل المثالى إذ يتمتع هذا الرجل بجسد سليم قوى وفضيلة وحكمة وتنشئة وتعليم طبيين .

وهدف التربية فى نظر لوك التربية الطبيعية للفرد تربية متكاملة وتشمل تربية الجسم والعقل والخلق . وهو يشير إلى أن العقل السليم فى الجسم السليم . إلا أنه ركز رهتمامه على التربية الخلقية وتعليم الفضيلة والحكمة والسلوك السليم والعادات الطيبة . وإهتم أيضا بالتعليم المعرفى . ونادى بأن يكون أسلوب التعليم بدون خوف وإنما بالحب والعطف . وهو لا يحبذ العقاب الشديد ويفضل عليه الثناء والمدح والتشجيع . ويؤمن لوك بأهمية الخبرة الحسية فى المعرفة . واعتبر الحس أساس المعرفة ، فالعقل عنده صفحة بيضاء Tabula Rasa يستمد خبراته من مصادر البيئة الخارجية . وقد أكد لوك على التدريب الشكلى لتدريب الملكات واعتبر الرياضيات خير وسيلك لذلك . ويميل أكثر مؤرخى التربية إلى إعطاء الفضل لجون لوك فى صياغته لنظرية التدريب الشكلى . ويتفق مفهوم هذا التدريب مع النظريات النفسية التقليدية التى كانت سائدة فى

القرن السابع عشر لاسيما علم النفس الأرسطي الخاص بالملكات العقلية والذي يعتبر العقل مقسما إلى ملكات معينة كالذاكرة والتفكير والانتباه والملاحظة .
ولما كان الشائع أن الفرد يستطيع إستخدام هذه الملكات إذا ما درب على ذلك ،
كان من الطبيعي أن يتجه التعليم إلى تدريب الملكات العقلية من خلال المواد
الدراسية المختلفة والتدريبات المناسبة .

وقد قصر " لوك " التربية على أصحاب البنيقات البيضاء ، فجعل التربية
من أجل الجنتملمان أو الرجل المهذب . وهى تربية ولا شك تقتصر على فئة
معينة . ويرى البعض أن هذا يتعارض مع النزعة التحررية التى عرفت عنه . . .
وقد كان لأفكار لوك تأثيرها على التربية الإنجليزية والأمريكية كما تأثر به من
جاء بعده لاسيما جان جاك روسو .

فرانك (١٦٦٣ - ١٧٢٧ م) :

يعتبر أوجست هرمان فرانك أحد ثلاثة هم رواد الحركة الحسية الواقعية فى
التربية فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر . وكان ثانى هؤلاء الرواد هيكر وثالثهم
باسيدو وإن كان هناك من يضعه ضمن رواد الحركة الطبيعية مع روسو .
وسنعرض لأراء هؤلاء مبتدئين براندهم . كان فرانك من أوائل الرواد الإنسانيين
الحقيقيين ، وكان مثالا على الضمير الدينى الذى يكمن خلف التوسع المبكر فى
الفرص التعليمية . إن الذى حرك فرانك هو مذهب الورع الألمانى وهو
بروتستانتى إنجيلى Evangelical . ولما كان مؤمنا بأن تبجيل الله بسلوك دينى
حقيقى هو أعظم هدف فى الحياة فقد أخذ على عاتقه جمع الأموال لتعليم الأطفال
الفقراء القراءة والغناء من أجل إعدادهم لخدمات الكنيسة حيث يقومون بالترانيم
الكنيسة . لقد تعلم الأطفال الفقراء من بلدة " جلاوشا " بألمانيا الذين وفدوا على
فرانك أكثر من مبادئ القراءة والغناء والكتاب المقدس . فقد تعلموا كذلك الغزل
والحياكة وأعمال الإبرة ولكن ليس بغرض التكسب منها . وكان الذين يأويهم
فرانك ممن يلبسون الأسمال البالية . لذلك علمهم ما يهمهم معرفته كى يدبروا
الثياب لأنفسهم . أما تلقيهم تدريبا مهنيا فكان أمرا عرضيا . إذ أن توقع ذلك
أمر مستبعد أن يقوم به فرانك الذى كان وزيرا فى البلدة وأستاذ اللغات الشرقية
واللاهوت .

ولعل أمتع المشروعات التربوية ما بدأه فرانك وأطلق عليه إسم Pedagogium البيداجوجيوم . وهى مدرسة لشباب الأرسقراطيين حيث كان برنامج الدراسة إنسانيا كلاسيكيا . كما ضمنه دراسات علمية للفتين الألمانية والفرنسية والرياضيات والفيزياء والتعددين والفلك والنبات والتشريح والجغرافيا والتاريخ والرسم والموسيقى . وبالرغم من عدم التعمق فى بعض الموضوعات فإن شمول الدراسة لموضوعات كثيرة فى مدرسة فرانك قد أكسبها شهرة واسعة فى أوروبا . لقد كانت هذه المدرسة بداية مبكرة للمدارس الثانوية الأكاديمية الأوروبية المعاصرة . وتطورت هذه المدرسة بعد قرنين من الزمان بعد وفاة فرانك . وأصبح هناك ثلاثة أنواع من الدراسات المنفصلة الثانوية فى أوروبا : أحدها يركز على اللغتين اليونانية واللاتينية واللغات الأجنبية الحديثة ، والثانى متخصص فى اللغات الأجنبية الحديثة وأضيفت إليه اللاتينية وبعض التاريخ . والثالث يركز على العلم دون إهمال اللغات الأجنبية الحديثة .

هيكير (١٧٠٧ - ١٧٦٨ م) :

يعتبر " يوهان جوليوس هيكير " من رواد الحركة الحسية الواقعية فى ألمانيا فى القرن الثامن عشر . لقد درس هيكير على يد فرانك فى كلية " هاله " وبعد تخرجه عمل مدرسا فى مدرسة فرانك . وكان هيكير من أتباع " مذهب الورع " . وتولى منصب راعى كنيسة " ترينتى " فى برلين عام ١٧٣٩م عندما إفتتح فرانك مدرسته . وبعد وفاة فرانك بعشرين عاما أعلن تلميذه هيكير المدرسة الواقعية الإقتصادية الرياضية . وقد كانت تلك مدرسة تجارية بدأت بإهتمام الملك البروسى بها . ولقد ملكت هذه المدرسة الواقعية خيال الملك . لأنها أعطت أملا فى غط تربوى يعد الناس ليكونوا منتحين . وكان هناك إختلاف واضح بين هذه المدرسة اللاتينية وبين البيداجوجيم التى أسسها فرانك . إذ إعتبرت المدرسة الأخيرة التعليم الفنى من المواد الإضافية على البرنامج الدراسى بينما إتخذ هيكير خطوة نحو التدريب المهنى وخصص فى صلب برنامج الدراسة فترات دراسية للتصنيع الزراعى ، وإمساك الدفاتر وأعمال المناجم . كما تضمن البرنامج دراسة الفيزياء والكيمياء والهندسة والميكانيكا والعمارة والرسم والنبات والتعددين . وقد صرح هيكير بأن مدرسته مدرسة مهنية واقعية .

وإن ما فعله هيكير هو إيجاد مدرسة بدأت بالفعل التدريب على العمل

وإعداد خريجها ليكتسبوا معيشتهم . ولم يكن هدف هيك أن يكون برنامج الدراسة فى المدرسة تعليماً عاماً جيداً . ولم يدع أن هذه الدراسات تستخدم أفضل طرق التعليم . فقد ترك هذا ليقول له روسو . ويكفى هيك فخراً أن خريجى مدرسته حازوا شهره واسعة بعيدة . ولقد امتدح الملك ميزات خطط "هيك" التربوية حتى أنه كلفه بوضع مشروع قانون التعليم البروسى عام ١٧٦٣ م الذى جعل التعليم الابتدائى إجبارياً . وخصص لذلك ميزانية من الأموال العامة . وتشهد المدارس الواقعية فى ألمانيا والبلاد الإسكندنافية حتى يومنا هذا تأثير "هيك" عليها .

جون باسيدو (١٧٢٢-١٧٩٠ م) :

يعتبر " جون برنارد باسيدو " آخر ثلاثة هم رواد الحركة الحسية الواقعية فى التربية الألمانية فى القرن الثامن عشر بالإضافة إلى فرانك وهيك . وقد اشتهر " باسيدو " بكتاباتة التربوية كما شهر بمدرسته التى عرفت باسم المدرسة الخيرية Philanthropium ، وإن قامت على مفهوم التربية الأرسطراطية . وكان تأثير باسيدو فى تشجيع وجود رقابة علمانية وليست دينية على المدارس . وقد أكد على أن يكون للأطفال من كل الأديان فرصة عادلة للالتحاق بالمدارس العامة . وقد جاءت هذه الأفكار الجديدة من فرنسا . وعندما صدر قانون سنة ١٧٨٧م أنشئ بموجبه جهاز مركزى للإشراف على المدارس الأولية والثانوية . كما تقرر بموجبه إمتحان نهاية التعليم الثانوى الذى يقبل بموجبه الطالب فى الجامعة . وهكذا تقرر مبدأ إشراف الدولة على التعليم العام فى ألمانيا . وقد إهتم " باسيدو " باستخدام النماذج والرحلات والصور كوسائل تعليمية فى التعليم . كما إهتم بالفنون العملية وأعمال النجارة اليدوية إلى جانب إهتمامه بتدريس العلوم والرياضيات بطريقة نافعة مفيدة .

عصر التنوير أو العقل Enlightenment

يشير مفهوم التنوير إلى مجموعة الأفكار التى إستحوذت على خيال الناس طيلة القرن الثامن عشر . وكان عصر التنوير رد فعل ضد النظم التسلطية لعصر الإصلاح الدينى وضد الملكية المطلقة وضد النظم الإقتصادية المغلقة والنظم القاسية والتسلط الدينى والنظرة غير العلمية للعالم وفكرة تأصل الشر فى

الطبيعة الإنسانية وسيطرة مفاهيم العصور الوسطى فى الحق والمعرفة على الحياة العقلية . وقد ظهر رد الفعل هذا بتزايد الإيمان بالرجل العادى والعلوم والعقل الإنسانى . ولذلك يطلق على هذا العصر أحيانا عصر العقل . ويعتبر التنوير من اليقظات الفكرية والعقلية التى شهدتها البشرية فى تطورها الحضارى . وقد شهد محاولة للإختيار بين مصادر المعرفة الثلاثة وهى الحواس والإيمان والعقل . ولكن العقل حقق إنتصارا كبيرا فى عصر التنوير بعد الإنتصارات التى حققها فى القرنين السابقين السادس عشر والسابع عشر فى العلوم الطبيعية .

وكانت فرنسا مركز حركة التنوير التى جاءت لتهاجم بشدة ما سادها من محسوبة وتفشى الشرور الناجمة عن سوء إستغلال الدين ، والظلم الإجتماعى وإنعدام العدالة الإجتماعية . وقد وصلت هذه المساوىء إلى قمتهما بقيام الثورة الفرنسية . وهكذا كانت حركة التنوير رد فعل عنيف ضد سوء الأحوال السياسية والإجتماعية والظلم الإجتماعى وغيرها من الأحوال التى تردت إليها فرنسا فى القرن الثامن عشر . ونادت - مثلها مثل حركة الإصلاح الدينى - بتحكيم العقل لا السلطة فى الأمور . وكان أهم رواد هذه الحركة الكاتب الفرنسى المشهور " فولتير " كما روج لها ما عرفوا باسم " الموسوعيين " : Encyclopedists الذين استهدفوا ترشيد المؤسسات الإجتماعية وإرسائها على قواعد من العقل . إلا أنهم إعتقدوا بأن عامة الشعب غير قادرة على تحكيم العقل لأنها همجية بطبيعتها . وهى أشبه بالثيران التى لا تعرف إلا الأكل ، والسوط الذى يوجه حركتها .

وكان من أهم نتائج نظريات التربية فى عصر التنوير التربية من أجل المواطنة . وإذا كانت التربية فى ظل حركة الإصلاح الدينى قد إستهدفت تربية المواطن إلا أنه مواطن دينى أى له الصفة السياسية والدينية معا . أما فى حركة التنوير فقد آمن مفكروها بالفصل بين الكنيسة والدولة . كما آمنوا بتكوين المواطن العلمانى لا الدينى . وكان أبرز ما أنتجته حركة التنوير هو مفهوم التربية العلمانية من أجل المواطنة . وقد نما هذا المفهوم فى فرنسا حيث كانت مركز حركة التنوير . وقد نادى المصلحون الفرنسيون من أمثال " لاشالوتية " و " ديدرو " و " كوندروسيه " بفصل المدارس عن الكنيسة ووضعها فى أيدي معلمين مسئولين أمام الدولة . كما نادوا بإنشاء نظام تعليمى علمانى عام وإجبارى للفقراء والأغنياء

على السواء . ومع أن فكرة علمانية التربية ظهرت فى عصر التنوير فإنها لم توضع موضع التنفيذ إلا فيما بعد . وكثير من أساليب التربية فى عصر التنوير سارت على غرار الأساليب التى جاءت بها حركة الإصلاح الدينى . وارتبطت الأهداف الإنسانية بالأهداف الدينية . واهتمت التربية فى حركة التنوير بإدخال الدراسات الكلاسيكية لاسيما فى منهج التعليم الثانوى كما إهتمت بالعلوم ودراسة الطبيعة .

والى جانب الأهداف السياسية والدينية والإنسانية استهدفت التربية فى هذه الفترة أيضا تحقيق أغراض إجتماعية من أجل تربية الإنسان على الفضيلة والحكمة وحسن السلوك إلى جانب الثقافة . وكان ذلك أهم أهداف التربية كما نادى بها جون لوك فى كتابه . ومع أن الأهداف التى نادى بها لوك كانت تعبر عن إتجاهات الطبقة العليا فى إنجلترا، فقد كان لها دور كبير فى تشكيل التربية الحرة فى الكليات الأمريكية . كما وجد التصور الأرسطراطى للتربية تعبيراً له فى أكاديميات الفرسان فى فرنسا وألمانيا ومدرسة فرانك ومدرسة باسيديو الخيرية وأيضاً بصورة أكبر فى المدارس الثانوية فى معظم الدول . وظهرت أيضاً أهداف الطبقة الوسطى فى التربية فى عصر التنوير . فقد بدأت أعداد متزايدة من المربين تؤكد أهمية الدراسات العلمية من أجل إعداد الناشئة لمختلف الحرف والمهن وتدريبهم على المهارات اللازمة للصناعة والزراعة والتعدين والبناء وغيرها من الأعمال .

ويعتبر فولتير (١٩٦٤-١٧٧٩ م) من أبلغ المكافحين عن حرية الفكر والكلام والحركة . وكان يرى أن أى إضطهاد للإنسان على معتقداته يعتبر عملية بربرية وحشية . وهكذا كان فولتير أحد الأصوات الحرة التى دوت فى عصر التنوير . وكان هناك أيضاً ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤م) الذى كان محرراً لدائرة المعارف . وكانت أول موسوعة علمية تعالج الإنسان ومؤسساته ونظمه من وجهة نظر عقلانية . وكل من فولتير وديدرو هاجم التقاليد الدينية البلية .

الحركة الطبيعية فى التربية (القرن الثامن عشر)

كانت الفكرة الرئيسية التى سيطرت على الأذهان فى القرن الثامن عشر تتمثل فى الإتجاه إلى الطبيعة للإهتداء بها فى حل المشكلات الاجتماعية .

وكان " روسو " وآخرون قبله وبعده قد سيطرت عليهم نفس الفكرة بالنسبة للتربية . ففي الطبيعة وحدها يكمن حل المشكلات التربوية . ويجب أن تكون التربية متمشية مع الطبيعة و مع الطبيعة الفطرية للفرد . وقد تكون هذه الطبيعة غير إجتماعية إلا أن نموها الحر له ما يبرره على أساس أن المجتمعات شريرة . وكان لإهتمام روسو بالنمو الطبيعي للطفل منذ بواكير الطفولة تأثير كبير على الجهود الخيرية فى التربية وعلي بستالوتزى وفرويل وآخرون منهم جون ديوى وغيره من رجال التربية الحديثة . وطالب روسو بنظام قومى للتعليم وكان أول من أشار إلى هذا بصوت قوى " لاشالوتيه " (١٧٠٧ - ١٧٨٥ م) فى مقالته عن " التعليم القومى " الذى نشره سنة ١٧٦٣م وهاجم فيه مدارس الجيزويت وإتهمها بالفشل فى إعداد تلاميذهم من أجل الحرية والمواطنة . وطالب بنظام قومى علمانى للتعليم يتعلم فيه أبناء الوطن على يد معلمين متعاطفين مع المثل العليا للدولة وإحتياجاتها .

ولعل أشهر داعية للحركة الخيرية التعليمية وأكبر مؤثر عليها هو : جوخيم هنريخ كامب " (١٧٤٦ - ١٨١٨ م) من برونسويك فى ألمانيا . وقد قام مع آخرين بنشر موسوعة من ١٦ جزءا فيها مراجعة عامة لكل نظام التعليم والمدارس . وتضمنت مقترحات عملية لتطوير وإصلاح المنهج المدرسى وطرائق التدريس . وقد إهتم بهذه المقترحات البارون " فون سيدليتز " وزير التربية للملك فريدريك الأكبر فى بروسيا آنذاك . وقام بتطبيقها فى المدارس . وفى سنة ١٧٧٩م أنشئ فى جامعة " هاله " أول كرسى جامعى للأستاذية فى علم التربية لتدريب المعلمين على طرائق التدريس الجديدة وربما كان هذا أول كرسى جامعى من نوعه فى العالم أجمع .

روسو وآراؤه التربوية (١٧١٢-١٧٧٨ م) :

يعتبر " روسو " رائد الحركة الطبيعية فى التربية . وهو ينتسب إلى أسرة بروتستانتية من أصل فرنسى كانت تسكن جنيف . وقد حرم روسو من تربية والديه . فهو لم ير أمه لأنها ماتت أثناء ولادته وتركه والده وهو فى العاشرة . فعاش فى كنف أقارب أمه . وكانت حياة روسو الأولى مزيجا من الفشل والطيش . ومع ذلك إنتهت به إلى أن يكون رائد الحركة الطبيعية النفسية فى التربية . لقد كانت التربية عبر عنها روسو فى كتاب " إميل " رد فعل عنيف

ضد التربية التي سادت عدة قرون وأهملت طبيعة المتعلم وركزت كل همها على الكتاب وجعلته محور التعليم .

ويعاب على روسو أنه لم يهتم بإحتياجات الجماهير لأن أسلوبه فى التعليم الفردى غير عملى بالنسبة لتعليم جماهير الناس . ولم تكن شخصية إميل إلا شخصية طفل من الطبقة الأرستقراطية . كما أنه بالغ فى أهمية الفردية الشخصية وقلل من أهمية دور الثقافة والتربية فى تنمية الإنسان وحول إهتمام المعلمين بعيدا عن أهمية المجتمع فى تنمية الفرد وتربيته . وهكذا إعتبر أن التربية أساسا عملية سلبية . كما أن برنامجه التربوى كان موجها للطبقة العليا دون غيرها وجاء خالبا من التربية الخلقية والدينية والصحية . وكان عاما أكثر منه تخصيصا فى طابعه . وقد أعطى أهمية كبرى للأششطة الجسمية والتمييز الحسى . ويصرف النظر عما يؤخذ على روسو فى آرائه التربوية التى نادى بها فإنه يعتبر رائد الحركة الطبيعية . وقد عبر عن تحديه بتحمس للمارسات التربوية القديمة . واستطاع أن يجعل الناس ينصتون له بإهتمام . وهكذا يمثل كتاب "إميل" بداية عهد من الإصلاح التعليمى لا من الجوانب النفسية وطرائق التدريس وإنما أيضا من حيث الإتجاه إلى إصلاح المجتمع من خلال التربية والتعليم .

وقد شهر روسو بثلاثة مؤلفات أولها كتابه " العقد الإجتماعى " الذى نادى فيه بالعدالة الإجتماعية . ونادى بالحرية والمساواة وقال بأن العلاقة بين الشعب والحكومة تقوم على أساس عقد اجتماعى بينهما . فالشعب يختار الحكومة لتقوم بدورها على خدمته ورعايته . وهى أساس فكرته فى العقد الإجتماعى . وهى فكرة ثورية فى وقتها . وليس بغريب إذن أن يكون كتاب العقد الإجتماعى " دستور الثورة الفرنسية " و " الثورة الأمريكية " أيضا . وأعجب به العامة والخاصة من الناس على السواء . وكتابه الثانى " الإعرافات " وقد ضمنه الخبرات السيئة التى تعرض لها فى حياته . وإعترف فيه بعبوية ونقائصه الخلقية . وكتابه الثالث " إميل " وهو أشهر كتبه بالنسبة لدارس تاريخ التربية . لأنه ضمنه آراء التربية وعبر فيه عن الطريقة المثلى التى يراها فى تربية الطفل منذ ولادته . وسنعود إلى تفصيل الكلام عنه فيما بعد .

لم يكن لدى روسو أية ثقة فى الحكومة الفاسدة آنذاك . وذهب إلى أن

الإصلاح الإجتماعى كهدف للتربية يجب أن يكون فى صورة فردية وليست إجتماعية . وعلى هذا إقترح روسو النظم الإجتماعية بحيث تعطى الأفراد مطلق الحرية الفردية لإظهار قدراتهم ومواهبهم . ولما كانت طبيعة الإنسان خيرة فى نظر روسو فإن التربية يجب أن تسايرها بتوجيه المواهب الموجودة عند الفرد وزيادة قدرته على الإستمتاع بحاضره . إن التضحية بالحاضر فى سبيل المستقبل ذنب لا يغتفر فى نظر روسو . لذا فإن الطفل يجب أن يعامل كطفل لا كصورة مصغرة لراشد كبير . لقد رأى روسو أن الطفل الفقير لم يكن فى حاجة إلى تعليم لقربه من الطبيعة . التى يتعلم منها الفضائل . أما أبناء الأغنياء فهم يحبون بعيدا عن الطبيعة ومن ثم يجب أن يحموا من أضرار المجتمع الأرسقراطى وما فيه من زيف ونفاق . وذلك بإبعادهم عن هذا المجتمع وأخذهم بعيدا إلى الطبيعة حيث يجدون فيها إنطلاقا لميولهم الطبيعية .

لقد أكد روسو أن المرء لم يوجد من أجل الدولة . بل إن الدولة وجدت من أجل الفرد ومن أجل حرية الإنسان وفو الشخصية . وهذه هى الروح التى كتب بها روسو " إميل " . ويعتبر روسو أهم داعية إلى النزعة الفردية النفسية الطبيعية . وهو بهذا أخذ لنفسه جانبا متطرفا جدا من المصلحين المحافظين الذين نادوا بمراجعة مصلحة المجتمع وهو ما يمثل الجانب الآخر المضاد لروسو . ذلك أن ظهور فكرة الإنسان ككائن طبيعى له مواهبة الخاصة يعتبر بداية لشورة تربية وصلت قمته على يد روسو ومن بعده " المدرسة التقليدية " الحديثة فى التربية . ومنذ " فيتورينو دافلتر " فى القرن الخامس عشر حتى روسو فى القرن الثامن عشر توالى الإنتقادات ضد الممارسات التربوية السائدة سواء فى تركيزها على حفظ الكتب أو إتباعها للنظام الصارم وإهمالالفروق الطبيعية الفردية بين قدرات الطلاب . وجاء كومينيوس وغيره لينادى بضرورة تمشى التربية مع طبيعة الفرد . ونادى بأن تكون الطبيعة هاديا لنا وموجها فى التربية . ولكن روسو نادى بأكثر من هذا إذ رأى أن تكون الطبيعة نفسها هى التربية ومنها يتعلم الإنسان .

وقد تأثر بآراء سابقيه من أمثال مونتاني لاسيما آراءه فى تربية الحواس وإعتقاده بأن العقل السليم فى الجسم السليم . كما تأثر أيضا بآراء " لوك " فيما يتعلق منها بتربية الجسم والعقل وعدم المبالغة فى تدليل الأطفال و وأن

يترك الطفل على سجيته ، وأن الطبيعة هي وحدها التي تستطيع أن تربيته وتعلمه . كما تأثر بأرائه في القول بنظرية العقد الإجتماعى . وآمن مثل كومينيوس بتعليم الطفل من خلال الحواس . وكان روسو من معاصرى " هيكتر " . وقد تضمنت فلسفته التربوية آراء إستوحيت من كل من فرانك وهيكتر . لقد أدخل روسو فى المنهج الفنون اليدوية التى إعتبرها فرانك أمورا بعيدة عن أصل المنهج . وهو لم يجعل الدراسة مهنية بحثة وتجنب تخطيط الدراسة الإنسانية لأطفال الأرسقراطيين . وجعل التدريب اليدوى لأبناء الفقراء . وقد وضع روسو خطته التربوية لجميع الأطفال . وكان الهدف من تعليم " إميل " بطل كتاب روسو الأساسى فى التربية أن يطبق على أطفال الفقراء والأغنياء والنبلاء سواء بسواء . ومحوره فكرتان إحداهما إنسانية والثانية قوامها أن التربية فى مجال العلم والفنون الميكانيكية والزراعية هى أفضل عون يقدم للصبي الفقير . وقد إعتقد روسو مقتربا فى ذلك من هيكتر بأن التعليم فى مجال الفنون الميكانيكية والزراعية قد يساعد الطالب على كسب عيشه إذا لزم الأمر . وإذا لم يكن كذلك فقد أتاحت للطالب فرصة تعلم كل ما تعلمه المدرسة . لقد بنى روسو إعتقاده الأخير على أساس أن المعلومات التى يعتمد عليها هى تلك التى يحصل عليها الناس عن طريق الملاحظة الدقيقة . ولقد أطلق على عقيدة روسو فى تاريخ الفكر إسم " التجريبية أو الإمبريقية " . لقد كان روسو ذاته دقيق الملاحظة . فالمعرفة التى يحصل عليها النجار من مهنته وعمله قد أثرت فى الفيلسوف وإعتبرها معرفة يعتد بها . فقد كان هو نفسه نجارا وقد حاول فى شبابه ممارسه أكثر من مهنة كتلميذ مهنى . لأن رجال المهن أناس مبدجلون فى نظره . بل لقد وصل روسو إلى حد إظهار فوائد التدريب اليدوى مما تكرر مرات ومرات فى السنوات التالية لوفاته . وكانت الحرف الميكانيكية والزراعية عنده أفضل من اللغات والأدب فى تدريب العقل . وفى الإشارة إلى تاريخ التربية اليدويه والصناعيه كتب " تشارلز بنيت " يقول : " إن تفكير روسو فى أن الفنون اليدويه يمكن أن تكون وسيله للتدريب الفكرى قد حدد بداية حقبة جديدة فى التربية " .

كتاب إميل :

يتكون كتاب " إميل " : Emile من خمسة أجزاء خصص روسو الاجزاء الاربعه الاولى منها لتربية " إميل " . أما الجزء الخامس فخصه "

لصوفى " Sophie لتكون زوجة إميل يسعد بها وترعى بيته وأولاده . ويتناول الجزء الأول تربية الطفل من الميلاد إلى الخامسة . وفيها يرى روسو أن ينقل الطفل إلى الريف وسط الطبيعة لكي تقوم بتنمية مواهبه كما يجب ألا يقيد الطفل بعد ولادته باللفافات لأنها تعوق نموه . وفي هذه المرحلة تكون الأم مصدر حب الطفل كما يكون أبوه مربيه الأول . والطفل في هذه الفترة يترك للعب الحر حتى ينمو جسمه وصحته . كما ينبغي أن تتاح له الفرصة لتنمية حواسه عن طريق الاحتكاك بالأشياء المختلفة . ويجب أن يكون حرا في عمل الأشياء التي يحبها بنفسه دون إجبار أو فرض من الخارج .

وفي الجزء الثاني يتناول تربية الطفل من الخامسة حتى الثانية عشرة وفيها يظل الطفل في الريف في أحضان الطبيعة ليتعلم بنفسه فيها . وعليه أن يتحمل نتيجة خطئه في هذه المرحلة . ويجب أن يتعود الطفل على الخشونة . والهدف من التربية في هذه المرحلة هو استمرار تدريب الحواس وتعود الطفل نفسه على العادات الخلقية السليمة . ولا يعلم أى شىء من القراءة والكتابة في هذه المرحلة . وإنما تكون الرياضة والألعاب والفنون اليدوية هي وسائل تنمية حواسه وخبراته .

وفي الجزء الثالث يتناول تربية الطفل من سن ١٢ - ١٥ وهي مرحلة المراهقة المبكرة . وفيها يكون الطفل محبا للاستطلاع وعندها تبدأ مرحلة الدراسة لاشباع تطلعه إلى المعرفة . وفي هذه المرحلة يتعلم شيئا عن بعض العلوم مثل الطبيعة والجغرافيا والرياضة والفلك . ويجب أن يتعلمها بطريقة عملية لا من بطون الكتب وإنما من عالمه المحيط الذي يعتبره أحسن كتاب مفتوح أمامه . ويرى روسو أن يبدأ " إميل " في قراءة كتاب " روينسن كروزو " في هذه المرحلة ليتعلم من شخصيته ومن الفنون التي كان يجيدها . ويجب أن يعتمد الطفل على نفسه في التعليم من خلال ملاحظاته للطبيعة ومن خلال ممارسته للخبرة والعمل . وفي الجزء الرابع يتناول إميل ما بين ١٥ - ٢٠ وفيها يبدأ إميل في التعامل مع المجتمع ومشكلاته ويدرس العلوم المختلفة من إقتصاد وسياسه وتاريخ . كما يدرس اللغات والفلسفة والفنون وتتركز التربية على الجوانب الدينية والأخلاقية التي يراها في سير الأبطال العظام على أن يرى إميل أمثلة حية للبؤس والخطيئة بزيارة السجون والملاجئ .

وفى الجزء الخامس يتناول تعليم صوفى زوجة إمبيل . وهنا يعرض روسو آراءه فى تربية المرأة . وقد أشار إلى الاهتمام بتربية جسمها لتشبه قوة الجسم رشيقة القوام . وعليها أن تتعلم مايلزمها كربة بيت من طهو وتطريز وعناية بالطفل ومعرفة بعض الفنون كالموسيقى . ولم ير ضروره لتعليمها أى علوم عقلية فأول صفة فى المرأة عند روسو الرقة ويجب أن تتعلم كيف تقاسى حتى الظلم وكيف تتحمل أخطاء زوجها بدون شكوى . ومن الناحية الدينية يجب أن تنشأ وتتقبل معتقدات أمها ثم معتقدات زوجها. واعتبر روسو المرأه أقل عقلا من الرجل وأنها غير كفاء أو غير قادرة على التفكير المجرى . ولذا ينبغى أن تعلم الأشياء العملية أما القراءة والكتابة فلا تتعلمها إلا إذا كانت محتاجة إليها .

آراء روسو التربويه :

بالإضافة إلى الإشارات السابقه يمكن أن نلخص آراء روسو فى التربية فيماأتى :

- ١ - الطبيعة الخيرة للإنسان : فقد اعتقد روسو بأن طبيعة الإنسان خيرة وليست شريرة كما كان ينظر إليها. وقال بأن " كل شىء جميل من صنع الخالق ما لم تمسه يد الإنسان " وهى الكلمات التى إفتتح بها كتابه " إمبيل " بيد أنه قال بأن الشر لا يتأتى إلا من الاتصال بالناس .
- ٢ - الطبيعة هى المعلم الرئيسى : يرى روسو أن التعليم يكون عن طريق معلمين ثلاثة : الطبيعة والرجال والأشياء . ولكنه قال بأن الطبيعة هى أحسن معلم وطالب بأن يترك الأطفال إلى الطبيعة ليتعلموا منها وليتقنوا على قدرة الخالق . ويجب ألا يعتمد الطفل على الكتب وحدها فى التعلم .
- ٣ - الهدف من التربية عنده هو التنمية الكاملة للرجولة وليس من أجل المواطنة أو الإعداد المهنى .
- ٤ - مراحل النمو هى التى تحدد ما يجب على التلميذ أن يتعلم . ولذلك قسم تربية إمبيل إلى مراحل زمنية فى الطفولة والطفولة المبكرة والطفولة المتأخرة والمراهقة .
- ٥ - يرى ألا يعلم الطفل شيئاً من سن الميلاد حتى سن الثانية عشرة وأن تكون التربية خلال هذه الفترة بدون أى تدخل لتوجيه الطفل وطلب بعدم تعليم

الطفل القراءة وهو صغير .

٦ - طالب المعلمين بدراسة أطفالهم وميولهم وتفكيرهم واعتقد بأن عدم معرفة المعلمين لأطفالهم له آثار ضارة بتربيتهم وقال بأن الطبيعة تطلب من الأطفال أن يكونوا أطفالا قبل أن يكونوا رجالا .

٧ - لفت روسو أنظار المربين إلى الاهتمام بنشاط الطفل واستغلال حواسه واهتماماته .

٨ - طالب المربين بالابتعاد عن النواهي والأوامر فى توجيه سلوك الطفل لأنها تقتل شعور الطفل وتكبت تفكيره .

التربية الأوروبية فى العصور الحديثة

تميز التطور الأوربى بعدة ملامح رئيسية خلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر بصفة رئيسية وإمتدت إلى القرن العشرين . ومن أهم هذه الملامح :

١- استمرار النزاع بين الدين والفلسفة والعلم :

فقد سبق أن أشرنا إلى جوانب من هذا الصراع الذى إستمر حتى العصور الحديثة . وكان من النزاعات العقلية الفكرية البارزة فى أوربا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر المثالية المطلقة التى أستندت إلى آراء الفلاسفة الألمان من أمثال كانت وفيخته وهيجل . . وكانت هذه النزعة المثالية المطلقة تمثل رد فعل عكسى للعقلانية العلمية لحركة التنوير فى القرن الثامن عشر . وكانت هذه المثالية ترمى إلى بناء نظام فكرى متناسق تتكامل فيه مفاهيم الإنسان والطبيعة فى وحدة كبرى عبر عنها " بالمطلق " . وقد ترتب على الصراع بين غيبيات وميتافيزيقا الفلسفة المثالية من ناحية وبين تأكيدات الفلسفة الواقعية من ناحية أخرى ظهور الإتجاه العلمى الوضعى الذى تبلور على يد " أوجست كونت " رائد الفلسفة الوضعية فى منتصف القرن التاسع عشر . وقد حدد كونت ثلاث مراحل تاريخية للفلسفة : الفلسفة الدينية اللاهوتية حيث كان تفسير الظواهر الطبيعية يعتمد على الغيبيات والمقدسات . والمرحلة الثانية هى المرحلة الميتافيزيقية وفيها حاول الفلاسفة بناء نظم كاملة من وحدات مجردة مثل المادة والشكل لتفسير

الطبيعة . والمرحلة الثالثة هي المرحلة الوضعية وفيها يكون العلم والأسلوب العلمى الوسيلة للوصول إلى تفسيرات تجريبية للطبيعة . وأكدت الفلسفة الوضعية - متأثرة بالعلم ونظرية التطور - على أن الإنسان يمثل قمة التطور فى الحياة الطبيعية . وأكدت على الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى . وكانت دراسة الطبيعة الإنسانية على أساس تطبيق الطرق العلمية أهم تأثير للنظرة الواقعية والوضعية على الطرائق التربوية فى القرن التاسع عشر . وبدأ العلماء يدرسون فسيولوجية الإنسان (وظائف الأعضاء) والجهاز العصبى وعمليات الإحساس والإدراك وقوانين الوراثة .

وفى القرن العشرين إستمر النزاع بين الدين والفلسفة والعلم . وبرزت النزعات الإلحادية مثل الشيوعية والوجودية . وإنعكست هذه النزعات فى داخل المدارس والجامعات فى القرن العشرين . وكانت حلبة الخلاف والمجدل بين الدين والفلسفة إلى جانب السياسة والإقتصاد . وكان للإلحاه العقلانى تأثير هام على التربية الأوربية والغربية . وكان فى مقدمة هذه التأثيرات إدخال الرياضيات فى المنهج المدرسى .

٢- الإنجازات العلمية :

شهدت العصور الحديثة فى أوربا إنجازات علمية هامة من بينها اختراع الآلة، وإكتشاف الكهرباء ، والتوسع فى التطبيقات العلمية فى ميادين الصناعة . وهو ما سنشير اليه فى كلامنا عن الثورة الصناعية . وكان من الإنجازات العلمية الكبرى فى القرن التاسع عشر وكان لها تأثير كبير على العقلية والمجتمع الأوربى " نظرية النشوء " . وقد نمت هذه النظرية وتطورت على يد " لامارك " و " سينسر " و " داروين " . وكان لهذه النظرية تأثير كبير على الشرق والغرب على السواء . وهاجمها بعض زعماء الفكر الإسلامى آنذاك وفى مقدمتهم جمال الدين الأفغانى فى رسالته المعروفة " الرد على الدهرين " . إلا أن تأثيرها فى الغرب كان أقوى لأنها تحددت سلطة الدين وسيادته فى أوربا . كما تحدت الأفكار الدينية عن الإنسان . وقد ساعدت هذه الإنجازات العلمية الهامة على تدعيم الإلحاه التحررى الكبير فى التربية الأوربية .

٢- الثورة الصناعية :

كان من أبرز التطورات التي حدثت فى المجتمع الأوروبى خلال القرن الثامن عشر تلك التطورات التي إرتبطت بالثورة الصناعية . وتؤرخ الثورة الصناعية بداية مرحلة جديدة هامة فى التطور البشرى كان مركزها بريطانيا حيث نشأ وتطور استخدام الآلة البخارية لتحل محل الجهد العضلى للإنسان . لقد هجر العلماء البريطانيون بين عامى ١٧٣٣م ، ١٧٧٩م صناعة النسيج اليدوى فى بلادهم وبدأوا الإنتاج من المرحلة الحرفية إلى حد الميكنة الكاملة والتصنيع . ولقد ظهر (المكوك الطائر) عام ١٧٧٣م على يد "جون كاسى" وهو من أشهر المخترعين الذين أسهموا فى تكنولوجيا النسيج قبل عام ١٨٠٠م. ومن الإختراعات التي ساعدت على إحداث الثورة الصناعية إلى جانب " مكوك كاسى " صناديق المكوك المتعددة عام ١٧٦٠م وماكينه " الجاكارد " و " الهوجريف " للغزل عام ١٧٦٤م وأخيرا " نول إدموند كارترائت " الذى يدار بالطاقة عام ١٧٨٥م وغيرها . وقد أمكن للآلة أن تقضى على الحرف اليدوية وبدأ التخصص فى العمل وتزايد الإنتاج وتجمع العمال فى المدن وبدأ التصنيع الحديث . كما تزايدت فرص العمل أمام المرأة . وأدى ذلك كله لتزايد الطلب على التعليم . وكان هنا نتيجة أخرى ترتبت على الثورة الصناعية إرتبطت بحياة البؤس التي كان يعيشها العمال والمصانع . وكانت مصدرا خصبا لكتابات كارل ماركس (١٨١٨م-١٨٨٣م) فى إنتقاده للنظام الرأسمالى . ولقد أعطى المؤرخون الإقتصاديون صورة بانسة للظروف التي عاشها العمال فى المدن حيث كانوا يعملون فى اليوم ١٦ ساعة . ومع هذا كانوا لا يستطيعون إعالة أنفسهم . إن حياة البؤس محزنة لأى إنسان . وكان من الطبيعى أن يهتز لذلك أصحاب الضمائر الإنسانية الذين آمنوا بقيمة الإنسان . كما انعكس ذلك أيضا فى اللوحات الفنية التي رسمها " هوجارث " . والروايات التي كتبها " ديكنز " .

وقد ترتب على ذلك الإحساس بضرورة التربية من أجل تحرير الإنسان ومن أجل التقدم البشرى . وقد أعطى هذا الإحساس دفعة قوية من أجل تعزيز الإتجاه الليبرالى فى التربية . وهو أحد الإتجاهات والقوى التي شكلت التربية فى العصور الحديثة فى المجتمعات الغربية .

وقد تمثلت أول إستجابة تربوية للثورة الصناعية فى بريطانيا فى إنشاء

مدارس الأحد . وكانت لتعليم الأطفال الذين يعملون طيلة الأسبوع . وقد دعا إلى إنشاء هذه المدارس " روبرت ريكس " Raikes سنة ١٧٨٠ م وكان صحفياً أراد أن يوقظ الرأي العام وينبه إلى تعليم الأطفال الذين يعملون فى المصانع من طلوع الشمس إلى غروبها . أما الإستجابة التربوية الثانية للثورة الصناعية فكانت فى إنشاء مدارس الأطفال Infant Schools . وهى لتعليم ورعاية أطفال الأمهات العاملات فى المصانع . وقد أنشأ هذه المدارس " روبرت أوين " وهو إسكتلندى من أصحاب المصانع الخيرين ذوى النزعة الإشتراكية . وقد أنشأ هذه المدارس لأطفال العمال الذين عملوا فى مصانعه . وكانت مواد التعليم فيها الدين والمهارات الثلاث وهى القراءة والكتابة والحساب . وكان هناك إهتمام كثير باللعب والغناء والرقص والعناية بالأطفال الصغار . وقد طبقت فى هذه المدارس مبادئ بستالوتزى التربوية . وتركزت الدراسة فيها على إستخدام النماذج الطبيعية كمصادر للتعليم بدلا من الإعتماد على الكتب .

وهناك نقطة ثالثة تتعلق بالثورة الصناعية هى أنه على الرغم من أن هذه الثورة قد أظهرت الحاجة إلى التعليم الفنى الصناعى والمهنى فإن ظهور هذه المدارس قد تأخر إلى القرن العشرين عندما أنشئت هذه المدارس فى إنجلترا سنة ١٩٠٥ م . وإستمرت الإتحادات الصناعية والمهنية تقوم بهذا الدور الذى أخذته على عاتقها منذ القرون الوسطى . وعلى الرغم من هذا فقد كانت أسهم التعليم المهنى فى أوروبا أكثر إرتفاعا منها فى الولايات المتحدة الأمريكية خلال القرن التاسع عشر . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن التعليم المهنى فى الولايات المتحدة نظر إليه أنه تعليم الطبقات الفقيرة . ولهذا نبذت الفكرة لتعارضها مع الديمقراطية والمساواة فى المجتمع الأمريكى وتفادى أى تفرقة إجتماعية طبقية .

٤- نمو الحركة القومية :

كان من أبرز التطورات التى شهدتها المجتمع الأوروبى فى القرن التاسع عشر نمو الحركة القومية التى قامت على أساس مستمد من فلسفة هيجل الفيلسوف المثالى الألمانى الذى ذهب إلى القول بأن الدولة المثالية هى التى تتكون من قومية واحدة . وشهد القرن التاسع عشر كثيراً من الحروب بين الدول الأوربية من أجل تحقيق الوحدة القومية . ولهذا إستحق أن يلقب بقرن قوميات . وقد إمتد تأثير الحركة القومية فى أوروبا إلى الشرق والغرب حتى الدنيا الجديدة . وتحت هذه

النزعة القومية ترعرعت عقيدة حب الوطن وأصبح لها قوة دافقة حتى الإستشهاد فى سبيله . وفى ظل المناخ الثورى فى فرنسا بعد الثورة الفرنسية نشأت عادة إتخاذ الأعلام القومية كشعار للوحدة القومية للدولة . وكذلك عادة عزف النشيد الوطنى والعطلات الوطنية فى المناسبات . وقد ساعد نمو الحركة القومية على نمو المفاهيم الديمقراطية والعدالة الإجتماعية . وكان الإتجاه القومى أحد القوى الهامة التى شكلت التربية فى المجتمعات الأوربية خلال العصر الحديثة .

التطور التربوى الأوربى فى العصور الحديثة :

تميز التطور التربوى الأوربى فى العصور الحديثة بثلاث إتجاهات رئيسية تحكمت فى توجيه التربية وأثرت على محتوى التعليم وطرائقه خلال القرنين التاسع عشر والعشرين . هذه الإتجاهات الثلاثة هى : الإتجاه المحافظ والإتجاه الليبرالى الإنسانى والإتجاه القومى . وعلى الرغم من صعوبة الفصل والتمييز بين هذه الإتجاهات فى بعض الأحيان لتداخلها ببعض ، فإن هذا التقسيم مفيد من منظور المعالجة العلمية .

الإتجاه المحافظ :

ظل للإتجاه المحافظ نفوذه المتميز على التطور التربوى على مختلف العصور . وقد إمتد هذا النفوذ إلى العصور الحديثة . وعمل الإتجاه المحافظ بصفة عامة على الإهتمام بمنهج دراسى ضيق محدود يعنى أساسا بالمواد التقليدية ولا يسمح بإدخال المواد الجديدة . كما أنه يعنى بتمجيد القيم الدينية وتأكيد أهميتها فى التعليم الإبتدائى . كما تركز إهتمام النزعة المحافظة على تعليم الصفوة المختارة والإهتمام بالمثل العليا الأرستقراطية والإنسانية للطبقات العليا فى التعليم الثانوى والجامعى .

الإتجاه الليبرالى الإنسانى :

كان للإتجاه الليبرالى أثره فى التطوير التربوى فى العصور الحديثة وقد عبر هذا الإتجاه عن إهتمامه بالمنهج الدراسى الواسع العريض الشامل على كل المستويات والعناية بالدراسات الحديثة العلمية والتقنية والفنية . كما إهتم بالتركيز على القيم الإنسانية والإجتماعية والتقليل من شأن التحيز الطبقي

وتنمية قدرات الفرد العادى وقدرات ابن الذوات على السواء . وقد عمل الإنجاء الليبرالى الإنسانى على إنشاء النظم القومية للتعليم . عملت الثورة الفرنسية على مساندة النزعة التحررية فى فرنسا وألمانيا لإنشاء نظام قومى للتعليم لمصلحة الشعب . كما ساندت النزعة التحررية فى إنجلترا إنشاء المنظمات الخيرية لمساعدة الفقراء . وقد أنشئ فى إنجلترا ثلاثة أنواع من المدارس الخيرية . مدارس الأحد Sunday Schools لتعليم الأطفال الذين يعملون طيلة الأسبوع . وقد دعا إلى إنشاء هذه المدارس على يد ريكس RaiKes ومدرس الطفل Infant Schools لرعاية أطفال الأمهات العاملات فى المصانع . وقد سبقت الإشارة إلى هذين النوعين من المدارس عند الكلام عن الثورة الصناعية ، ومدارس العرفاء Monitorial Schools ، وهى مدارس لنشر التعليم الأولى بين الأطفال على نطاق جماهيرى واسع . وسميت بمدارس العرفاء نسبة إلى طريقة (العرفاء) التى تنسب فى الغرب إلى كل من جوزيف لانكستر و أندروبيل وهما من رجال الدين المسيحى . وقد قامت هذه الطريقة على الإستعانة بالتلاميذ الأكبر فى مساعدة المعلمين فى تعليم التلاميذ الأصغر . وهو نظام عرف فى التربية الإسلامية فى الشرق الإسلامى قبل ذلك بما يزيد عن ثمانية قرون . وربما أن لانكستر وبيبل قد أخذوا هذه الطريقة عن التربية الإسلامية . وكان المعلم يقوم بتعليم العرفاء الدرس . ثم يقوم كل منهم بتعليم الدرس لمجموعة من الأطفال تتراوح بين ١٠ و ١٢ طفلا عن طريق تكرار ما تعلمه . وكان الأطفال يرددون معا ما يتعلمون بصوت عال . وكانت خرائط الحائط والرسوم تستخدم فى التعليم إقتصادا للمال وتوفيرا للكتب . وكانت مواد الدراسة تشمل الدين والقراءة والكتابة والتهجى ومبادئ الرياضيات . وكان العقاب مقصوداً على بعض الأساليب التى لا تلحق الضرر بالتلميذ . وكان هناك نظام للجوائز لحفز إهتمامات التلاميذ . وقد إعتمدت بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية على هذه الطريقة فى نشر التعليم الأولى بها بين جماهير الأطفال فى القرن التاسع عشر .

الإتجاه القومى :

أصبحت القومية أهم القوى المؤثرة فى التربية فى القرن التاسع عشر فى أوروبا . وإمتد تأثيرها إلى أمريكا . وبدأت الدولة تهتم بإنشاء الأنظمة التعليمية لتحقيق الأهداف القومية . وقد عبر الإنجاء القومى عن دوره فى

التطوير التربوي الحديث فى إهتمامه بمنهج دراسى يجد الوطن وقادته وأبطاله وإنصارته التاريخية كما يعلى من شأن الدور الحضارى للوطن بين الأوطان الأخرى . ويهتم الإتجاه القومى أيضا بالإعتزاز باللغات القومية وعلى كل مواطن أن يتحدث بها . وأصبحت المدارس مراكز لتعليم الوطنية وحب الوطن . كما أصبحت المواد المختلفة من آداب ولغات وتاريخ وجغرافيا تدرس لأهداف قومية .

وكان من النتائج المترتبة على الحركة القومية تحول الإشراف على التعليم من الكنيسة إلى الملوك وزيادة الصفة العلمانية للتعليم . وتعتبر فرنسا وأمريكا أول من قام بذلك فى مدارسها فى القرن التاسع عشر بهدف الوحدة القومية . ومع أن بعض الدول الأوربية مثل إنجلترا وألمانيا حافظت على التعليم الدينى فى مدارسها العامة إلا أن فكرة التعليم الأولى المجانى الإلزامى من أجل الأغراض القومية كان أمرا مشتركا بين كل دول أوربا . بل وفى بعض دول الشرق واليابان . وكان للنزعة القومية صدى فى الشرق العربى إذ ترتب عليها البدء فى تعريب الكنائس العربية بعد أن كانت تستخدم اليونانية فى طقوسها وصلواتها . وكانت كنيسة أنطاكية فى مقدمة الكنائس التى تعربت كما كان لها تأثيرها على الكنائس أيضا .

وقد ساعد الإتجاه القومى أيضا كما ساعد الإتجاه التحررى الليبرالى على إنشاء نظم التعليم القومى فى الدول الأوربية . وفى ظل هذا الإتجاه أصبح التعليم هدفا للمصلحين الثوريين لاسيما فيما يتعلق بجعل التعليم الأولى تعليما دنيا مجانيا إجباريا عاما .

وكانت النزعة القومية عاملا هاما فى التطويرات التربوية التى حدثت فى فرنسا خلال القرن التاسع عشر بالرغم من تأثير الإتجاهات المحافظة والأرستقراطية والدينية . وقد آمنت فرنسا بأن المركزية الشديدة لنظام التعليم العام هو الطريق إلى الوحدة القومية بصرف النظر عما إذا كانت القوة الحاكمة ملكية أو إستبدادية أو جمهورية . وعلى الرغم من الإتجاهات الديمقراطية فى الجمهورية الثالثة كانت النزعة الأرستقراطية من القوة بحيث إستطاعت أن تحافظ على إستمرارية الثنائية فى نظام التعليم وأن تبقى على نظامها الخاص بالطبقات العليا بجانب النظام التعليمى الخاص بالطبقات الدنيا . ونحت الجمهورية الثالثة (١٨٧٨م) حافظت فرنسا على نظامها التعليمى المركزى كما حافظت على

موقفه من عدم تدريس الدين فى المدارس العامة . وفى سنة ١٩٠١م صدر قانون يضع رجال الدين الذين يقومون بالتدريس تحت إشراف الدولة . وفى سنة ١٩٠٥م صدر قانون آخر نص على علمنة كل معلمى التعليم الإبتدائى خلال عشر سنوات . ومع هذا لم تتوقف محاولة رجال الدين من إرجاع نفوذهم . ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك . ومع أن المدارس الدينية الخاصة ظلت تمارس نشاطها إلا أنها كانت خاضعة لوزارة التربية .

وكانت هناك عوامل مشتركة وأوجه تشابه كثيرة بين نظام التعليم فى كل من فرنسا وألمانيا فى القرن التاسع عشر . وكان كل منهما يقلد الآخر فى جانب أو أكثر من جوانب التربية والتعليم على مختلف الفترات . وكلا البلدين اهتم بإعطاء مدارس الطابع القومى وإخضاعها للدولة . وأهم فرق رئيسى بينهما حتى نهاية القرن التاسع عشر إشتداد النزعات التحررية فى فرنسا بينما كانت الغلبة للإتجاهات المحافظة فى ألمانيا . وكلا البلدين أنشأ نظاما حكوميا للتعليم أرسنقراطى ونظرى وعملى فى محتواه .

وكان تأثير الإتجاه القومى على تطور التربية واضحا فى بروسيا . وكان التعليم الأولى فيها بصفة خاصة فى أكثر النظم تقدما فى العالم . وجذب إهتمام المرين الفرنسىين والأمريكىين فى عشرينات وثلاثينات القرن التاسع عشر . وكانت الممارسات التربوية البروسية نموذجاً يحتذى للنظم التعليمية الأخرى . وإمتد تأثيرها فى الشرق والغرب على السواء .

بعض الإتجاهات العامة للتربية الغربية فى العصور الحديثة .

سنحاول فى السطور التالية أن نتعرض لبعض الإتجاهات العامة لتطور التربية فى العصور الحديثة من خلال تناول بعض القضايا الرئيسية الهامة ومنها التعليم العام الشامل الإلزامى والإهتمام بالإعداد المهنى للمعلمين والدراسة العلمية للتربية . وأخيرا نحو تعاون دولى فى التربية أو التربية من أجل التفاهم العالمى .

١- نحو تعليم عام إلزامى شامل :

كان من أهم الملامح الواضحة للتعليم فى أوربا خلال القرن التاسع عشر إقرار مبدأ إلتزام الدولة بعد أدنى من التعليم العام توفره لتعليم أبنائه من أجل التقدم

الإجتماعى . وقد تأكد هذا المبدأ بصدر الميثاق العالمى لحقوق الإنسان سنة ١٩٤٨م . وشهدت أوروبا فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر لاسيما فى فرنسا وبروسيا أول تحرك حكومى للإهتمام بالتعليم الابتدائى . فقد عرف نابليون قيمة نظام المدارس القومية لتخريج مواطنين موالين للنظام . ووضعت قوانينه الصادرة فى عام ١٨٠٨ م التعليم فى قبضة الحكومة المركزية كنموذج لأوروبا كلها . وإستمر الحال على ذلك حتى عام ١٨٣٣م عندما أخذت فرنسا فعلا فى إنشاء مدارس إبتدائية عامة . وقد حقق قانون " جيزوت " عام ١٨٣٣م القليل . ولم يتحقق لفرنسا وجود نظام قومى للتعليم الإبتدائى إلا بعد عام ١٨٨١م .

وفى بريطانيا تحركت الحكومة عام ١٨٣٣م للمساعدة فى بناء المدارس الإبتدائية تحت ضغط المصلحين الإجتماعيين الذبن بلغت قوتهم القمة فى تلك الفترة . ووفق على تخصيص عشرين ألف جنيه لإنشاء مدارس داخلية لأطفال الفقراء . ولم يكن هناك نظام قومى للتعليم الإبتدائى حتى صدور قانون التعليم الإبتدائى عام ١٨٧٠م . وكان الحماس الجماهيرى لهذا التعليم متواضعا وإن كان أكثر من الحماس للمدارس الثانوية التى بدأت تظهر لأول مرة بموجب قانون التعليم الفنى عام ١٨٨٩م . كما مكن قانون الضرائب المحلية الذى صدر عام ١٨٩٠م من فرض ضرائب من أجل التعليم الثانوى ولكنها ضرائب متواضعة جدا . وقد صار التطور فى التعليم العام الإبتدائى والثانوى فى إنجلترا فى إتجاه مشابه لأوروبا . إلا أن الإنجليز طوروا طريقة فريدة لإنشاء مدارس منفصلة للطبقات العليا والدنيا . وهى طريقة كان لها تأثيرها على الولايات المتحدة وكندا . وأصبح لدى البريطانيين مدارس إبتدائية وثانوية منذ الحرب العالمية الأولى إلى جانب المدارس الخاصة التى أدت مصروفاتها الدراسية العالية إلى حرمان أطفال الطبقات الدنيا من الإلتحاق بها بإستثناء حفنة قليلة ممن درسوا فيها على منح دراسية . ولم تظهر فى بقية أوروبا مدارس خاصة كثيرة عندما بدأت الحكومات القومية بالإهتمام الحقيقى بالتعليم . وقال المتشككون إن ذلك يرجع لرغبة الحكومات فى منع المدارس الخاصة من تدريس أى شئ غير موال لها . وسواء كان ذلك هو السبب الحقيقى أم لا فإن المدارس الخاصة لم تنتعش فى أوروبا . كما أنه لم يظل بأوروبا أن نبذت فكرة وجود مدارس للطبقة العليا وأخرى

للطبقة الدنيا . وكان ذلك أساس ظهور فكرة المدرسة الشاملة فيما بعد . وهي مدرسة ينتظم فيها كل الطلاب معا دون تمييز .

وفى أمريكا طالبت النقابات العمالية وجماعات العمال الصناعيين الأخرى فى الولايات المتحدة بتعليم عام لأطفال العمال فى المدن فى منتصف القرن التاسع عشر . أما الفلاحون فعندما وجدت لهم تنظيمات لم يكونوا أقل إهتماما بتعليم أطفالهم وإن لم يكن لأصواتهم أثر . وكان من أول مطالب النقابات قيام تعليم شامل متساو . ولكن كانت هناك قوى معارضة للتوسع فى التعليم العام المجانى على أساس أنه تعليم يمول من الأموال العامة فكيف يستخدم أموال شخص يدفعها كضرائب للدولة فى تعليم أطفال آخرين . كما كانت هناك معارضة من جانب رجال الدين البروتستانت والكاثوليك على أساس أن المدرسة العامة غير طائفية ولا يدرس بها الدين . ومن ثم فإنها تهدد أخلاق النشء . وقد كانت آراء " هوارس مان " (١٧٩٦-١٨٥٩م) وهو رائد المدرسة العامة الأمريكية وأول مراقب لشئون التعليم فى ولاية ماساتشوستس هدفا للإنتقادات المرة من جانب القوى الدينية . وكان قد نادى بالمدرسة العامة العلمانية . ولكن على الرغم من هذا تغلب الإتجاه الأول وفرض نفسه فى القرن التاسع عشر . وبدأت الولايات المتحدة فى إصدار تشريعات تنظم قوانين الإلزام والحضور بالمدارس العامة . وكانت ماساتشوستس أول ولاية أصدرت قانون الإلزام عام ١٨٥٢م ثم تبعتها إئتتان وثلاثون ولاية عام ١٩٠٠م . . وقد أصدرت جميع الولايات حتى عام ١٩٢٠ م قوانين حضور الدراسة الإلزامية وصاحب تشريعات التعلم الإلزامى تحريم تشغيل الأطفال .

وعلى الرغم من هذه التطورات الهامة ظل التعليم الثانوى تعليما للصفوة فى كل الدول الأوربية لمدة طويلة لاسيما التعليم الثانوى الأكاديمى الذى يؤدى إلى الإلتحاق بالجامعة . كما ظل التمايز بين هذا النوع من التعليم وبين غيره من أنواع التعليم الأخرى لاسيما التعليم الفنى والمهنى . وما زال التمايز موجودا حتى الآن فى المجتمعات الأوربية وإن كان الإتجاه واضحا نحو تساوى الفرص التعليمية وتساوى كل أنواع التعليم فى المكانة . ولم يتمكن من الإلتحاق بالمدارس الثانوية التى تؤهل للجامعات سوى نسبة قليلة نسبيا من أبناء الطبقة الدنيا .

لقد إتخذت إنجلترا مركز الصدارة فى التحولات التربوية الأوربية التى حدثت بعد الحرب العالمية الثانية . وأصدر البريطانيون قانون بتلر عام " ١٩٤٤م " وكان قانونا ثوريا فى كل بنوده . وتصدرت القانون إفتتاحية عن المبدأ الذى لا يدعو لإعطاء الفرصة التعليمية للجميع وفقا لقدراتهم وإهتماماتهم . ولم تعد هناك عقبة أمام الطالب النابغ فى دخول التعليم الجامعى بسبب عجزه عن دفع رسوم مدرسة النحو " الأكاديمية " الخاصة . فقد دعا القانون إلى تمكين جميع القادرين أكاديميا من الإلتحاق بمدارس النحو العامة الأكاديمية أو المدارس الثانوية الفنية . بل لقد خلق قانون " بتلر " نوعا جديدا من المدارس عرف باسم المدارس الثانوية الحديثة لكل من لم يحصلوا على درجات عالية فى امتحان نهاية المدرسة الإبتدائية الذى كان يعرف بإمتحان ما بعد سن الحادية عشرة ممن لا تسمح قدراتهم بإلحاقهم بالمدرسة الفنية أو مدرسة النحو .

٢ - العناية بالإعداد المهني للمعلمين :

ظل التصريح بالعمل فى مهنة التدريس لعدة قرون فى أوربا تحت إشراف البطارقة التابعين للكنيسة الرومانية الكاثوليكية فى بداية الأمر ثم تولى ذلك موظفو البلاط والمدن ، ثم وزارات التربية القومية . ولقد كان التصريح بالعمل المهني فى الولايات المتحدة سواء للأطباء أو المدرسين ناشئا عن التلمذة المهنية الطويلة . وبدأت السلطات المحلية منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر فى إختيار المتقدمين لمهنة التدريس وإعطاء شهادات الصلاحية لهم . ولقد تطلب تطبيق قانون ماساشوستس عام ١٨٢٦م أن يقوم أعضاء لجنة التعليم فى كل مدينة بإختيار شخصى للمؤهلات التعليمية لكل مدرس وقدرته على ضبط المدرسة . ومع هذا لم تكن متطلبات الدخول إلى مهنة التعليم صعبة المنال لا سيما لمعلم التعليم الإبتدائى فلم تكن هناك مستويات تعليمية محددة . ولم يكن يشترط الإعداد المهني لمعلم التعليم الثانوى .

لقد برز الإهتمام بالتربية الحديثة للمعلمين فى القرن التاسع عشر رغم وجود محاولات سابقة فى القرن الثامن عشر . وساعد على هذا الإهتمام حركة الدراسة العلمية للتربية وما ترتب عليها من الوصول إلى نتائج علمية يجب أن يلم بها

المعلم . واستقر في أوروبا وأمريكا ضرورة إعداد المعلمين مهنيا بالإضافة إلى الدراسة الأكاديمية . وكانت مدارس النورمال أول ما عرفته أوروبا من معاهد لإعداد المعلمين . وقد ظهرت هذه المدارس أول ما ظهرت في بروسيا في أوائل القرن التاسع عشر لإعداد معلمى المدرسة الابتدائية على طريقة بستالوتزى . ومنها إنتقلت إلى فرنسا بعد أن زار فيكتور كوزان الفرنسى بروسيا سنة ١٨٣١م، وأعجب بمدارس النورمال هناك . وتأسست مدارس النورمال الإبتدائية فى فرنسا بموجب قانون " جيزو " سنة ١٨٣٣م . كما إنتقلت من بروسيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن زار هوارس مان هذه المدارس . ونقل فكرتها إلى بلاده . وأنشئت أول مدرسة نورمال عامة أمريكية سنة ١٨٣٩م فى ولاية ماساشوتس التى كان هوارس مان مراقب التعليم بها . وقد ساعد على إنتقال هذه المدارس إلى أمريكا قصور المدرسة العامة وإتهامها بالفشل فى القرن التاسع عشر . وقد نجح " هوارس مان " نجاحا عظيما فى كسب إهتمام الجمهور الأمريكى فى تقاريره التى ظهرت سنويا بين عامى ١٨٣٧م و١٨٤٨م . وقد عالج التقرير السابع عام ١٨٤٣م موضوع المدارس الإبتدائية البروسية التى تدرّب أكثر مدرسيها على النظرية البستالوتزية وأساليبها . وأصبح إعداد معلمى مدارس الإبتدائية متميزا عن إعداد معلمى المدرسة الثانوية . وكانت الخطوة الأولى فى إعداد معلمى المدرسة الثانوية فى أوروبا هى الدراسة فى كلية الآداب أو الفنون الحرة . وخصصت مدرسة النورمال فى أمريكا وأوروبا لإعداد معلمى المدرسة الإبتدائية . وظل هذا التمايز بين إعداد معلم التعليم الإبتدائى والثانوى قائما لمدة طويلة . ويشبه وضع مدارس النورمال آنذاك معاهد إعداد معلمى المرحلة الإبتدائية فى البلاد العربية حاليا . إذ كان يلتحق بهذه المدارس من لم يكملوا دراستهم الثانوية ويدرسون بها سنتين . وكانت النتيجة النهائية الشعور بضعف إعداد المعلمين بمدارس النورمال . واعتبرت مدرسة النورمال سواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة غير أكاديمية . وتناول عليها أساتذة الكليات والجامعات الأوروبية والأمريكية وحقروا من شأنها . وأصبحت الفجوة بين إعداد معلمى المدارس الإبتدائية والثانوية جزءا من الانفصال القائم بين الكليات الجامعية والمعاهد التى تعمل فى مجال الإعداد المهنى للمعلمين .

ولم يحدث تطور كبير لمدارس النورمال فى أوربا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وبعدها إتخذت إجراءات لتحسين إعداد مدرسى المدارس الإبتدائية وبهذا تحققت لهم مكانتهم . وتحول الكثير من مدارس النورمال إلى كليات للمعلمين . وصاحب مدارس النورمال وفكرة إعداد المعلمين مهنيا ظهور الإتحادات القومية للمعلمين . ولم تقتصر فائدة منظمات المعلمين على حمايتهم فحسب وإنما شملت أيضا المحافظة على مستويات الأداء فى الدراسات التى تزهل للحصول على الدرجات العلمية .

٣- تطور الدراسة العلمية للتربية :

شهدت أخريات القرن التاسع عشر إهتماما بالدراسة العلمية للتربية . وبدأت تظهر البحوث والدراسات التربوية التى اتبعت الأسلوب العلمى منهجا وطريقة . وكان بعض هذه البحوث تجريبيا وبهدف إلى تحديد النتائج المستفادة من الأساليب الجديدة فى التدريس . وإهتم كثير من هذه البحوث بدراسة العلاقات والمتغيرات فى العملية التربوية كالعلاقة بين العمر والقدرة على التعلم . وكان التقدم الذى حدث فى المقاييس والأساليب الإحصائية من العوامل الهامة فى تطوير الدراسة العلمية للتربية لاسيما فكرة معامل الارتباط التى تطورت على يد العالم الرياضى بيرسون .

وقد بدأت الدراسة العلمية للتربية فى ألمانيا فى بداية القرن التاسع عشر على يد " هريارت " الذى يعتبره التربويون الأوروبيون والأمريكيون أول مفكر علمى رائد فى التربية بإعتباره أول من اتجه بعلم النفس إلى التجارب العلمية بدلا من إعماده على التأمل الفلسفى . كما بدأ ويلهلم ماكس فوننت Vundt (١٨٣٢-١٩٢٦م) الألمانى الدراسة العلمية للإحساس والإدراك . ومن تلاميذه الأمريكيين ستانلى هول (١٨٤٦-١٩٢٤م) تلميذ وليم جيمس . وقد جمع "هول" فى دراسته لسيكولوجية الطفل بين إهتمامه المزدوج بنظرية التطور وبالتربية والتعليم . فقد كان هو نفسه مدرسا خاصا قبل أن يكون عالم نفس . وهو يعتبر من أوائل من بدأ فى الغرب دراسة الطفل والدراسة النفسية للمراهقة والشيوخة وسيكولوجية الوراثة . كما ترجع شهرته أيضا إلى تطويره لنظرية العصر الثقافى Cultural Epoch أو ما يسمى " بالنظرية التلخيصية " التى تقول بأن كل فرد يتميز فى نموه بمراحل تماثل مراحل التطور الثقافى التى مر بها

جنسه في تطوره ونموه . فالطفل يكرر في اللعب الإهتمامات والأعمال بنفس التسلسل الذي حدثت به قبل العصر التاريخي والإنسان البدائي .

وقد واجهت " النظرية التلخيصية " رفضا شديدا لأن كثيرا من العلماء يرفضون فكرة توريث الصفات المكتسبة . وعلى الرغم من ذلك فقد كان لهذه النظرية تأثير كبير في تعميق الإهتمام بسلوك الأطفال في مختلف الأعمار .

والواقع أن بداية الإهتمام بدراسة سيكولوجية الطفل ترجع إلى عالم الفسيولوجيا الألماني بريار Preyer . وكانت أول ملاحظاته عن نمو الطفل وأفعاله المنعكسة منذ وقت ولادته إلى أن يصبح سلوكه أكثر تعقيدا . وقد ظهر كتابه " عقلية الطفل " Mind of the child سنة ١٨٨٣م . وظل مرجعا لسنوات عديدة . ومن ساعدوا أيضا في تطور الدراسة العملية للتربية جيمس كاتيل الأمريكي (١٨٦٠-١٩٤٤م) الذي كان أستاذا لعلم النفس بكولومبيا والذي يعتبر أبا الحركة الأمريكية في القياس التربوي ، وتشارلز جَدَّ (١٨٧٣-١٩٤٦م) Judd الأمريكي الذي يعتبر ثالث المعلمين في مجال الدراسة العلمية للتربية . وهناك أيضا إدوارد ثورنديك (١٨٧٤-١٩١٩م) الأمريكي تلميذ كاتل الذي أصبح علما من أعلام علم النفس العام والتربوي . وهو يعتبر أحد زعماء الحركة العلمية في التربية . وأول من طبق طرق البحث الكمية على المشكلات التربوية

وقد إشتهر في فرنسا ألفريد بينيه (١٨٥٧-١٩١١م) بالبحوث العلمية المشهورة في التربية . لقد عمل لمدة عشر سنوات مع مساعده سيمون لوضع مقياس الذكاء . وكانت النتائج التي نشرت عام ١٩٠٥ ونقحت مرتين قبل وفاة بينيه أول نماذج لإختبارات الذكاء التي أصبحت شائعة جيلا بعد جيل . ولم يكن إختبار " سيمون - بينيه " مألوفا لدى أغلب الأمريكيين حتى عام ١٩١٧م عندما نشر لويس ترمان إختبار ستانفورد وهو تعديل لإختبار سيمون بينيه .

وكانت حركة القياس العقلي التي بدأها بينيه وسيمون في فرنسا من أهم التطورات في الدراسة العلمية للتربية . وكانا مهتمين بالتشخيص السريع . وكان بينيه يفترض أن العقل يتكون من وظائف مستقلة مثل التذكر والربط والفهم . وكل منها يمكن قياسه بصورة مستقلة . وإفترض أيضا أن نمو هذه الوظائف يسير بمعدل واحد ومن ثم فإن قياس إحداها في وقت ما يعطى فكرة عن

وضع الوظائف الأخرى . وبنى على ذلك إختبارات تقيس هذه الوظائف . وخرج لنا بفكرة العمر العقلي والعمر الزمني . وهي فكرة ما زالت تحظى باهتمام المشتغلين بالتربية حتى الآن .

وكان من أهم النظريات السائدة فى القرن التاسع عشر نظرية الملكات العقلية التى جاءت نتيجة للفلسفة المثالية والعقلانية . ويرتبط بالملكات العقلية نظرية التدريب الشكلى التى تقوم على أساس أن العقل يتكون من ملكات يمكن تدريبها بالأنشطة العقلية . ولكن ظهر فى منتصف القرن التاسع عشر التفسير الإرتباطى للتعليم نتيجة للتصور العلمى لطبيعة المعرفة . ومن أوائل رواد النظرية الإرتباطية ستيوارت مل وهربارت . ويواصل التطور دوره فنجد فى أوائل القرن العشرين ظهور إتجاهين بارزين هما النظرية السلوكية والمجالية أو الجشطالت . وحاولت الأولى تطبيق الأساليب العلمية الدقيقة على السلوك الإنسانى والفرضية وراء هذا السلوك . أما الجشطالت * فقد ركزت على الإستبصار والطبيعية الكلية لعملية الإدراك وعلى الطبيعة العضوية لعملية التعلم . فالفرد يستجيب للمواقف ككل . وهكذا أصبح الإستبصار والفرضية عناصر هامة فى التعليم .

كما أن علم النفس التحليلى كان له تأثير كبير على تطور الطبيعة الإنسانية لاسيما أعمال فرويد وأدلر ويونج . وكان إهتمامهم منصبا أساسا على أسباب الإنحرافات والشذوذ لدى الكبار . وجميعهم إتفق على إرجاع الأسباب إلى الصراع بين رغبات الفرد والمجتمع أساسا والتعارض بينها خصوصا فى السنوات

* مدرسة الجشطالت هي مدرسة في علم النفس ظهرت في ألمانيا في مطلع القرن العشرين . والفكرة الرئيسية التي تقوم عليها هي أن مخ الإنسان لديه نزعة داخلية إلى تنظيم أجزاء الخبرة في إطار كلي شامل أو تشكيلي Configuration . وكلمة الجشطالت بالألمانية تعني " تشكيل " Configuration بالإجليزية . وأنصار هذه المدرسة ضد تعليم الجزئيات بعيدة عن الكلّيات التي تنتمي إليها . ففي تعليم القراءة على سبيل المثال لا ينبغي تعليم الحروف الأبجدية قائمة بذاتها ، وإنما ينبغي تعليمها في الكل الذي تنتمي إليه وهو الكلمات والعبارات والجمل . ولذلك فإن مدرسة الجشطالت كان لها تأثير هام على الطرق الحديثة في تعليم القراءة التي تستند إلى الطريقة الكلية أو طريقة الجملة أو طريقة أنظر وقمل .

الأولى من ٢-٥ سنوات . وكان لجهود التحليل النفسى الفضل فى توجيه أنظار المربين إلى أهمية السنوات الأولى فى حياة الطفل وفى تشكيل سلوكه .

وهولاء العلماء الرواد الذين غذوا الدراسة العلمية للتربية عملوا فى المعامل واستخدموا المقاييس السليمة والإحصائيات . وكان هناك من لم يفعل ذلك . فالطبيبة الإيطالية « ماريا مونتسورى » (١٨٧٠ - ١٩٥٢ م) وهى أول طبيبة تتخرج من جامعة روما قد دخلت تاريخ التربية كرائدة فى تطبيق مفاهيم الدراسات الأنثروبولوجية ودراسة التخلف العقلى والإجتماعى على تعليم الصغار . وأخيرا يهمنى الإشارة إلى الحركة السيكلوجية فى التربية التى كان ظهورها تحت تأثير من نظرية التطور لداروين والحركة الطبيعية . وقد قامت الحركة السيكلوجية على أساس فكرة أن التربية هى عملية تفتح وغو من الداخل

٤ - نحو تعاون دولى فى التربية - أو التربية من أجل السلام :

لقد حققت الإنسانية أعظم إنتصاراتها عندما إنتصرت الديمقراطية فى الحرب العالمية الثانية . ومع هذا الإنتصار الرائع بدأت الشعوب تحس بأهمية التعاون فى زمن السلم كما أحست بأهميته فى زمن الحرب . وقد إتضح للبشرية أن ما عانتها من ويلات الحرب لم يكن إلا نتيجة سوء إستخدام التربية من جانب زعماء النازية والفاشية الذين سخروها لخدمة أغراضهم العنصرية وكما أن التربية تكون سلاحاً للحرب فهى أيضا درع للسلم . وهكذا إتجهت الإنسانية نحو التربية كأعظم ضمان لتحقيق السلام بين الشعوب ، ومن هنا برزت أهمية التعاون الدولى فى التربية .

وقد بدأ هذا التعاون يأخذ طريقه العملى منذ سنة ١٩٤٤ م عندما إجتمعت فى لندن وفى غيرها لجان من أجل وضع خطة لقيام هيئة دولية فى التربية . وفى نوفمبر سنة ١٩٤٥ م إجتمع فى لندن ممثلو ٤٣ دولة من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) .

والأهداف الرئيسية لليونسكو تتمثل فى العمل على تحقيق السلام العالمى ، وتنمية التعاون والتفاهم الدولى من خلال الأنظمة التعليمية فى مختلف الشعوب، ومحاربة الأمية من خلال برامج التربية الأساسية ، والسعى نحو تكافؤ الفرص التعليمية لكل الناس ، وأخيرا محاربة شتى الأفكار العنصرية ، وسوء التفاهم بين الشعوب . وكان شعار اليونسكو ومازال هو : « طالما أن الحرب تبدأ

فى عقول الناس فإن حماية السلام تكون بسيطرة السلام على هذه العقول .
وهذا يعنى تربية عقول الناس على حب السلام . وكانت الطرق والأساليب التى
تستطيع بها اليونسكو تحقيق هذه الغايات من خلال التبادل العالمى للأساتذة
والطلاب والمواد التعليمية ، وتقديم الخدمات التربوية للدول الفقيرة والعناية
بالبحوث التربوية والعلمية ، ومراجعة الكتب الدراسية والمواد التعليمية ، وعقد
المؤتمرات الدولية لدراسة المشكلات التربوية والعلمية . وقد إستطاعت اليونسكو
أن تحقق كثيرا من الإنجازات فى مجال التربية والعلوم وما زالت حتى الآن تقوم
بدور بناء فى هذا السبيل وإن بدأ ضوءها يخبو وتقل فعاليتها نسبيا فى
السنوات الأخيرة .

مشاهير الفكر التربوى الغربى فى العصور الحديثة :

شهدت العصور الحديثة الدراسة العلمية المنظمة للتربية . وظهر فى الميدان
كثيرون . وجميعهم عملوا من أجل خير التربية ، وكانت إسهاماتهم عظيمة .
ولايستطيع الإنسان إلا أن يحبب فيهم جهودهم الرائعة المخلصة البناءة المشابرة .
لقد ساروا قبلنا على الطريق وعبدوا لنا مهاده . كما أناروا لنا جوانبه . ونحن
من ورائهم نسير لندفع بالعجلة إلى الأمام . أليست هذه سنة الله فى خلقه ؟ ولله
فى خلقه شئون . وفى الصفحات التالية بعض فكرهم زاد لكل من يطلبه .

بستالوتزى (١٧٤٦ - ١٨٢٧ م) :

ولد « يوحنا هنرى بستالوتزى » فى زيورخ بسويسرا وعاش يتيما . وكان
لهذه النشأة اليتيمة أثر فى حياته . فبدافع من اليتيم تعلم القانون ليدافع عن
الفقراء ، وبدافع من اليتيم أيضا فتح بيته لتعليم اليتامى وأطفال الفقراء . ومع
أنه ولد فى سويسرا الكالفنية فإنه لم يتأثر بالفكر الكالفنى عن طبيعة الإنسان
الحاطثة وغرائزه الطبيعية . وكان بستالوتزى من كبار الرجال القادرين على
إستيعاب أفكار الآخرين . وقد قرأ كتاب " إميل " لروسو وتأثر بفلسفته وحاول
تطبيق مبادئه على أساليب التربية التى نادى بها وطبقها . وكان مقتنعا مثله
بأنه لا تعارض بين تعلم الأنشطة العملية واليدوية وبين المعرفة النظرية وأن
بإمكان المتعلم أن يجمع بين تعلم المهارات الأكاديمية وتعلم المهارات العملية

كالفلاحة مثلا . وكان بستالوتزى يؤمن بأن التربية أساس بناء المجتمع وإصلاحه وأن تكون الحياة فى المدرسة مماثلة للحياة العائلية ، وأن التعلم يجب أن يبدأ بالخبرات الملموسة قبل المعرفة اللفظية وأن يبدأ من السهل إلى الصعب ومن البسيط إلى المقعد . وهى لب أفكاره التربوية فى روايته الشهيرة " ليونارد وجيرترود " Leonard and Gertrude التى نشرت سنة ١٧٨٢م . وقد تحدث فى هذه الرواية عن أغراضه الإنسانية وآرائه التربوية لجمهور عريض لأول مرة . إلا أن قراء الرواية هزتهم القصة العاطفية أكثر من الآراء والمبادئ التربوية التى استهدفتها . وللأسف أن النظرية التربوية فى الرواية لم تشر مناقشات جادة حولها . لقد كانت بطله الرواية " جيرترود " معلمة مثالية جمعت بين تعليم الحرفة والمهارات الثلاث (القراءة والكتابة والحساب) فى جهودها الناجحة لجمع شمل أسرتهما ورفع مستوى الفقراء فى قريتها . ولم يكن هدف بستالوتزى أن يكتب رواية تجارية للتوزيع . ولذلك إندھش للرواج الذى حققته عند الجماهير وإن خاب أملة لرد الفعل الذى أحدثته . وقد إعترض على رد الفعل العاطفى نحو الرواية . وكتب عدة مقالات عن المبادئ التربوية التى ضمنها روايته . ولكن هذه المقالات لم تحظ بالإهتمام لقراءتها .

وقد طبق بستالوتزى تجاربه التربوية فى موطنه فى نيوهوف بسويسرا فى الفترة بين ١٧٧٤ و ١٧٨٠م حيث أنشأ مدرسته على مزرعة حاول فيها أن يعلم عشرين لقيطا من خلال عملهم . وكان البرنامج التعليمي الذى وضعه بستالوتزى لهؤلاء اليتامى يتضمن تعلم المهارات الأساسية الثلاث (القراءة والكتابة والحساب) إلى جانب تعلم الفلاحة والغزل والنسيج والفنون العملية الأخرى . وكان يعتمد فى تمويل مدرسته على ما تنتجه المزرعة والتلاميذ من خلال تعلمهم . وقد أراد أن يؤكد أن الأطفال الفقراء يمكنهم أن يتعلموا وينموا ثقافيا وخلقيا من خلال الأنشطة العملية التى يتدربون عليها لكسب معيشتهم . بيد أن عمل هؤلاء الأطفال لم يكن كافيا لإعالة المزرعة وسرعان ما أفلست .

وعندما فشل مشروع " نيوهوف " تولى بستالوتزى الإشراف على منزل الأيتام فى " ستانز " بسويسرا حيث واصل تجاربه لنظريات روسو . وقد واصل نفس التجارب فى مدارس أخرى أشهرها فى " بوجدورف " Bergdorf و " يفردون " Yeverdon . وهناك فى قلعة قديمة أقام بستالوتزى بين عام ١٨٠٠م و ١٨٠٤م

مدرسة داخلية للصبيان بين سن السادسة والثامنة . وعندما أخرجه منها مجلس المدينة لحاجته إلى القلعة إنتقل إلى يفردون . وقد بقيت مدرسته هناك لمدة عشرين عاما . وأغلقت عام ١٨٢٥ م أي قبل وفاته بعامين . وقد حاول في هذه المدارس خلق جو منزلي . وكان تلاميذه وقد وصل عددهم إلى مائتين يتلقون العون النفسى والتشجيعى . وكان لهم مكان فى العائلة وكان عملهم هو من واجبات الأسرة يتعلمون من خلاله معرفة ذواتهم إلى جانب القراءة والكتابة والحساب والموضوعات الأخرى . ولاشك فى أن أنجح المدارس الداخلية فى الأزمنة المتأخرة كانت تعمل على هدى المبادئ التى نادى بها بستالوتزى . كما حاول تحسين طرق تدريس المواد الدراسية الأولية . فقد كان مهتما بصفة خاصة بالتعليم الأولى وتبسيط المادة الدراسية إلى أبسط عناصرها الموضوعية المحددة . ورتب هذه العناصر ترتيبا سيكولوجيا أو حسب صعويتها بالنسبة للتلاميذ مبتدئا بالبسيط إلى المعقد . وعمد أيضا إلى مطالبة التلاميذ بملاحظة هذه العناصر ومطالبة التلميذ بالتعبير عن إنطباعاته بالنسبة للعناصر التى لا حظها . وقد طبق بستالوتزى هذه المبادئ على تعليم المواد الأساسية الأولية مثل القراءة والكتابة والحساب والجغرافيا .

وأكد أهمية الحواس كمصادر للمعرفة ولذا رفض الطريقة التقليدية التى إعتمدت على الكتاب . وفضل عليها طريقة إستخدام الأشياء أو التعليم الشفهى . ورفض التعليم اللفظى التقليدى الذى يعلم الطفل أشياء لا يفهمها ونادى بأهمية الملاحظة فى التعليم لأنها تمد التلاميذ بالأفكار الواضحة عن الأشياء . ورفض الممارسة التربوية السائدة التى تعتمد على اللفظية وحفظ القواعد والجداول والرموز بدون فهم لمعناها من جانب التلميذ . وضرب مثالا بالرياضيات . وآمن بدلا من هذه الطريقة بما سماه الرياضة العقلية التى تقوم على ملاحظة أشياء مجسدة . ومن خلال تفاعل التلميذ مع هذه الأشياء واستخداماتها يتعلم المجموعات الرياضية على أساس من الفهم الواضح . وفى تدريس الجغرافيا يقوم التلميذ بدراسة الظروف الطبيعية للبيئة المحيطة به وتأثيرها على الناس وحياتهم . وهكذا يعمل التلميذ خريطة بنفسه لا خريطة مصطنعة تقدم له . وهو ما نادى به روسو من قبل .

وأكد بستالوتزى على أهمية التعاطف والحب بين التلميذ والمدرس وهو ما

نادى به روسو أيضا . وكانت الممارسة التربوية قبله لاسيما فى مدارس الفقراء تقوم على الإعتقاد بأن التعليم يتأتى عن طريق الخوف والفرع . يضاف إلى ذلك ما سعى إليه بستالوتزى من خلق جو لطيف مرح فى المدرسة مع إحترام التلميذ بدلا من الجو المقبض للمدارس الفقيرة . لقد كان لدى بستالوتزى مبدأ أساسى مسيطر ولكنه بسيط . فقد قال " إنه بإمكان كل مخلوق بشرى أن يتعلم ليصل إلى درجة عالية من إحترام الذات والقوة " . وقد ركز بستالوتزى إهتمامه الشديد على الأفراد . ولا نجد تربويا مثله فى ذلك . ولم تخدعه النواحي الجماهيرية . فلم يكن يحب أن يكون رجل الجماهير . وكان يرى أن على التعليم أن يسير بحساسية متزايدة لمعرفة كيفية نمو الأطفال وتطورهم . وأحس بستالوتزى أن المدارس ستصادف النجاح إذا لم تترك التجارب جانبا وإذا استخدمت المعرفة عن نمو وتطور الطفل لتمكنه من مساعدة نفسه .

وإذا تساءل المرء عما إذا كان بستالوتزى مؤمنا بنمط معين لتطور الطفل المراهق فإن الإجابة تستلزم بعض الحذر . لقد شارك بستالوتزى بعض فلاسفة القرن الثامن عشر الرأى بأن جميع الأشياء تخضع لقوانين التطور المنظم . ويبدو أنه كان متأكدا من أن الطفل يظهر ما عنده وفقا لقوانين طبيعية . وقد ظهر فى كتاباته إلى حد ما وكأنه على علم بهذه القوانين . ولكن لحسن الحظ لم يتفلسف بستالوتزى كثيرا فى وضع نظرية لنظام الطبيعية مما قد يعوق حقيقة العمل مع الأطفال وملاحظتهم .

وقد إنتعشت أفكار بستالوتزى فى الفترة ما بين عامى ١٨٠٥م و ١٨١٠م عندما لقيت فهما وتقديرا . ولايسع المرء إذا نظر إلى ما قاله وفعله بستالوتزى فى هذه السنوات العظيمة إلا أن يدرك بوضوح مدى ما أسهم به فى مجال التربية . ولاقت هذه الأفكار رواجاً وانتشاراً منقطع النظير . وقد اعترف الكثيرون بإمكانية بستالوتزى وعظمته . كما إمتد تأثير آرائه إلى مختلف البلاد . وإبتسمت الحياة أخيرا له بعد خيبات الأمل الكثيرة التى تعرض لها فى حياته . وتقديرا لجهوده وآرائه منحه قيصر روسيا لقب " الفارس " وجعلته فرنسا مواطنا فى الجمهورية الفرنسية . كما عرفه الفيلسوفان " فيخته " و " هربارت " واحترماه . ونظمت مدارس روسيا وأعيد تنظيمها بعد عام ١٨٠٨م وصممت من جديد على أساس أفكاره . وقد تأثرت به مدارس سويسرا وأسلوب تدريب

المعلمين فى هذه المدارس . وأرسلت إنجلترا وفرنسا طلبه التربية كى يطلعوا على أعمال بستالوتزى فى " يفردون " كما وصلت آراؤه إلى الولايات المتحدة . ويعتبر بستالوتزى أول تربوى أوربى يؤثر تأثيرا كبيرا على التربية الأمريكية بعد فترة الإستعمار .

وقد تصادف بطريقة غير مباشرة أن وجد " إدوار سيلدون " (١٨٢٣ - ١٨٩٧م) مدير مدرسه " أوسويجو " Oswego لإعداد المعلمين فى نيو يورك فرصة لعرض مواد التعليم الموضحة لبستالوتزى . وكان بستالوتزى يربط دائما بين الشىء المراد تعلمه وصورة هذا الشىء وعرضه على الدارسين . وقد حدث أن رأى " شيلدون " هذه المواد فى " تورنتو " بكندا . وعلم أنها وضعت وفقا لنموذج يستخدم فى كلية " هوم آند كولونيال " للمعلمين فى لندن . وكانت هذه الكلية بدورها من الكليات التى توجهها نظريات بستالوتزى بفضل الدكتور " تشارلز مايو " والدكتورة " إليزابيث مايو " وهما من الخبراء فى المواد والطرق البستالوتزية . وقد أحضر " شيلدون " الآتسة " جونز " إلى " أوسويجو " من كلية هوم آند كولونيال للمعلمين بغرض تدريب معلمى المدرسة على طرق بستالوتزى وأساليبه وبخاصه طريقة الحس الواقعى التى تستخدم الاشياء المتصلة بتعليم المجردات سواء كانت كلمات أو حروفا أو أرقاما وقد استجاب الطلاب فى مدرسة " أوسويجو " للمعلمين بحماس بالغ لطرق بستالوتزى وحمل كل منهم حماسه الى العالم الخارجى مثلما يفعل المصلحون المتحمسون . وقد إستقر بستالوتزى والواقعية الحسية فى امريكا حيث وجدا مكانا مناسباً .

هريارت (١٧٧٦ - ١٨٤١ م) :

نشأ " جون فردريك هريارت " فى عائلة ألمانية مثقفة كان لها أثر واضح فى حياته . وقد درس الفلسفه فى جامعه " بينا " ثم أصبح أستاذا لها فى الجامعات الألمانية ومع أن هريارت زار بستالوتزى فى مدرسته فى " بورجدورف " وتأثر بجهوده وآرائه التربويه فإنه كان أكثر تأثيراً منه فى وضع أسس المنهج العلمى لدراسة التربية وقد ألف كتباً كثيرة فى التربية من أشهرها : " علم التربية The Science of Education (١٨٠٦ م) " وإطار الفكرة التربوية Outline of Education Doctrine (١٨٣٥ م) وضمنهما أهم آرائه ومبادئه وتوصياته النفسية والتربوية . وكانت أهم إضافة جديدة لهريارت تأكيده للطابع الاجتماعى

والخلقى للتربية وصياغته المتسلسلة لطريقة التدريس . وإذا كان يستالوتزى مهتما بالتعليم الأولى وفرويد برياض الأطفال فإن هربارت لقى إستحسانا كبيرا من جانب المعلمين فى التعليم الثانوى وأساتذه الجامعات. وكان يسود أيام هربارت نظرية تقول بأن كل فرد فى نموه يمر بمراحل تماثل مراحل الثقافة التى مر بها جنسه فى نموه . وقد تقبل هربارت وأتباعه هذه النظرية واعتبروها صادقة وعرفت هذه النظرية بنظرية العصر الثقافى Cultural Epoch Theory التى سبق أن أشرنا إليها .

لقد عرض هربارت تصورا للدورة العقلية التى تبدأ لديه بالمعرفة وهو لا يعنى بها مجرد الانطباعات الحسية كما لدى يستالوتزى وإنما يعنى الأفكار الواضحة. والخطوة الثانية هى العمل الذى يأتى نتيجة الأفكار الواضحة . والخطوة الأخيرة هى إكتساب الطابع الخلقى . وقد صاغ هربارت مبادئ نفسية جديدة ورفض فكرة الملكات العقلية الموروثة بل إنه أنكر وجود العقل نفسه عند الميلاد . وفى نظره أن الجسم والروح يوجدان عند الميلاد أما العقل فلا وجود له آنذاك . وفى نظره أيضا أن العقل ليس سوى مجموع كلى للأفكار والانطباعات التى تدخل إلى شعور الإنسان خلال حياته وتأتى نتيجة للاحتكاك بينه وبين البيئة . وهذه الأفكار ترتب نفسها فى مجموعات على أساس التشابه القائم بينها أو من خلال توحيدها مع الأفكار السابقة المشابهة . ودور المعلم هو فى توجيه عملية التعليم من خلال اختياره لهذه الأفكار وعرضها عرضا منظما . فالمعلم يعتبر فى هذا مهندس العقل . وتجدر الإشارة هنا إلى أن من بين تأثيرات يستالوتزى وهربارت على التربية هو الاهتمام بإنشاء معاهد لإعداد المعلمين . إن الشرط الرئيسى لدى هربارت للنمو العقلى الصحيح ولعملية التعليم هو إهتمام المتعلم أو ميله . وهذا الميل قوة وهو يتميز عن الأفكار مع أنه يمتد بأصوله فيها . وقد ذهب هربارت إلى ما هو أبعد من الإدراك الحسى والملاحظة كمصادر رئيسية للنمو العقلى عند يستالوتزى . وحاول دراسة ظاهرة الحياة العقلية لدى الإنسان وتأثيرها على سلوكه وعلاقة التعليم بالنمو العقلى والحياة الفاضلة .

الهدف من التربية :

جاءت نظرة هربارت إلى الهدف من التربية عكس ما رآه روسو الذى يمثل ثورة ضد الثقافة التقليدية . ونادى هربارت بأن الهدف النهائى للتربية هو تربية الفرد تربية دينية أخلاقية ثقافية . وقد أكد على الهدف الأخلاقى الإجتماعى

للتربية . وأكد أهمية دراسة التاريخ والآداب لأهميتها فى تحقيق هذا الهدف بما تكونه لدى الفرد من اتجاهات إجتماعية مرغوية . بل إنه ذهب إلى أكثر من هذا ونادى بأن يكون التاريخ والدراسات الأدبية محور الدراسة التى ينبغى أن يركز عليها التلميذ وبها ترتبط دراسة المواد الأخرى . ويكون ترابط هذه المواد مؤديا فى النهاية إلى تصور موحد عن العالم .

طريقة التدريس :

لقد عالج هربارت مشكلة التدريس باهتمام جاد كما لو كان الفيلسوف الأكاديمى الرائد فى بلده . فقد وضع تعليمات دقيقة عن كيفية إثراء مخزون الطالب من المعرفة . وأصبحت الخطوات الهيربارتية فى التدريس أساس تدريب المعلمين لعدة أجيال . وترتكز نظريته فى التدريس التى عرضها فى الخطوات الخمس على أساس أن العقل " كتلة مدركة " تلتحم فيه الأفكار الجديدة بالقديمة المتصلة بها . وإعتقد هربارت أن الإنطباعات والأفكار تهتم فى الواقع ببعضها ولها جاذبية لما يشبهها من أفكار وإنطباعات ، وأن الطالب يهتم بالمفاهيم التى ترتبط بما سبق أن تعلمه . وعلى المدرس الحاذق إستغلال هذا الإهتمام . وقد حدد هربارت دون أن يترك ذلك للصدفة خطوات خمس لعملية التدريس هي : الإعداد ، والعرض ، والربط ، والتعميم ، والتطبيق . وفى خطوة الإعداد يحاول المدرس أن يربط بين الدرس الجديد والخبرات السابقة للتلاميذ . أما الخطوة التالية وهى العرض فإنها تهدف إلى فهم التلاميذ للمادة الجديدة . وقد اتبع هربارت هنا إقتراح بستالوتزى وكومينيوس . إذ شجع المدرسين على إستخدام أشياء ملموسة كنماذج لأية أفكار مجردة يجرى تدريسها . ويجرى خلال الخطوة الثالثة الربط بين العلاقات وإبراز أوجه الشبه والإختلاف فى الأفكار الجديدة ومقارنة الأفكار القديمة والجديدة . ومدى إختلافها أو إتفاقها . وعندما تتضح أمام التلاميذ الأفكار الجديدة يمكنهم أن يربطوها بأفكار عديدة تمكنهم من التعميم أو التجريد . وذلك بأن يتوصل الطلاب بمساعدة المعلم إلى بعض المبادئ العامة . وفى الخطوة الأخيرة وهى التطبيق تساعد الأفكار التى تعلمها التلاميذ على تفسير للتجارب الجديدة . كما تساعدهم على تطبيق المبادئ المستخلصة فى المواقف العملية وحل المشكلات .

هيربارت في أمريكا :

انتشرت آراء هربارت في الولايات المتحدة الأمريكية بعد ما يقرب من نصف قرن بعد وفاته . ولقيت رواجاً هناك . وتأسس عام ١٨٩٥ م جمعية بإسمه . إلا أنه لم يمض عقد من الزمان حتى بدأت الهربرارية في الذبول هناك . وكان أهم عامل عجل بإنهيارها ظهور نظرية " داروين " في التطور . وهى نظرية أكدت النظرة إلى الإنسان باعتباره كائناً بيولوجياً عضواً . وكانت الهربرارية قد ركزت على التطبع وليس الطبع . كما كان لنقد جون ديوى تأثير على التعجيل بنهاية الهربرارية وهدم صرحها في أمريكا . وقد تعرض جون ديوى لبيان ميزات وعيوب الطريقة الهربرارية في التربية وعرض ميزاتها في النقاط الآتية :

- ١ - أنها حررت التدريس من الخضوع للتقاليد وجعلت منه عملية واعية منظمة ومحددة في خطوات .
- ٢ - أنها رفضت نظرية الملكات العقلية الفطرية التى يمكن تدريبها واهتمت بدلا من ذلك بالمادة العلمية المختارة جيدا فى ضوء هدف تربوى محدد .
- ٣ - جعلت الطريقة مناسبة ومنتشبة مع المادة الدراسية ومع الأهداف العامة للتدريس .

أما بالنسبة لعبورها فقد لخصها فيما يلى :

- ١ - تجاهلها حقيقة أن الإنسان كائن بيولوجى حى نشيط ينمو إستجابة لبيئته .
- ٢ - أنها تبالغ فى أهمية العلم وتجعل العقل الإنسانى نتيجة له كما أنها تركز على التدريس وتهمل التعلم ونشاط التلميذ .
- ٣ - أنها ترجع الماضى والجوانب العقلية للبيئة وتهمل أهمية المشاركة فى الخبرات المشتركة للبشر .

هرودريك فرويل (١٧٨٢ - ١٨٥٢ م) :

يعتبر فرويل من اشهر المربين الألمان فى عصره . وكان لآرائه التربوية تأثير كبير خارج حدود بلاده أكثر مما كان لها داخل بلاده نفسها . وكان للظروف الاجتماعية التى نشأ بها دور كبير فى تشكيل أفكاره ونظرته للحياة . فقد كان أبوه قسيسا مكرسا كل وقته لعمله . وربما يفسر هذا نزعتة الصوفية التى شهر

بها . كما أنه حرم من عطف وحنان أمه وهو لم يكمل عامه الأول . وترى فى ظل زوجة لم يطل بها العهد حتى أنجبت ولدا إستأثر بكل عطفها وحبها . ولم يجد فرويل سلوى لنفسه إلا قضاء كثير من وقته وحيدا فى حديقة البيت يفكر ويتأمل فى الطبيعة أمامه . وربما كان ذلك تفسيرا لـحبه للطفولة ولآرائه التربوية فى التأمل والطبيعة .

وقد زار فرويل معهد يستالوتزى فى " يفريدون " وأعجب بما شاهده هناك . وأسس فرويل المعهد الألمانى لتربية الأطفال . وحاول أن يطبق فيه آراءه التربوية . وهكذا بدافع حقيقى من حب الطفولة أنشأ فرويل معهدا لتربية الأطفال أطلق عليه " روضة الأطفال " سنة ١٨٣٧ م . وكانت أول روضة أطفال فى العالم . وهو بهذا يعتبر رائد حركة رياض الاطفال فى العالم وصاحب الفضل الأول فيها . وقد حقق هذا المعهد نجاحا وشهرة مما حدا بالحكومة السويسرية أن تطلب منه إنشاء ملجأ فى " بروجدورف " .

وقد حاول فرويل فى كتابه " تربية الرجل " The Education of Man أن يتوسع فى نظريته التربويه فى مدرسته فى " كيلهو " keilhau وكان تفكيره مرتبطا بنظريته الصوفية عن العالم وعلى أساسها نظر إلى الكون على أنه وحدة خرجت من المطلق أو الرب . ونظر إلى الإنسان على أنه وحدة فى حد ذاته فى نطاق الكل . ونظر إلى نمو الإنسان من الناحية النفسية على أنه يشبه نمو النبات حسب قوانين الطبيعه . وذهب إلى القول بوحدة العقل والجسم والروح وأن التعليم يوحد بين المعرفة والعمل والإحساس . وتتلخص أهم آراء فرويل التربوية فى المبادئ الرئيسية التالية :

١ - النشاط الذاتى الحر .

٢ - الابتكارية .

٣ - الاشتراك أو المشاركة الاجتماعية .

٤ - التعبير الحركى .

ونظرا لأن هذه المبادئ تمتد بجذورها إلى تصوره الصوفى عن العالم فإن أبعادها التطبيقية والسيكولوجية لم تكن أتباعه من هضمها وتمثيلها ومع هذا فقد كان لآرائه صدى كبيرا إنعكس على حركه التربية الحديثة وسنفضل الكلام عن

كل نقطة من النقاط السابقة فى السطور التالية .

١-النشاط الذاتى الحر :

يرى فرويل أن التربية عملية نمو للفرد من الداخل أى أنها موجهة بقوى داخلية فيه . ومع أنه شبه نمو الطفل ينمو النبات إلا أنه يرى أن الاختلاف بين الإثنين يكمن فى أن عملية نمو الطفل موجهة بالإدراك الواعى والتفكير ويمكن أن يعى الطفل صنع الرب فى داخله وأن روح القدس تكشف عن نفسها وتعبر عن ذاتها فى نشاطه إذا كان هذا النشاط ذاتيا أو تلقائيا . ولهذا يجب أن تستهدف التربية تهيئة النشاط الذاتى الحر وتقرير الانسان مصيره بنفسه ليعيش حرا لأن الإنسان صور الرب على الأرض . ومن بين الصور المتعددة للنشاط الذاتى الحر أكد فرويل على اللعب وأهميته الكبرى . ففى الطفولة يلاحظ الطفل العالم من حوله ويحاول أن يقلده فى لعبه . وعندما يصبح صبيا يفكر فى هذا العالم . ويجب عندئذ أن يعلم التفسير الدينى له كما يعلم العلوم الطبيعية التى تكشف عن صنع الرب فى الطبيعة ، ويعلم الرياضيات التى تربط بين العقل البشرى والعالم المادى . ويضيف فرويل الى ذلك تعليم اللغات لأنها تشير إلى العلاقة بين مختلف الأشياء فى الطبيعة . ويضيف أيضا تعلم الفنون التى تستطيع النفس من خلالها التعبير عن ذاتها بطرق مختلفه مثل عمل النماذج والرسم بأنوعه المختلفه .

٢-الابتكارية :

الإنسان بطبيعته فى نظر فرويل كائن دينامى حى نشيط وليس مجرد مستقبل أو ملاحظ سلبي للأحداث . فالإنسان باعتباره صورة للرب على الأرض له قوة ابتكارية تتوحد مع الروح الابتكارية للرب أو الوجود المطلق . ويقول فرويل " إن الله خلق الانسان مبتكرا ومبدعا مثل خالقه " وعلى التربية أن تستشير فيه قدرته على الابتكار والابداع وأن تعمل على تدريبها .

٣-المشاركة الاجتماعية :

يرى فرويل أن الإنسان وكل ألوان نشاطه يرتبط بالضرورة بالمجتمع الذى يعتبر جزءا منه فالإنسان يعمل فى وسط إجتماعى . وكل نشاط له معناه

ومضمونه الاجتماعي . ومن خلال آراء فرويل التي عبر عنها يبدو أنه قد أخذ بوجهة نظر مناقضة للاتجاه غير الاجتماعي الذي ذهب إليه روسو في التربية . فقد أكد فرويل على الجانب الاجتماعي للتربية وطالب بأن تكون كل مدرسة مجتمعا صغيرا . ومن خلال الأنشطة والجماعات المدرسية يمكن تنشئة الطفل تنشئة اجتماعية .

٤- التعبير الحركي :

يرتبط مفهوم التعبير الحركي لدى فرويل بالمبدأ الأول عن النشاط الذاتي الحر . وفي شرح هذا المفهوم يقول فرويل مدافعا عن العمل اليدوي في المدرسة : "إن تعلم الأشياء في الحياة من خلال العمل أجدي نماء وأثرا من مجرد التعلم عن طريق الأفكار اللفظية " . ويتضمن هذا المبدأ لدى فرويل الإعتراف بالتكامل بين الفكر والعمل . وأنهما لا ينفصلان وأن العقل والروح والجسم كل لا يتجزأ . فالعقل والروح يعبران عن نفسيهما وينموان من خلال أنشطة الجسم . والتفكير ينبغى أن يعبر عن نفسه في نشاط حركي وعملي وإلا أصبحت عملية التربية غير منتجة . والواقع أن أهمية النشاط الحركي قد أكدها كثير من المربين منذ القرن السادس عشر وما بعده . فقد أكد كل من " رايليه " و " كومينيوس " و " لوك " و " روسو " و " بستالوتزي " وغيرهم على الحاجة إلى التدريب الصناعي أو التدريب على الصناعات . ومع أن جميعهم إعترف بالأهمية الاقتصادية لهذا التدريب فإن كثيرا منهم نظروا إلى التدريب العملي على أنه جزء رئيسي من التعليم العام . وأكدوا مثل فرويل على الأهمية التربوية وليست المهنية لهذا التدريب .

رياض الطفل :

من المعروف أن الفضل يعود إلى فرويل في إنشاء رياض الأطفال . فقد أنشأ أول روضة منها سنة ١٨٣٧م كما أشرنا . وقد إستهدف من هذه الرياض كما هو واضح من تسميتها أن تكون رياضا ينمو فيها الأطفال كما تنمو الورود والأزهار في الحدائق . وإلى جانب رياض الأطفال التي أنشأها أيضا مدرسة لتدريب معلمات رياض الأطفال . وقد إعتمد أن كل أم ينبغى أن تتلقى هذا التدريب وأن كل منزل يجب أن يكون روضة للأطفال . وقد طبق فرويل في

رياضه نظرياته التربوية . وكان يقدم لكل طفل بعض الهدايا من اللعب والنماذج . وأول ما كان يقدم له هدايا من " كرة " و " مربع " و " أسطوانة " . ومع نمو الطفل يعطى هدايا أكثر . ومن بين كل هذه الهدايا ركز فرويل على " الكرة " وأهميتها ومغزاها . وهو يرى أن يعطى الطفل كرة عندما يكون سنه ثلاثة شهور . وفكرته التربوية وراء ذلك أن الكرة تحفز على اللعب وهي فى نفس الوقت ترمز إلى وحدة الكون فى نظره ذلك لأنه كان يولى اهتماما إلى رموز الأشياء التى تقدم للطفل . وكل شئ له رمز يدل على مغزاه عند فرويل . فالكرة لديه رمز لوحدة العالم وطبيعة الطفل . وهي تحفز على اللعب كما أشرنا وتساعد على تدريب حواسه وعضلاته وقوة إنتباهه ، وفى نفس الوقت تعطيه الثقة فى قدرته . ومن حركة الكرة فى يده وفى إبتعادها عنه وقرىها منه يتعلم المسافة والزمن والماضى والحاضر والمستقبل . وعندما تغنى المعلمة أو الأم مع حركة الكرة إلى أعلى وأسفل كلمات مثل " فوق " و " تحت " وغيرها يتعلم هذه الألفاظ . ومع كبر الطفل تصبح حركة الكرة رمزا للحياة . ويجب أن تكون مختلف ألعاب الكرة متمشية مع مرحلة النمو التى يصل إليها الطفل .

وإلى جانب الهدايا من اللعب أدخل فرويل إلى رياضه زراعة النباتات والعناية بالحيوانات الأليفة من أجل تنمية الفهم والتعاطف مع الأشياء الحية . كما أدخل أيضا الأغاني والأناشيد لتكشف الحياة الداخلية للحيوانات والإنسان . وكانت الألعاب والأغاني السمات الرئيسية للحياة التربوية فى رياض الأطفال التى أنشأها فرويل .

وقد إمتدت حركة رياض الأطفال إلى بروسيا وانتشرت فى الولايات المتحدة الأمريكية . وكان إنتشارها هناك على يد لاجئة سياسية ألمانية هربت بعد ثورة بروسيا سنة ١٨٤٨م . وقد أغلقت هذه الثورة كل رياض الأطفال فى بروسيا سنة ١٨٥١م . واعتبرتها ذات خطورة على الحكومة الجديدة لما تقوم عليه من مبادئ الحرية . وكانت هذه اللاجئة الألمانية " السيدة كارل شورز Schurz " التى قادت حركة رياض الأطفال فى أمريكا . وأنشأت أول روضة ألمانية فيها فى ويسكنسون سنة ١٨٥٥م . ومن بعدها قامت " إليزابيث بيبودى Peabody " بإنشاء أول روضة إنجليزية سنة ١٨٦٠م . ومن بعدها حتى سنة ١٩٠٠م إنتشرت رياض الأطفال فى أمريكا وقامت بها الهيئات الخيرية والسلطات المدنية

للتعليم . وق إستطاعت رياض الأطفال الأمريكية وغيرها أن تتخلص من النزعة الغيبية فى تطبيقها لأراء فرويل .

نقد آراء فرويل :

- ١ - الإعتراف بأهمية الإمكانيات الفطرية للأطفال وضرورة الإهتمام بها من جانب الآباء والمعلمين .
- ٢ - أن التربية عملية نمو وتفتح من الداخل وأن هذا النمو يجب أن يتمشى مع المرحلة التى يمر بها الطفل فى نموه .
- ٣ - الإعتراف بالأهمية التربوية للعب والنشاط الذاتى والحركى والعمل الإبداعى الإبتكارى للطفل والمشاركة الإجتماعية والتعلم من خلال العمل .
- ٤ - إيمانه بأن المعرفة ليست الغاية النهائية من التربية بل هى وسيلة لتنمية الطاقات الداخلية .

إن ما نادى به فرويل من أفكار بصرف النظر عن النزعة الصوفية التى أحاطها بها تعتبر آراء صائبة وجميلة من الناحية النفسية والتربوية والإجتماعية وقد وجد تطبيقها العملى طريقه إلى الممارسات التربوية فى التعليم على إختلاف مراحلها من الطفولة حتى الجامعة . وقد عاب كثيرون على فرويل الأهمية الكبرى التى أولاهها للعب وأنه أهمل الجانب المعرفى والفكرى . كما عيب عليه أيضا تفسيراته الغيبية والرمزية التى يضيفها على الألعاب وهى تفسيرات غامضة .

جون ديوى (١٨٥٩ - ١٩٥٢ م) :

وأخيرا يدور الزمن دورته . ويتحول الإهتمام بالتربية الحديثة إلى أمريكا لتصبح على مدى قرن من الزمان قلب هذه الحركة فى النظرية والتطبيق . وكانت النظرية التربوية الأمريكية متأثرة بالنظرة الدينية الكالفنية البيوريتانية التى نظرت إلى طبيعة الإنسان على أنها شريرة وأن النظام الصارم للطفل يعتبر ضرورة دينية . ورحبت هذه النظرية الدينية أيضا بنظرية الملكات العقلية وأن التربية والتعليم ليست سوى معرفة المادة الدراسية . وقبل ظهور جون ديوى على المسرح التربوى الأمريكى كان هناك مربيون من أمثال هوارس مان وغيره نادوا بتأثير من آراء بستالوتزى بضرورة معاملة الطفل معاملة إنسانية وأن يكون المعلم

أكثر إنسانية أيضا . كما كان هناك أيضا الحركة الهيربارتية . وبعث جون ديوى ليصبح علما فذا فريدا من أعلام التربية الغربية إن لم يكن أشهرهم إطلاقا .

ويعتبر جون ديوى رائد الاتجاه البيولوجى للفلسفة البراجماتية التى يفضل البعض تسميته بالاتجاه الطبيعى التجريبي . والإنسان تبعا لنظرة ديوى الطبيعية هو كائن طبيعى يعيش فى بيئة طبيعية دائمة التغيير . ويمكن معرفتها بالخبرة والتجربة . ويجب على الإنسان أن يكيف نفسه بهذه الخبرة والتجربة ، وأن يمارس ذكاءه وتفكيره . والذكاء فى نظر ديوى يعنى القدرة على إستخدام الخبرة . ووفقا لنظرية داروين التى تأثر بها ديوى يفترض أن العقل أو الذكاء جاء متأخرا ، وأن الإنسان استخدمه فى التكيف مع بيئته . وبناء على ذلك صاغ ديوى نظريته فى التربية على أساس أنها تعلم الفرد طريقة التفكير بإعتباره وسيلة لحل مشكلات تكيف الإنسان مع بيئته . والعقل بالنسبة لديوى ليس شيئا ثابتا ، وإنما هو عملية نمو فالطفل يكتسب العقل والعقلانية من تعلمه معانى الأشياء فى بيئته . والعقل كعملية نمو ليس إلا مجرد وجه واحد من عملية النمو الكاملة للإنسان . فالعقل والروح كل لا يتجزأ . وهكذا رفض ديوى التصور الثنائى للطبيعة الإنسانية أى ثنائية العقل والجسم لأنها تناقض ما تقرره العلوم البيولوجية والسيكولوجية على أنها كل متكامل . وكذلك رفض الفصل بين الأفكار والأعمال أو الأنشطة فالعقل نتاج النشاط والعمل وينمو من خلالهما وربط بين الفكر والعمل . ولذا يجب ان يحظى التعليم من أجل العمل بأهمية واحترام مماثل للتعليم من أجل التفكير .

وفى عام ١٩١٠ م نشر ديوى كتاب صغيرا بعنوان " كيف نفكر؟ " وبه قائمة بالخطوات الخمس فى التفكير التى قدمها للمدرسة كبديل لخطوات التدريس الخمس التى وضعها هيربارت . فقد طلب ديوى من المدرسين أن يهتموا فى تعليمهم التلاميذ الأفكار والأفعال بتشجيعهم على التفكير أو حل المشكلات وتتناول أولى خطوات ديوى الشعور بالمشكلة أى أن التلميذ يواجه موقفا مشكلا فعندما يكتنف الغموض الأشياء يحس التلميذ بالحاجة إلى الإيضاح . وهنا هو الشئ المهم الذى يعتبره ديوى المنبع الداخلى لتوليد الدافع أو الحافز . بهذا يكون أمام التلميذ هدف . وتعالج المشكلة فى الخطوة الثانية وتفحص بدقة من جميع الوجوه على أمل فهمها . ثم يقترح فى الخطوة الثالثة الطرق لحل المشكلة . وتوضع الفروض وتختبر تجريبيا . أما الخطوة الرابعة فليست سوى التوسع فى

الافتراض . ولم يتوقع ديوى أن يقفز التلميذ مباشرة من أول تكهن أو فرض إلى اختباره . ولكن كلما زادت الفروض أمكن اختبارها وتختبر في الخطوة الرابعة التكهينات والفروض . ثم تختبر في الخطوة الخامسة صحة الفروض المحتملة . ويؤدى الفشل إلى تكرار الخطوات الأربعة الاخيرة كما أن النجاح أو الفشل يمدنا بخبرة نضع على أساسها التفكير فيما بعد .

وقد رفض ديوى نظرية الملكات العقلية كما رفض فكرة قيام المنهج على معلومات إنسانيه ثابتة تقسم منطقيا إلى مواد دراسية وإلى مقررات . وطالب بأن تترجم العلوم والفنون التى يدرسها التلميذ إلى خبرات واحتياجات حتى لاتصبح عديمة المعنى . ونظر إلى التربية على أنها عملية إعادة بناء لخبرة الطفل حتى تتسع لتشمل الخبرة المنظمة الواسعة التى يطلق عليها المواد الدراسية . لقد نظر إلى الطفل على أنه وحدة تنمو من خلال أنشطتها الخاصة فى إطار اجتماعى فهو نتاج اجتماعى يعتمد فى نموه على البيئة الاجتماعية .

إن فكرة التعليم عن طريق العمل قديمة قبل ديوى . وسبقه إليها كتاب عصر النهضة . ومن أشهرهم كومينيوس الذى أكدها . وكان روسو ويستالوتزى وفرويل من الذين قاموا بالعمل على نشرها وذويوعها . ومنذ سنة ١٨٩٦م عندما أسس ديوى مدرسته التجريبية فى جامعة شيكاغو حققت فكرة التعليم عن طريق العمل ذيوعا وحاول فى هذه المدرسة أن يعلم التلاميذ من خلال مشكلات تبرز من مواقف الحياة . وقد إتفق مع روسو على أن الخبرة الشخصية للتلميذ هى أحسن معلم . كما وافق فرويل على مبادئه التربوية المتعلقة بالنشاط الذاتى والمشاركة الإجتماعية . وحاول تطبيق هذين المبدأين فى مدرسته . بيد أنه رفض فكرة فرويل الرمزية لأن ديوى يفضل على هذه الرمزية خبرات الحياة العملية . وقد وجد ديوى نفسه غير متفق إلى حد كبير مع هيربارت . ويقال إن ديوى أخذ نظريته فى الميول من بستالوتزى .

لقد عاب ديوى على المدرسة تخلفها عن مواكبة التطور والتغيير الذى أحدثته الثورة الصناعية والحياة الديمقراطية . وقال بأن الطفل الحديث يجهل كثيرا من الأشياء لاسيما ما يتعلق منها بالطرق التى تشبع حاجته إلى الطعام والكساء والسكن . وطالب المدرسة بأن تكف عن طريقتها التقليدية التى تعتمد على الكتاب المدرسى وأن تقدم بدلا منها الخبرات الحقيقية من الحياة .

وقال بأنه يجب إستبدال مدرسة الإستماع بمدرسة الخبرات والنشاط . وينبغي أن يكون المنهج المدرسى قائما على الخبرات والأنشطة الإجتماعية الحية الحقيقية. إن المدرسة فى نظر ديوى هى الحياة وليست الإعداد للحياة . وهدفها الرئيسى تدريب التلاميذ على الحياة التعاونية ذات النفع المتبادل . والمدرسة من خلال مسئوليتها تسهم فى إصلاح المجتمع . وكان لديوى تأثير كبير على الفكر التربوى . ونشأ كثير من مدارس النشاط فى أمريكا بفضلها . ونشأت بناء على فكرته عن النشاط طريقة المشروع لكلباتريك وطريقة دالتون . كما إمتد تأثيره خارج وطنه لتشير أفكاره التربوية فى التربية الحديثة إهتمام الكثيرين فى الشرق والغرب على السواء . وقد زار ديوى تركيا عام ١٩٢٤م وقضى بها شهرين للوقوف على أحوال التعليم هناك بدعوة رسمية . وكتب تقريره الذى اقترح فيه بعض الإصلاحات التعليمية ومن أهمها :

- تعليم جماهير الشعب حتى يشاركوا فى النمو السياسى والثقافى والإقتصادى لبلادهم .
- استخدام برنامج غير مكلف لتدريب المعلمين لسد النقص فى المعلمين .
- أن يكون لكل مجتمع محلى لاسيما فى الريف مدرسته التى تكون مركز الحياة والنشاط فيه .

وقد تردد صدى آرائه فى قانون ١٩٢٤م الخاص بالقرى فى تركيا ونص على أن القرى فى الريف لا يتم تحديثها بجعلها مدنا وإنما برفع مستوى معيشة أهلها . ومع ذلك لم يطبق كل ما جاء فى تقرير ديوى حتى عام ١٩٣٨م عندما أنشئ فى تركيا أول معهد ريفى . وتلا ذلك إنشاء الكثير منها .

ماريا منتسورى Maria Mobtessori (١٨٧٠ - ١٩٥٢م)

هى أول امرأة تتخرج كطبيبة فى إيطاليا . ودخلت تاريخ التربية كرائدة فى تطبيق مفاهيم الدراسات الأثنويولوجية ودراسة التخلف العقلى والإجتماعى على تعليم الصغار كما سبق أن أشرنا . وقد إهتمت بالبيئة المدرسية والطرق الواقعية فى التعلم التى تؤكد على الخبرة والأنشطة الجسمية . كما إهتمت بتدرج المواد التعليمية فى صعورتها وتعقيدها لتناسب تنمية ذكاء الطفل ومهاراته . وقد أكدت على حرية الطفل . وفى بيوت الأطفال التى أنشأتها عملت على خلق جو من الإحترام لشخصية الطفل وإتاحة الفرصة له ليتعلم من خلال الأنشطة التى

يهتم بها وتتحدها . وقد تركز إهتمامها على مساعدة الطفل على التعلم لا على حفظ المعلومات * وقد أصبحت رائدة معترف بها عالميا فى التربية التقدمية للطفل . وقد كان إهتمام الأمريكيين بهذه الطيبة عظيما فى الفترة من ١٩١١-١٩١٥م حتى وصل إلى حد العبادة . والواقع أن آراء منتسورى تبعث الآن من جديد وتلقى إهتماما كبيرا . وطريقتها فى التعليم تمارس الآن فى صورتين . إحداهما الصورة الأصلية التى تتبناها . " رابطة منتسورى الدولية" Association Mentessori Interationale (AMI) وهى تستخدم فى كثير من الدول المعاصرة منها دول أوربا وأمريكا الجنوبية وأستراليا والهند وغيرها من الدول الآسيوية . والصورة الثانية هى الصورة الحديثة المعدلة التى تتبناها جمعية منتسورى الأمريكية (AMS) The American Montessori Society وهى منتشرة فى الولايات المتحدة الأمريكية . (Husèn : P : 3403) .

والصورة الأمريكية المعدلة تضيف إلى العناصر الأساسية لطريقة منتسورى أنشطة موجهة نحو النمو العقلى والإجتماعى عند الأطفال مثل استخدام الخيال والإبداع فى القصص التى تحكى للتلاميذ وفى قيامهم بالأدوار المختلفة وتوفير الأنشطة الفنية الجمالية . كما تؤكد على أهمية استخدام التلاميذ للغة فى مواقف الحياة اليومية المختلفة . هذا بالإضافة إلى التعديلات التى تقتضيها طبيعة العصر وظروف الحياة المعاصرة .

وفى تقويم طريقة منتسورى تقول الموسوعة الدولية للتربية إنها الطريقة التى صمدت لتحدى الزمن . وأثبتت حتى الآن أنها أكثر الطرق إعتقادا عليها . فقد إستطاعت هذه الطريقة أن تستمر منذ أول ظهورها فى نهاية القرن التاسع عشر حتى الوقت الراهن .

* أنظر كتابها الذى ألفته عام ١٩٣٦م بعنوان " سر الطفل " : The Secret of The Child
* لمزيد من التفصيل أنظر : Rambusch , N . (1962) :
Learning How To Learn : An American Approach To Montessori .
Helican Press . Boltimore . Maryland . U . S . A .

الفصل العاشر التربية في الشرق العربي الإسلامي في العصور الحديثة

مقدمة :

تركنا البلاد العربية الإسلامية في العصور الوسطى وقد وصلت إلى قمة ازدهارها وعظمة مجدها لاسيما في القرون الأربعة الأولى للإسلام . وكانت مشعل الحضارة والعلم الذي أضاء عصر النهضة الأوربية ومن بعدها نهضتها الحديثة . وشهدت تلك الفترة نهضة في الفكر التربوي الإسلامي ونهضة في التعليم وإنشاء المدارس . ولكن لكل شئ إذا ما تم نقصان . وقد عجل بهذا النقصان وقوع الدولة الإسلامية فريسة للتار والمغول في منتصف القرن الثالث عشر عندما سقطت لهم بغداد كعبة العلم والثقافة . وورثوا تراث المسلمين وخلفهم في الحكومة . " وناهيك بؤسا وشقاء للإنسانية وخرابا للعالم أن تتولى قيادة العالم أمة جاهلة وحشية ليس عندها دين ولا علم ولا ثقافة ولا حضارة (أبو الحسن الندوي : ص ٢٥٧) .

ولم يلبث أن ظهر الأتراك على الساحة الدولية كقوة حربية كبيرة مكنتهم من السيطرة على الشعوب العربية منذ عام ١٥١٧م عندما استولوا على مصر وسوريا . ومن بعدها إمتدت سيطرتهم على بقية ربوع العالم الإسلامي ، وكان الأتراك قد إتخذوا الهلال شعارا لهم منذ القرن الثالث عشر بإعتباره رمزا دينيا وحربيا . ولم تجد الشعوب الإسلامية غضاضة في الحكم التركي تحمى شعار الإسلام . بل وبعث الأمل فيها من جديد لإعادة مجد الإسلام على يد الأتراك . ومن سوء حظ المسلمين أن الأتراك لم يحققوا هذا الأمل وشغلوا ببناء قوتهم العسكرية وتوسيع ملكهم حتى استنفدت قوتهم . وإنتهى بهم الأمر إلى الضعف والتدهور . وكان شر ما أصيبوا به جمود الحياة الفكرية والثقافية . وكانت النتيجة وخيمة على العالم العربي الإسلامي إذ استسلم لفترة من الفقر والجهل والنوم العميق إمتدت إلى ما يقرب من أربعة قرون . وكان حال العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر أسوأ مما كان في القرن الثالث عشر . وهذا يعنى أن العالم الإسلامي كان متأخرا لست قرون . وكانت أحوال التعليم بالطبع إنعكاسا لهذا التأخر . فقد كانت متأخرة أيضا بنفس الدرجة . وأصيب الإسلام وهو روح الأمة

الإسلامية بالجمود والركود . وتحولت إيجابياته إلى سلبيات . وأصبح شعارا أكثر من عمل . وتوقفت اللغة العربية عن النمو ونافستها التركية فغلبت عليها العجمى . ولم يعد القرآن دستور المسلمين الحيوى بقدر ما كان كتابا يقرأ على القبور ويكتب بماء الذهب بحروف جميلة على ورق مصقول - وهو ما اشتهر به الأتراك . ونضب معين الفكر فلم يعد مجاله إلا المباحكات الكلامية حول المسائل الشكلية والموضوعات الفقهية الفرعية .

ويشير أحمد أمين فى مقدمة كتابه : "زعماء الإصلاح فى العصر الحديث" إلى مقدار ما وصل إليه الجهل والتخلف فى مصر والشام وتركيا فى أواخر القرن الثامن عشر على لسان سائح فرنسى زار مصر فى تلك الفترة وأقام بها وبالشام نحو أربع سنوات هو مسير فولنى Volney يقول : " إن الجهل فى هذه البلاد عام وشامل مثلها فى ذلك مثل سائر البلاد التركية يشمل الجهل كل طبقاتها ويتجلى فى كل جوانبها الثقافية من أدب وعلم وفن . والصناعات فيها فى أبسط حالاتها حتى إذا فسدت ساعتك لم تجد من يصلحها إلا أن أن يكون أجنبياً " .

ويمكن أن توصف الفترة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والسنوات الأولى من القرن العشرين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى بأنها كانت فترة من عدم الرضى عن واقع العالم الإسلامى وما آل إليه الحال من الإنحطاط . وفى هذه الفترة تعالت الدعوات بأنه لا صلاح لحال المسلمين إلا بتجديد الإسلام وإصلاح العقيدة والعودة إلى منابع الإسلام وأصوله . وظهرت فى العالم الإسلامى روح الجهاد الوطنى الدينى التى قادها العلماء المسلمون الوطنيون من أمثال " محمد بن عبد الوهاب " الذى يمثل أول صيحة لليقظة الإسلامية فى العصر الحديث . وكان طليعة الحركة السلفية التى كان لها دور هام فى التجديد الإسلامى بالعودة إلى أصول الدين الحنيف . وفى الربع الأخير من القرن التاسع عشر بدأ التيار القومى يظهر فى حركة قومية فى سوريا ولبنان على يد المسيحيين . ومن رواد هذه الحركة أنطون سعادة وميشيل عفلق وقسطنطين زريق . ومن المعروف أن الثقافة الفرنسية كانت الغالبة دائما فى لبنان وذلك لصلة المسيحيين بها لاسيما الموارنة بفرنسا منذ أيام الحروب الصليبية .

ولقد تميزت الفترة خلال الحكم التركى العثمانى بإتجاهات إيجابية وسلبية كان لها تأثير بعيد المدى على التطور الحضارى للبلاد العربية . فعلى الجانب

الإيجابى كانت هناك الدعوة إلى تجديد الإسلام وتصحيح العقيدة . وكانت هناك الدعوة الإصلاحية السلفية . وعلى الجانب السلبى كانت هناك دعوات التغريب والتشكيك الفكرى والدعوات الشعبوية وهو ما سنفصل الكلام عنه فى السطور الآتية .

أولا : الدعوة إلى تجديد الإسلام :

التجديد فى الإسلام ظاهرة دينية هامة لا يختص بها عصر دون عصر فقد ظهر عدد كبير من المجددين فى الإسلام على تاريخه الطويل . وكان القدماء من علماء المسلمين يعنون بالتجديد لأنه إحياء للسنة وإماتة للبدعة . وكانوا يعتبرون تجديد الخلفاء الجانب العملى فى إصلاح الحكم وتدبير أمور المسلمين ورعاية أحوالهم . وعدوا الخليفة الأموى عمر بن العزيز المجدد الأول فى الإسلام على رأس المائة سنة الأولى : وقد ألف بعض المسلمين كتبا عن التجديد والمجددين فى الإسلام منهم السيوطى عالم القرن العاشر الهجرى وكتابه " تحفة المهتمين فى بيان أسماء المجددين . وله كتاب منشور مخطوط منه نسخة فى دار الكتب المصرية بعنوان : التنبئة بمن يبعث الله على رأس كل مائة ، وحافظ بن حجر كتاب " الفوائد الحمة فيمن يجدد الدين لهذه الأمة .

ويعتبر المسلمون تجديد الدين منصبا هاما خطيرا لا يقل فى أهميته عن منصب الخلافة والإمامة العظمى . بل إن بعضهم يرفع المجددين إلى مرتبة تشبه النبوة . فهم كما يفهم السيوطى بمثابة أنبياء الزمان . وكانت طلائع حركة التجديد فى العالم الإسلامى فى العصر الحديث فيما قام به محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية من دعوة إصلاحية وسلفية لتجديد الدين والعودة به إلى منابعه الأصلية . وهناك أيضا جهود علماء المسلمين فى الهند وفى مصر قامت حركة قوية لتجديد الدين الإسلامى وبعث الأمة الإسلامية على يد جمال الدين الأفغانى وأتباعه من أمثال الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا : وقد امتد تأثير هذه الحركة التجديدية المباركة من مصر إلى بقية العالم الإسلامى شرقا وغربا .

ويلخص لنا الدكتور إبراهيم اللبان مبادئ التجديد عند علماء المسلمين فيقول (مجمع البحوث الإسلامية: التوجيه الإجتماعى فى الإسلام - ص٢٠٦) .

" ومهما يكن من شئ فقد إنتهى الأمر إلى وضع مبدأ أساسي من مبادئ التجديد الدينى . . هو اطراح التقليد والإعتراف بالعقل كمصدر من مصادر المعرفة فى المبادئ وغيرها وتقديم العقل على النقل عند التعارض مع التفويض فى شأن النص أو تأويله وما وصل إليه العقل البشرى من نتائج . ولكنه يجب أن ينضم إلى هذا أن الدين من موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد ما عساه أن يقع منه خلط أو خبط . . وهناك مبدأ آخر من مبادئ التجديد لا يقل عن المبدأ السابق فى أهميته وخطره وضرورته لتجديد شريعة المجتمع ونظمه . وذلك هو مبدأ الإجتهد . . وهو كما عرفه الفقهاء بذل الجهد لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية . فإن هذا مبدأ يجب أن يقوم جنبا إلى جنب مع مبدأ النظر والتفكير الكونى الحر ليتعاوننا على تجديد العقيدة والشرعة والشرعة معا " .

وهناك أيضا المجددون الذين يقفون من الدين والتراث الدينى موقف الناقد البصير . فهم يحللون ما انحدر إلينا من الأجيال السابقة وينظرون إليه بنظرة ناقدة فاحصة ويميزون بين الأصل منه والدخيل ثم يجمعون العناصر الأصيلة الصحيحة ويطالبون المسلمين بالحرص عليها والتمسك بها . كما يميزون العناصر الدخيلة والغريبة عن روح الإسلام ويطالبون الناس بالعزوف عنها والتخلص منها . وهذا ما كان يفعل عظماء المجددين فى الإسلام منهم الغزالي وابن تيمية وابن القيم الجوزية فى العصور الماضية ومنهم الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى السعودية والشيخ جمال الدين والشيخ محمد عبده وأتباعهما فى مصر فى العصر الحديث .

ثانيا : الدعوة الإصلاحية السلضية والتعليم :

شهدت البلاد العربية ابتداء من النصف الثانى من القرن الثامن عشر إنتفاضة ضد الجمود العثمانى والضعف والتخلف الذى سيطر على العالم الإسلامى . وقد إمتدت هذه الحركة خارج البلاد العربية . وكانت حركة إصلاحية تجديدية محافظة . فهى محافظة لأنها دعت إلى العودة إلى المصادر الأساسية للإسلام وهى القرآن الكريم والسنة . وتجديدية فى دعوتها لتجديد الإسلام وتصحيح العقيدة وتخليصها مما علق بها من أوهام وأباطيل تحول دون الفهم الصحيح للدين . كما دعت إلى فتح باب الإجتهد وإحياء الشخصية الإسلامية

علي أساس الإخاء الإسلامى وتوحيد الاتجاهات الإسلامية بين المسلمين وجعل اللغة العربية صالحة لأن تكون لسان العالم الإسلامى . وقد عرفت هذه الحركة بالسلفية أيضا لأنها تصدر عن السلف الصالح من أمثال ابن حنبل وابن تيمية وابن قيم الجوزية .

وجاءت أول خطوة فى هذه الحركة المباركة فى العصور الحديثة من قلب الجزيرة العربية بقيادة محمد بن عبد الوهاب من الحجاز سنة ١٧٦٨م . فكانت تعبيرا صادقا عن أصالة الإسلام . فمن هذه الأرض الطيبة بدأ . ومن هذه الأرض الطيبة أيضا قامت حركة تجديدية . وكانت حركة رائدة تمثلت بها الحركات الإصلاحية والإسلامية التى تلتها فى العالم الإسلامى ، كالحركة السنوسية فى ليبيا . والحركة المهديّة فى السودان ، والدعوة إلى الجامعة الإسلامية التى قادها جمال الدين الأفغانى ومن بعده تلميذه محمد عبده وتلميذ التلميذ الشيخ محمد رضا . وكانت هذه الحركة الإصلاحية بمشابهة المناخ الفكرى الذى قاد حركة النضال ضد الاستعمار فى الوطن العربى فيما بعد . ففى مصر قاد عمر مكرم الحركة الإسلامية الوطنية فى مصر ضد الفرنسيين وضد الوالى التركى خورشيد حتى عزله . وأعلن أن من حق الشعب عزل الحاكم إذا ظلم . وكانت دعوة جريئة تذكرنا بقوة وعظمة المسلمين الأوائل . وإلى جانب الحركة السنوسية فى ليبيا كان هناك عمر المختار الذى قاد مقاومة الاستعمار الإيطالى وعبد الحميد بن باديس الذى قاد مقاومة الإستعمار الفرنسى فى الجزائر . وكان هناك محمد عبدالله الشوكانى الداعية الإسلامى فى اليمن ، ومحمود شكرى الألوسى فى العراق . وخير الدين التونسي فى تونس . وقد إمتد صدى هذه الحركة خارج البلاد العربية إلى أصقاع أخرى فى البلاد الإسلامية منهم الزعيم " شامل " وحركته الثورية ضد سيطرة روسيا القيصرية فى القوقاز . ومازال لهيب هذه الثورة مشتعلًا حتى الآن وبخاصة فى الشيشان على الرغم من مرور عقود كثيرة عليها .

وكانت التربية والتعليم من أهم أساليب الحركة السلفية الإصلاحية فى تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها . فكان محمد عبد الوهاب يحارب الأمية فى سبيل نشر الدعوة . ويلزم أتباعه بتعليم القراءة والكتابة مهما كانت سنه ومهما كانت منزلته حتى الأمراء كانوا يقرأون مثل بقية الناس . فصار منهم العلماء المعلمون أمثال الإمام الأمير سعود الكبير الذى كان يلقي دروسا فى التوحيد إلى

جانب أعمال الإمارة . وكانت طريقته فى التعليم تقوم على ما ذكره فى إحدى رسائله إذ يقول : " . . أعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع رسائل : الأولى العلم وهو معرفة الله ومعرفة نبيه ومعرفة دين الإسلام بالأدلة ، الثانية العمل به والثالثة الدعوة إليه والرابعة الصبر على الأذى فيه . . " وقد ساند هذه الدعوة الوهابية الإصلاحية الأمراء السعوديون . ثم جاء الملك عبد العزيز آل سعود فوحد البلاد وأنشأ المملكة العربية السعودية ، وأقام أسسها على تعاليم الإسلام والدعوة إلى العدل والسلام .

وفى ليبيا كانت الحركة السنوسية تركز نشاطها التربوى فى الزوايا التى كانت تنشئها لا سيما فى برقة . وكانت الزوايا تعتبر معهد علم ومركز إصلاح ومحكمة للتقاضى وفض الخصومات ومدرسة لتحفيظ القرآن الكريم وتربية الرجال وإعداد الدعاة وحماة البلاد من غارات الأعداء . وكانت كل زاوية تضم مسجداً للصلاة ومدرسة قرآنية . وكان يلحق بها مضييفة خاصة لإستقبال الضيوف والقيام بواجب الضيافة طيلة ثلاثة أيام كما جرى به العرف عند العرب من أهل البلاد . وقد إنتشرت الزوايا فى كل أنحاء ليبيا حتى أصبح لكل قبيلة زاوية أو أكثر يرسلون إليها أولادهم لحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ العلوم الدينية واللغوية . وكان المتفوقون منهم يواصلون الدراسة العالية " بالزاوية البيضاء " وهى الزوايا التى كانت تعتبر بمثابة المركز الرئيسى للزوايا . إلا أن هذه الزاوية أسلمت زعامتها فيما بعد إلى زاوية " الجغبوب " التى أنشئت سنة ١٨٥٦م . وسميت بذلك الإسم نسبة إلى مدينة " الجغبوب " على الحدود الشرقية لليبيا مع مصر .

وكان جمال الدين الأفغانى رائد الجامعة الإسلامية وروحها الدافق وكان مدرسة تربوية تخرج فيها قادة الإصلاح . كما كانت خطبه ذات أثر كبير على الجماهير . لقد كان داعية إلى التحرر من الظلم والإستبداد . وكانت كلماته مؤثرة فى أعماق القلوب فى النفوس وكان لخطبه وكتاباتة أثر كبير فى اليقظة الفكرية الإسلامية . وحمل الدعوة من بعده تلميذه الشيخ الإمام محمد عبده . وجاهد فى سبيلها فى مصر وفى سوريا وفى لبنان وتونس والجزائر وفى كل مكان ذهب إليه . وكان يرى أن الطريق الوحيد للنهضة والتجديد فى العالم الإسلامى هو التربية . وفى ذلك يقول " إننى أدعو إلى التربية لأننى عرفت أية ثمرة

تجنيها الأمم من غراس تفرسه وتقوم على تنميته السنين الطوال . . " .
سار فى هذا الطريق الذى رسمه محمد عبده المسلمون فى المغرب العربى منهم
عبد الحميد بن باديس فى الجزائر . فقد أنشأ من خلال جمعية العلماء المسلمين
التي تزعمها حوالى ٣٠٠ مدرسة حفظت اللغة العربية والإسلام فى الجزائر .
ووصل الصدى إلى الأضقاع البعيدة فى الهند . فنجد هناك أحمد خان ينشئ
جامعة " عليكرة " فى الهند ، و " شلبى النعمانى " أنشأ ندوة العلماء فى " لكتو
" بالهند أيضا . ومن روادها أيضا أبو الحسن الندوى العالم الإسلامى المعروف .
وقد إتجهت ندوة العلماء فى نفس الطريق . فقامت بإنشاء مدرسة كبرى للعلوم
فى مدينة " لكتو " كان عملها الأساسى هو " نشر المعارف وإعادة مجد اللغة
لعربية فى بلاد الهند . " وكان سيد أمير على ومحمد إقبال فى مقدمة الدعاة
الذين آمنوا بأن التربية والثقافة هى الوسيلة الأساسية لإزالة آثار التخلف
الإسلامى .

ثالثا : دعوات التغريب والتشكيك الفكرى :

شهدت هذه الفترة دعوات وحركات مختلفة نشطة للتغريب والتضليل
والتشكيك الفكرى فى الإسلام ومحاربة اللغة العربية وهى الدعامة الأساسية
للدين . من هذه الحركات حركة التبشير والحركة الصهيونية والدعوة إلى العامية
بدل الفصحى واستخدام الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية وسنفضل الكلام عن
كل واحدة فى السطور التالية :

١- الحركة التبشيرية ونشاطها التريوى :

كانت الحركة التبشيرية التى شهدها العالم العربى فى ظل الحكم التركى
العثمانى صورة أخرى للحروب الصليبية إنتقلت فيها المعركة إلى داخل الوطن
العربى الإسلامى نفسه . وقد إرتبطت هذه الحركة بنشاط المبشرين من الأوربيين
والأمريكيين فى القرن التاسع عشر فى مصر والشام وما قاموا به من إنشاء
المدارس والمستشفيات لخدمة أغراضهم . وقد أصبح التبشير حركة عالمية منذ سنة
١٨٣٠م عندما أقره الباباوات ورسموا خطته ورصدت له الدول الأوربية الأموال
الضخمة للإتفاق عليه . وقد سار العمل التبشيرى فى طريقين :

أ- طريق الإحتلال العسكرى : وليس من قبيل الصدفة أن تقوم فرنسا

باحتلال الجزائر فى نفس السنة التى أصبح فيها التبشير حركة عالمية .

ب- طريق العمل التربوى : وكان تأثيره أقوى مضاء من السيف . وقد عملت الحركة التبشيرية على ترويج الأفكار التى تخدم مصالحها وفى مقدمتها التشكيك فى القيم العربية الإسلامية وفى التاريخ الإسلامى وفى فضل العرب والمسلمين على الحضارة العالمية . وقد تغذت فى نشر أفكارها على الشبهات والمزاعم التى أثارها المستشرقون . وقد إهتمت حركة التبشير بإنشاء مدارس رياض الأطفال ومدارس البنات خاصة ليسهل التأثير على عقول النشء . وقد عبرت عن هذا أحسن تعبير إحدى المبشرات فى كلامها عن مدرسة تبشيرية للبنات بالقاهرة عندما قالت : " . . . فى هذه المدارس بنات الباشوات والبكوات . وليس هناك مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ التبشيرى . وليس هناك طريق إلى حصن الإسلام أقصر مسافة من هذه المدرسة . . . " . وقد عبرت بصراحة عن هذا الهدف القرارات التى إتخذتها مؤتمرات التبشير العالمية التى عقدت فى العواصم الإسلامية والأوربية فى النصف الأول من القرن العشرين . فقد ورد فى هذه القرارات فيما يتعلق بالتربية والتعليم ما نصه : " . . . يجب أن يكون العمل فى كل ميدان موجها نحو النشء الصغير من المسلمين . ويجب أن يقدم هذا العمل على كل عمل عداه فى الأقطار الإسلامية . ذلك أن بزوغ روح الإسلام فى النشء الحديث يبدأ فى فترة مبكرة من عمره . ومن ثم يجب أن يؤتى بالنشء الصغير من المسلمين قبل أن يتكامل نمو عقلهم . ويتم إبعادهم عن القوالب الإسلامية فتتسو عقليتهم وأخلاقهم . إن التعليم التبشيرى ما يزال أفضل طريقة للوصول إلى المسلمين . . . " . ومن الإشارات ذات المغزى عن دور الإستعمار فى مناهج التربية فى العالم الإسلامى إشارة تقول : " إن السياسة الإستعمارية لما قبضت على برامج التعليم فى المدارس الابتدائية حذفت منها القرآن ثم تاريخ الإسلام . . . وبذلك أخرجت ناشئة لا هى مسلمة ولا هى مسيحية ولا هى يهودية . ناشئة مضطربة مادية الأغراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا . فلا للدين كرامة . . . ولا للوطن حرمة . . . " . وإلى جانب المدارس إهتمت الحركة التبشيرية بإنشاء المستشفيات لعلاج الطبقة الفقيرة وتقديم المساعدات الإجتماعية لهم بهدف التأثير على نفوسهم وأفكارهم . وكانت مالطه أول مركز للبعثات التبشيرية فى الشرق الأوسط منذ مطلع القرن

التاسع عشر الميلادي ومن المعروف أن جماعة " فرسان القديس يوحنا " وهي جماعة صليبية أرغمت على الرحيل إلى فلسطين بعد انهزام الصليبيين هناك فاتخذت من مالطه مركز قرصنه لها . ولكن نابليون بوناپرت فى حملته على مصر استولى وهو فى طريقه على جزيرة مالطة وقضى على قوة هذه الجماعة فتحولت إلى جماعة خيرية تبشيرية ورحل بعضهم إلى أوروبا وشكلوا الجمعيات الخيرية التى أخذت صورة التبشير الدينى بديلا للعمل العسكرى . وارتبطت جهودهم التبشيرية بمشروعاتهم الخيرية فى مجال التعليم والعلاج الطبى وإنشاء المستشفيات وتقديم الخدمات الاجتماعية للفقراء والمحتاجين .

وكانت بيروت ثانى مركز . وفيه تركزت الحركة التبشيرية وأنشأت بها جماعة " الجيزويت " الكلية السريانية الانجيلية (الجامعة الامريكية) سنة ١٨٦٦ م التى لعبت دورا تربويا بارزا . فقد خرجت منذ نشأتها الآلاف ومنهم الكثيرون الذين تولوا مراكز القيادة فى البلاد . وكان منهم رؤساء الوزارات والأساتذة ورجال الفكر والصحفيين والقضاة والأطباء ، وإلى جانب الكلية السريانية أنشئت كلية القديس يوسف (الكلية الفرنسية) سنة ١٨٧٣م . كما كان للجمعيات التبشيرية فى لبنان مدارسها الابتدائية والثانوية .

وكان إنشاء جمعية المقاصد الإسلامية التى تأسست فى بيروت بأوقافها الخاصة من أراض وعقارات فى عهد مدحت باشا الوالى التركى رد فعل للمدارس التبشيرية . إذ كان الغرض من إنشائها تهيئة السبيل لإنشاء مجالس إسلامية تعنى بشئون التعليم الخاص بالطائفة الإسلامية على غرار المجالس المحلية التى تتعهد شئون التعليم لدى الطوائف المسيحية . وكانت مصر تقوم بتزويد هذه المدارس بالمدرسين والكتب . وفى سوريا وجدت الجمعية العلمية السورية التى أنشئت سنة ١٨٤٧م بتوجيه وحماية المبشرين الأمريكين وحملت لواء الدعوة إلى القومية العربية لتفت فى عضد الإسلام .

وكان فى المغرب مدارس أنشأها الإرساليات اليهودية والمسيحية منذ أوائل القرن التاسع عشر . ووجدت المدارس التبشيرية فى السودان فى النصف الأول من القرن العشرين . وقد جاهر " غوردون " البريطانى بضرورة تنصير السودان . ووجدت المدارس التبشيرية فى إستانبول فى قلب الدولة العثمانية نفسها . ذلك أن السياسة الداخلية للدولة العثمانية منحت الطوائف الدينية من غير المسلمين

إمميزات خاصة فى كل ما يتعلق بالشئون الدينية . وإعتبرت شئون التعليم من الأمور المرتبطة بالأديان فحولت الطوائف المسيحية والإسرائيلية حق تأسيس المدارس وإدارتها . وهذا يفسر إنتشار التعليم العربى الحديث بين المسيحيين واليهود أكثر من المسلمين . وليس بغريب إذن أن يكون قادة الفكر والأدب والفن فى العصور الحديثة من المسيحيين واليهود . وواضح أن ذلك لا يرجع إلى أن الإسلام يحارب العلم والتعليم كما رده بعض المغرضين . منهم هيوارث دن اليهودى الذى أسلم ليتزوج بمصرية مسلمة ، وصاحب كتاب " مقدمة لتاريخ التعليم فى مصر الحديثة" * . وكانت فرنسا أنشط الدول الأجنبية فى التبشير لأنها إعتبرت نفسها حامية الكاثوليك . كما إعتبرت روسيا القيصرية نفسها حامية الطائفة الأرثوذكسية . وأسست لها مدارس فى الشام . وكانت الإرساليات الإنجليزية والأمريكية من أغنى الإرساليات وأنشطها . كما كانت هناك مدارس أنشأتها الإرساليات الألمانية والإيطالية والأيرلندية والداثرمركية .

وفى مصر وجدت الحركة التبشيرية لها مجالا خصبا فى ميدان التربية فى القرن التاسع عشر . ففى سنة ١٨٤٠م أنشأت الجمعية الإنجليزية البروتستانتية مدارس لها . وتبعتها الفرير والإرسالية الأمريكية البروتستانتية وتبعهم بعد ذلك الآباء " الجيزويت " . وحتى سنة ١٨٧١م كانت توجد ١٦٠ مدرسة أجنبية تضم ٥٥٩١ تلميذا . ولم تكن هناك أى قيود على هذه المدارس . بل الأغرب من هذا أن هذه المدارس كانت تلقى التشجيع الأدهى والمادى من الحكام المصريين . فكانت تقدم الهبات وتمنع الأراضى وكميات سنوية من القمح . وتدفع لها أجور ومرتبات معلمى اللغة العربية . وتقدم لها مجانا الكتب الدراسية . ومساعدات مالية سنوية أيضا .

٢- الحركة الصهيونية :

شهد العالم الإسلامى فى العصور الحديثة أكبر مؤامرة تدبره ضده وتعتبر إمتدادا للحروب الصليبية التى إنتهت بالنصر للمسلمين . وإذا كانت الحركة التبشيرية صورة للحروب الصليبية إنتقلت فيها المعركة إلى قلب الوطن العربى

* Heyworth Dunn , T . (1938) : An Introduction To The History of Education in Modern Egypt . Luzac and Co. London .

الإسلامي ، فإن الصهيونية صورة أخرى للحروب الصليبية إستهدفت إيجاد جسم غريب دائم يعمل على إستنزاف طاقات العالم العربي الإسلامي ويشنت جهوده ويحول دون تقدمه . وقد عملت الحركة الصهيونية منذ نشأتها على يد هرتزل سنة ١٨٩٧م على تزييف حقائق الإسلام وتشويهها في كل الموسوعات التاريخية والثقافية في الغرب . كما شوهدت الصورة العربية في أعين الأوربيين وغيرهم . وإنتهى الأمر بالصهيونية إلى خلق كيان لها في الوطن العربي . ووجود هذا الكيان يفرض على البلاد العربية تحديا حضاريا خطيرا تلعب التربية والتعليم الدور الرئيسي في تحديد النتيجة النهائية لها . فقد أثبت الصراع العربي الإسرائيلي أن العبرة ليست بكم البشر ، وأن على الدول العربية أن تأخذ بالأسلوب الحضاري الشامل إذا كان عليها أن تثبت وجودها أمام هذا التحدي الخطير . إن المسلمين لا يعادون اليهود كأصحاب دين ، وإنما يعادون الصهاينة كأصحاب مذهب يقوم على اغتصاب أرض فلسطين وتحقيق حلمهم الكبير في إنشاء دولة تمتد من الفرات إلى النيل . ومع أن كل صهيوني هو يهودي فإن كل يهودي ليس بالضرورة صهيونيا .

٢- الدعوة إلى العامية واستخدام الحروف اللاتينية :

بدأت الدعوة إلى العامية بدل الفصحى تظهر على السطح في مصر في يناير سنة ١٨٩٣م عندما ألقى المهندس الإنجليزي " وليم ويلكوكس " محاضرة في نادى الأزيكية كان موضوعها : " لماذا لا توجد قوة الإبتكار أو الإختراع لدى المصريين ؟ " . زعم فيها أن قوة الإبتكار تأتي من قوة الفكر التي يرثها الفرد عن أبيه ، ومن قوة الخيال التي يرثها عن أمه . وقال إن أهم عائق يمنع المصريين من الإبتكار أنهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى . ولو أنهم ألفوا وكتبوا باللغة العامية لصاروا مبتكرين . واستدل على ذلك بأن الإنجليزي لم يكونوا مبتكرين عندما كانوا يؤلفون باللاتينية . فلما إختاروا لغة الفلاحين الإنجليزي وكتبوا بها صاروا مبتكرين . وضرب مثلا بشكسبير ويكون . وكان ويلكوكس من أشد أعداء اللغة الفصحى وبذل غاية جهده لمحاربتها والقضاء عليها . وقد مكنته ظروفه من أن تنول إليه في أواخر ١٨٩٢ مجلة الأزهر التي كان يحررها إبراهيم بك مصطفى والدكتور حسن بك رفقي وإتخذها منبرا يتهم فيه على القرآن (عمر الدسوقي : ج٢ ص٤٠) . وقد قام بترجمة الإنجيل إلى

اللغة العامية المصرية . كما ألف كتباً بالعامية المصرية أيضا . وكان يوزعها مجاناً على الناس . وللأسف أن الدعوى إلى العامية رغم ما فيها من شر مستطير لا يخفى على العيان ، فإنها قد وجدت آذانا صاغية تستجيب لها . وقد ردد سلامة موسى في مجلة الهلال دعوة " ويلكوكس " إلى العامية . وأثنى على ويلكوكس كأحد الإنجليز المخلصين لمصر شغل بها كثيرا حتى أصبحت همومه مصرية أكثر منها إنجليزية .

فى سنة ١٩٠١ أصدر ويلمور Wilmore أخذ قضاة مصر الأجانب كتاباً بالإنجليزية عن العامية المصرية The Spoken Arabic of Egypt ، نشر في لندن نصح فيه المصريين بهجر اللغة الفصحى وإتخاذ العامية أداة للتعبير والكتابة . وقد أثار هذا الكتاب ضجة فى الصحف المصرية وتصدى أكثر من كاتب للرد عليه . وكانت مجلة الهلال ميدان هذه الردود وقد أيدت اللغة العربية ودافعت عنها .

كما جاء اسكندر معلوف من سوريا وحاول أن يوهم الجمهور المصرى بأن أهم أسباب تأخره فى الحقيقة هو تمسكه باللغة الفصحى . وعجب من تمسك المصريين بها مع أن الفرس والهنود والأتراك مسلمون وهم لا يستخدمون العربية . وناشد الصحف والمجلات أن تكتب بالعامية وتترك الفصحى يلى ذلك تدوين العلوم والآداب بالعامية (المرجع السابق) .

وقد أثار هذه الحملة الجائرة ضد اللغة الفصحى سخط الأدباء والكتاب ورجال الوطنية المصرية فقابلوها بحملة أشد منها . من هؤلاء محمد المولى صاحب حديث عيسى بن هشام . وألفت جمعيات من أدباء مصر لنشر الفصحى والذود عنها ومقاومة اللغة العامية وطغيانها . ولقد أسهم الشعراء فى هذه المعركة فقال شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة عن اللغة العربية سنة ١٩٠٣ مرددا فيها شتى الحجج التى يدافع فيها أنصار الفصحى ومشيرا إلى حملات الإنجليز عليها وقد قالها علي لسان اللغة الفصحى يقول فيها :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى . . . وناديت قومى فاحتسبت حياتى
رمونى بعقم فى الشباب وليتنى . . . عقلت فلم أجزع لقول عداتى
وسعت كتاب الله لفظا وغاية . . . وما ضقت عن أى به وعظمت
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة . . . وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر فى أحشائه الدر كامن . . . فهل سألوا الغواص عن صدقاتى

أبظر بكم من جانب الغرب ناعب . . . ينادى بواد فى ربيع حياتى
أيهجرنى قومى عفا الله عنهم . . . إلى لغة لم تتصل برواة
سرت لونة الإفرنج فيها كما سرى . . . لعاب الأفعاى فى مسيل فرات

وينبغى أن نشير إلى أنه عندما تولى سعد زغلول نظارة المعارف سنة ١٩٠٧
تقدم الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ومحمود باشا سليمان وأمين باشا الشمسي
باقترح فى الجمعية التشريعية يطلبون فيه إرجاع اللغة العربية فى المدارس
وإبطال التعليم باللغة الإنجليزية . وقد ابتدئ بالفعل من سنة ١٩٠٨ فى تحويل
التعليم باللغة العربية فى المدارس الابتدائية . ولم يأت عام ١٩١٢ حتى صار
التدريس فى جميع المدارس الابتدائية باللغة العربية (المرجع السابق) .

وكانت الدعوى إلى العامية رد فعل للشبهات التى أثيرت حول قدرة اللغة
الفصحى على الوفاء بمتطلبات العصر من ناحية وأنها لغة لا تستخدم فى
التخاطب من ناحية أخرى . كما كانت أيضا هناك دعوة أخرى مفرضة ترمى إلى
إحلال الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية . وهى دعوى سلمت منها البلاد
العربية الإسلامية ، وأثبتت أنها قادرة على تحدى كل محاولات التغريب
والتشكيك .

وللأسف أن الدعوة إلى استخدام الحروف اللاتينية قد وجدت من أبناء
العربية من يناصرها . فهذا عبد العزيز باشا فهمى أحد شيوخ مجمع اللغة
العربية يقدم إلى المجمع فى أوائل شهر مايو سنة ١٩٤٣م إقتراحا بتيسير الكتابة
بالعربية عن طريق إستخدام الحروف اللاتينية بدل العربية . وكتب " أنيس
فريحة" أستاذ اللغة العربية فى الجامعة الأمريكية ببيروت يقول : " يطالب بعض
الناس بتبنى الحرف اللاتينى تسهيدا للقراءة وتخفيفا لنفقات الطباعة . ونحن من
المؤمنين بهذه النظرية ولا نرى حلا للكتابة إلا بتبنى الحرف اللاتينى . وضبط
الكلمات فيه مرة واحدة " . وكان دعاة إستخدام الحروف اللاتينية هم دعاة
إستخدام العامية بدل الفصحى . وفى ذلك يقول " أنيس فريحة " : " . . إن
الفصحى ليست لغة الكلام فلا يرجى منها أن تعبر عن الحياة بحلاوتها ومرارتها
وقسوتها ولينها كما تستطيع العامية . والدليل ظاهر فإنك لا تستطيع أن تقول
بالفصحى ما تقوله بالعامية . وإذا نقلته إلى الفصحى أتى قاسيا جافا خلوا من
العنصر الإنسانى اللصيق باللغة . . . " .

إن من الغريب أن يأتي هدم الفصحى من أناس تصدوا لخدمتها والعمل على رفعتها . ويبدو أن هذه الدعوة إختلطت بدعوات أخرى منها : تبسيط اللغة العربية من حيث قواعدها وأسلوب كتابتها دون هجرها إلى غيرها والإرتقاء باللغة العامية لتقترب من الأدبية الفصحى وتجديد الأدب العربى . وقضية تعريب الكلمات الأجنبية بالعربية . وقد سلمت اللغة العربية فى مصر ومعها العالم العربى كله من هذه الدعوة المغرضة وإن كانت للأسف قد نجحت فى مناطق أخرى من العالم الإسلامى . فقد حلت الحروف الروسية محل الحروف العربية فى اللغة التاجيكية والأوزبكية وداغستان وبلاد القوقاز فى الإتحاد السوفيتى فى العشرينات من هذا القرن بعد سيطرة الشيوعيين على البلاد . وفى نفس الفترة تقريبا أى عام ١٩٢٨م حلت الحروف اللاتينية محل الحروف العربية فى اللغة التركية . وبهذا إنقطعت تركيا عن ماضيها وتراثها العظيم . وأصبحت كالغرب الذى دهن نفسه باللون الأبيض لا هو إلى فصيلة الغربان إنتسمى ولا هو إلى فصيلة البجع إنتسمى .

رابعاً : ظهور الدعوات الشعبية :

كان من أهم الملامح السلبية التى ظهرت فى البلاد العربية فى ظل الحكم التركى العثمانى فى القرن التاسع عشر الدعوات الشعبية المختلفة . وكانت هذه الدعوات غريبة عن روح الإسلام فلا شعبية فى الإسلام . وقد ظل طيلة ثلاثة عشر قرناً من الزمان سابقة لهذه الفترة يدعو إلى الأخوة البشرية والمساواة الإنسانية . من هذه الدعوات الشعبية الدعوى الطورانية أو الجامعة التركية التى كانت ترمى إلى سلخ تركيا عن الإسلام وبعث حضارتها الجاهلية القديمة . لأن الإسلام فى نظرهم لا يصلح لشأنهم . ودعت إلى الدعوة إلى أسلافهم الطورانيين . فكعبتهم " طوران " ومثلهم الأعلى جنكيز خان وأمجادهم فتوحات المغول . وكان شعارهم إهمال الجامعة الإسلامية التى دعا إليها الأفغانى إلا إذا كانت خادمة للدعوى الطورانية . وهذا يعنى أنهم أترك أولاً ومسلمون ثانياً . كما ظهر حزب تركيا الفتاة فى نفس الإتجاه . وظهرت القومية فى فارس أيضاً . وأخذ كثير من الفرس يباحثون عن دين فارس القديم كالزردشتية أو المانوية أو المزدكية وغيرها . وظهرت أيضاً الدعوات الإقليمية الانفصالية كالدعوة إلى مصر الفرعونية ولبنان الفينيقية والعراق الآشورية . وفى المغرب كانت الدعوة إلى الإنتماء إلى الأصول العرقية للبربر .

وهذه الدعوات كانت خطيرة على العالم الإسلامى وعملت على بلبلة الأفكار وتفتيت الوحدة الإسلامية . كما ساعدت على تعميق التناقضات الفكرية والثقافية فى البلاد العربية . وكان من أخطر القضايا التى عرفها العالم العربى آنذاك أيضا الدعوة إلى القومية العربية .

بين العروية والإسلام :

إن الدعوى إلى القومية العربية غريبة عن روح الإسلام . لأن الإسلام كما هو معروف لا يعرف الشعبوية ولا التعصب العرقى . وقد جاء للناس كافة دون تمييز فى الجنس أو اللون أو الغنى أو الفقر . وجاء ليقرر أن الناس كأسنان المشط فى المساواة . ولا فضل لعربى إلا بالتقوى وصالح العمل . ومن المعروف تاريخيا أن الدعوى إلى القومية العربية لم تعرف طريقها إلى العرب إلا خلال القرن الماضى . وكان ذلك تحت تأثير عاملين رئيسيين .

أولاهما : سياسة التمييز الدينى التى إتبعتها الخلافة التركية الإسلامية بين العرب والمسلمين . وبناء على هذه السياسة عاملت تركيا غير المسلمين معاملة الأقليات الأجنبية . وعلى الرغم من الإعتراض الذى يمكن أن يوجه لهذه السياسة فإن المسيحيين العرب تمتعوا بميزات لم يكن يحظى بها إخوانهم من المسلمين العرب . منها حقهم فى إنشاء المدارس الخاصة بهم التى كانت تعلم باللغة العربية . هذا فى حين أن المسلمين العرب كانوا تائهين فى ظل النظام التركى الذى فرض اللغة التركية لغة للتعليم . وكانت تدرس العربية كلغة أجنبية هامشية . ومن هنا يمكن أن نفهم السر فى كون كثير من حملة مشعل الثقافة العربية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر من غير المسلمين العرب كما أشرنا . وقد ساعد ذلك من ناحية أخرى على تأجج الشعور القومى لدى المسيحيين العرب ، وأخذوا يبحثون عن الرباط الذى يربطهم بهذا الوطن الذى نبتوا على أرضه وبين أحضانه ترعرعوا ولكنهم يعاملون فيه من قبل تركيا معاملة الغرباء . وقد جاءتهم الإجابة من أوروبا التى كانت تعيش فى ذلك الوقت فترة تعرف فى تاريخ تكوين أوروبا بتكوين القوميات . وكان لهذه السياسة آثار تربوية بعيدة المدى على العالم العربى الإسلامى . وهو ما سنعرض له عند الكلام عن السياسة التربوية للدولة العثمانية .

ثانيهما : يتمثل فى حرب القوميات التى كانت تخوضها أوروبا فى القرن

التاسع وهو القرن الذى يلقب بقرن القوميات . فقد عمت أوروبا موجه من الشعور القومى الذى استند على أساس فكرة " هيجل " التى تقول بأن الدولة الحققة هى التى تتكون من قومية واحدة كما سبق أن أشرنا . ونظراً لأن الدول الأوروبية لم تكن قائمة على هذا الأساس وإنما على قوميات مجزأة بين دول مختلفة . فقد بدأت نيرات الحرب تضطرم بين هذه الدول من أجل تحقيق الفكرة القومية لها . وهكذا شهدت أوروبا صراعاً مريراً فى سبيل تشكيل قومياتها وتحقيق وحدتها القومية . وفى هذا الوقت الذى كان يحدث فيه هذا الصراع كان المسيحيون يبحثون عن سند حقيقى يستندون فيه لتبرير وجودهم لعربى .

وهكذا كانت فكرة القومية العربية فكرة خلافة بالنسبة لهم جذبتهم ببريقها وتحمسوا لها . وقد جاءتهم نتيجة إتصالهم بأوروبا من خلال الروابط الكنسية والدينية . وكان فى مقدمة النتائج التى ترتبت على ذلك التعريب الكنائس المسيحية العربية واستخدام اللغة العربية فى الصلوات والطقوس والترانيم الكنيسة . وهكذا دخلت فكرة القومية العربية إلى البلاد العربية فى القرن التاسع عشر فقط ، وعلى يد المسيحيين العرب . وقبل هذا القرن لم يكن لهذا المصلح وجود . بل إن شيوع إستخدامه فى العربية يرجع إلى هذا التاريخ الحديث .

ومن هنا أيضاً نكرر القول بأن فكرة القومية غريبة عن الثقافة العربية والإسلامية . وتعتبر فكراً دخيلاً عليها على الرغم من الترويج الكبير الذى تمحس له الكثيرون فى السنوات الأخيرة . وقد ترتب على ذلك وجود كثير من الدعاوى التى أحدثت البلبلة فى العقول واختلطت الأمور أمام أعين الكثيرين حتى المفكرين منهم لدرجة أننا نجد عالماً مسلماً كبيراً مثل ساطع الحصرى على ما له من أفضال علمية كبيرة يؤلف كتاباً بعنوان له معناه هو " العروبة أولاً " .

إن الإسلام ينبغى أن يفهم لا على أنه دين فحسب ، وإنما على أنه نظام حياة اجتماعية تشمل المسلمين والمسيحيين على السواء بإعتراف المنصفين من المسيحيين أنفسهم . يقول منيف الرزاز فى كتابه " معالم الحياة العربية الجديدة " إن المسيحيين العرب لم يكتسبوا صفتهم العربية إلا من خلال الإسلام ، فمن أين جاءهم اللسان العربى المبين الذى يتحدثون به ويكتبون ويؤلفون " . وعندما نقول اللسان فإننا نعنى بذلك ما يرتبط باللغة من فكر ومعان باعتبارها الوعاء الثقافى وليست مجرد كلمات أو وسيلة للإتصال . يضاف إلى ذلك أن التراث المسيحى نفسه جزء لا يتجزأ من تراث الإسلام .

وهكذا ينبغي أن نفهم الإسلام أنه ثقافة أمة تتكامل في جوانبها المختلفة وتقوم على أساسها على اللغة العربية . وهو بهذا ينسحب على المسلمين وغيرهم من العرب على السواء طالما أنهم يعيشون على أرض وطن واحد يجمعهم إنتماء مسمى يربط بينهم . وسيظل للعرب في الإسلام نصيب ما بقي القرآن عربيا .

إن عدم وضوح الرؤية في التمييز بين العروبة والإسلام . يرجع إلى أن العالم الإسلامي ينقسم إلى عالمين : عالم ناطق بالعربية يمثل تمام إنصهار العروبة والإسلام معا ، وعالم غير ناطق بالعربية لم يتم له هذا الإنصهار . ولو أنه تم لما كان هناك تمييز بين العالمين . وهذا يشير إلى ما يجب عمله لتحقيق وحده العالم الإسلامي ، وهو تعميم اللغة العربية لتكون لغة جميع المسلمين في جميع البقاع في الشرق والغرب على السواء .

السياسة التعليمية التركية في البلاد العربية :

قامت السياسة التعليمية التي اتبعتها السلطات التركية العثمانية في البلاد العربية على أساس جعل اللغة التركية اللغة الرسمية في دواوين الحكومة ولغة التعليم في المدارس . وكان فرض اللغة التركية كلغة رسمية للحكومة ماثارا لشكوى الناس وسخطهم لتعطل أمورهم ومصالحهم بسبب جهلهم بهذه اللغة . ولهذا كان الضباط المتقاعدون في الجيش العثماني يقومون بتعليمها في المدارس القائمة في الولايات العربية الإسلامية . وكان التعليم في هذه الولايات تعليما دينيا تقليديا . وكان يتم في الكتاتيب والمساجد والزوايا أو المدارس التي أنشئت بالجهود الفردية وغيرها . وهذه المعاهد التعليمية كانت تقتصر على تعليم القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن الكريم وتعليم مبادئ الدين . أي أنها إقتصرت على العلوم النقلية وأهملت العلوم العقلية . ومن كان يريد إكمال تعليمه كان يرحل إلى الجامع الأزهر في مصر أو جامع الزيتونة في تونس . وفي العهد العثماني ظل التعليم التقليدي على حاله متروكا للجهود الأهلية والفردية والتطوعية . ولم يعط التعليم الحديث أى إهتمام من جانب العثمانيين لفترة طويلة حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر . بل وعندما بدأوا يظهرن نوعا من الإهتمام به استخدموه لخدمة أغراضهم العسكرية .

وكان للهزائم المتتالية للسلطنة العثمانية أمام الدول الأوروبية رد فعل كبير

على الإصلاحات التعليمية والأخذ بالتعليم الحديث . فقد كانت الرغبة فى بناء جيش حديث - على غرار الجيوش الأوربية - الدافع الرئيسى وراء إنشاء المدارس الحديثة فى السلطنة العثمانية . ولذلك نجد أن المعاهد التعليمية التى أنشئت فى بدء اليقظة الفكرية والسياسية فى الدولة العثمانية كانت كلها من نوع المدارس العسكرية المقتبسة من النظام الفرنسى . فقد كانت فرنسا آنذاك من أقوى الدول الأوربية . وكان الغرض الأساسى من إنشاء هذه المدارس تعليم الفنون العسكرية . وكان دخول العلوم الحديثة كالتاريخ والجغرافيا والعلوم الرياضية والطبيعية ضرورة استلزمها تعليم الفنون العسكرية فى المراحل التعليمية المختلفة . وكانت المراحل تتمثل فى المدارس الابتدائية وكان يدرس بها اللغة التركية والتاريخ التركى إلى جانب اللغة العربية والدين الإسلامى والجغرافيا والرياضيات . وكانت توجد المدارس الرشدية وهى مدارس حديثة أو عسكرية متوسطة مدتها ثلاث سنوات . وكانت اللغة التركية لغة التعليم بها وكان المعلمون من الأتراك غالبا، والمدارس العسكرية التى تقوم مقام المدارس الثانوية . وأخيرا المدارس العسكرية الاختصاصية التى تقوم مقام المدارس العالية، وكانت هذه المدارس العسكرية العالية موجودة فقط فى استانبول عاصمة الدولة العثمانية . أما المدارس الإعدادية والرشديه والعسكرية فقد كانت موجودة فى الولايات العربية تحت الإدارة العثمانية . وكان الطلاب يتمون الدراسة الرشدية والإعدادية فى مراكز الولايات التى ينتسبون إليها . وبعد ذلك ينتقلون إلى عاصمة الدولة لإتمام دراستهم العالية فى المعاهد القائمة فيها . وكانت الولايات العربية ترسل بعثات طلابية لمواصلة تعليمهم فى المدارس العسكرية العالية وكذلك للالتحاق بمدرسه العشائر التى كانت أيضا فى عاصمة السلطة فى إستنبول . وكان هدفها تعليم أبناء العشائر تعليما خاصا يؤهلهم لتولى بعض الخدمات العسكرية والمدنية .

وهناك نقطة أخرى هامة تتعلق بالسياسة التعليمية للدولة العثمانية فى البلاد العربية هى أن السياسة الداخلية للدولة العثمانية كما أشرنا منحت الطوائف الدينية من غير المسلمين إمتيازات خاصة فى كل ما يتعلق بالشئون الدينية . وقد إعتبرت الدولة العثمانية شئون التعليم من الأمور المرتبطة بالأديان والمذاهب فحولت جميع الطوائف المسيحية والإسرائيلية حق تأسيس المدارس

وإدارتها أيضا . وكانت هذه المدارس الطائفية فى بادئ الأمر من نوع المدارس الدينية . غير أنها تطورت بعد ذلك بسرعة وتحولت إلى معاهد تعليمية عصرية . وكانت هذه المدارس تسير على مناهج خاصة بها تختلف باختلاف أديان الجماعات ومذاهبها ، ولا تمت بأى صلة إلى مناهج المدارس الحكومية وإمجاتها . وكثيرا ما كانت تستلهم خططها ومناهجها من المدارس الأجنبية المؤسسة داخل البلاد العثمانية أو من البلاد الأجنبية نفسها . وكانت الحقوق الممنوحة لهذه الطوائف تشمل " لغة التعليم " بهذه المدارس أيضا . فكان يجوز لكل طائفة أن تعلم أبنائها بلغتها . وكان للمسيحيين واليهود العرب الحق فى أن يعملوا فى مدارسهم باللغة العربية .

وقد أدت هذه السياسة العثمانية إلى نتائج غريبة بالنسبة للبلاد العربية ، فقد ترتب عليها نشاط كبير فى إنشاء المدارس الطائفية الأجنبية . كما أدت إلى وجود مفارقات ثقافية بين العرب المسلمين وإخوانهم العرب المسيحيين . فقد إنحصرت الفرص التعليمية المتاحة أمام العرب المسلمين فى الكتاتيب والمدارس القديمة أو المدارس الرسمية التى كانت تعلم باللغة التركية . فى حين أن إخوانهم المسيحيين أسسوا مدارس خاصة بهم وجعلوا اللغة العربية لغة التعليم بها . ولهذا إنتشر التعليم العربى الحديث بين المسيحيين قبل المسلمين . ولهذا السبب أيضا كان معظم الكتاب والمؤلفين والخطباء الذين ظهوروا فى الولايات العربية فى العهد العثمانى مسيحيين بالرغم من قلة عدد هؤلاء بالنسبة إلى المسلمين . وهو ما سبق أن أشرنا إليه فى أماكن متفرقة . وقد لعبت المدارس الأجنبية دورا تأثيرا مائلا . فقد تأسست هذه المدارس فى أول الأمر على أيدي الإرساليات الدينية والجماعات التبشيرية . وكانت كل إرسالية من هذه الإرساليات تعتمد على دولة من الدول الأجنبية وتصبح بذلك واسطة لنشر لغة تلك الدولة بجانب تعليم العلوم المختلفة من جهة وتعليم اللغة العربية لإجتذاب العرب إليها من جهة أخرى .

وكانت فرنسا أنشط الدول الأجنبية فى هذا المضمار لأنها إعتبرت نفسها حامية الكاثوليك . كما كانت روسيا القيصرية حامية الأرثوذكس وأسست لها مدارس فى الشام وهو ما أشرنا إلى تفصيله فى الكلام عن الحركة التبشيرية . وقد أشرنا إلى أن اللغة التركية كانت اللغة الرسمية فى المدارس والدواوين فى البلاد العربية بإعترافها لغة أصحاب السلطان . وكانت اللغة العربية تعيش غريبة

فى وطنها . وكانت تدرس كلغة أجنبية حتى بلغت عليها العجمى . وقد إستمر نفوذ اللغة التركية حتى أخذت البلاد العربية فى الإستقلال عن الدولة العثمانية . وكانت مصر أسبق الدول العربية فى ذلك .

ومع ذلك ظل نفوذ اللغة التركية فيها قويا وإستمرت تدرس بإهتمام حتى سنة ١٨٨٨م عندما أصبحت لغة إضافية تدرس إختياريا لمن يرغب فى دراستها .

الحملة الفرنسية على مصر

كانت الحملة الفرنسية على مصر سنة ١٧٩٨م بمثابة ناقوس الخطر الذى نبه العالم العربى الإسلامى وفتح عينه على الفجوة الحضارية الخطيرة بين الشرق والغرب . كما أنها أيضا كانت نذيرا بما يتوعد العالم العربى الإسلامى فى مستقبله من وقوعه تحت سيطرة الإستعمار الفرنسى والإنجليزى وفرض التجزئة عليه . ولم تكن الحملة الفرنسية أول من أيقظ العالم العربى . فقبلها بعشرين عاما تقريبا علا صوت محمد بن عبد الوهاب فى الحجاز كما أشرنا . ويصرف النظر عما يقال من تقليل دور الحملة الفرنسية فى التجديد الثقافى فى مصر والشام فى العصور الحديثة ، فلا شك فى أنها كانت دافعا قويا لهذا التجديد . لقد كان المضمون التربوى للحملة الفرنسية مضمونا حضاريا وثقافيا . وكان لما قام به نابليون من إحلال اللغة العربية محل التركية ، والمصريين محل الأتراك والماليك فى الحكومة أكثر من مغزى .

كما أن نابليون أحضر معه ١٤٦ عالما فى مختلف التخصصات العلمية من رياضيات وهندسة وكيمياء وتعددين وجيولوجيا وميكانيكا وإقتصاد وتاريخ وفلك وجغرافيا . وكان منهم أيضا الفنانون والأدباء والمستشفون (أحمد عزت عبد الكريم وآخرين ص ٤٩) . كما أحضر أيضا مجموعة كاملة من الآلات الهندسية والرياضية ومعامل الطبيعة والكيمياء ومطبعة عربية وأفرنجية كاملة العدد . وكانت أول مطبعة تدخل مصر فلم تكن تعرف مصر الطباعة من قبل وبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر اشتراها محمد على فكانت نواة مطبعة بولاق التى تأسست عام ١٨٢٢م . وأصبحت فيما بعد أهم وأكبر مطبعة عربية فى الشرق والعالم كله . وكان لها تأثير كبير فى تبديد ظلام الجهل . (عمر الدسوقى : ح ١ ص ٤١) وقد انكب العلماء الفرنسيون على بحوثهم . ونشرت

خلاصة وأهم هذه البحوث فى كتاب " وصف مصر " Description de L'Egypte الذى نشر عام ١٨٢٠م . وقد درس هؤلاء العلماء كثيرا من موضوعات التاريخ المصرى والآثار المصرية القديمة وما عليها من نفوش . وقد مهد ذلك لحل رموز الكتابة الهيروغليفية بعد ذلك ببضع سنوات بعدما اكتشفت حجر رشيد عام ١٧٩٩م، وهو حجر من البازلت الأسود عليه نص مكتوب بثلاثة لغات هى اليونانية والهيروغليفية والديموطيقية . وهو موجود الآن فى المتحف البريطانى بلندن . وقد إستطاع العالم الفرنسى شمبليون عام ١٨٢١ من فك رموزه الهيروغليفية بحكم معرفته لليونانية .

وكان من نتائج الحملة الفرنسية أيضا إنشاء المجمع العلمى المصرى عام ١٧٩٨ على غرار المجمع العلمى الفرنسى وكان من بين أغراضه نشر المدنية وبعث العلوم والمعارف فى مصر . وقد عاد هذا المجمع على مصر بفوائد ثقافية وعلمية كثيرة يقول عمر الدسوقى (ح١: ص١٧-١٨) فى بيان أثر الحملة الفرنسية على مصر :

» وقد نظم نابليون شتون مصر الداخلية تنظيما حسنا . يشهد له بالنوع الإدارى فوق نبوغه الحربى على الرغم من قصر المدة التى أقامها بمصر (وهى ثلاث سنوات ما بين عام ١٧٩٨ حتى ١٨٠١) فأنشأ الدواوين والمدن الكبرى وانتخب لها أكفاء المصريين . واختار من بين المصريين المسيحيين رجال المالية والإدارة (وهو تقليد استمر سنوات طويلة بعد خروج الحملة الفرنسية) . بيد أن شراسة رجال الحملة واستهتارهم بالشعب المصرى ودينه وتقاليده ، وإنتهاكهم حرمان الأهالى جهارا ، ونهبهم القرى الآمنة وإفزاز أهلها وفرض الضرائب على الأوقاف التى كان يصرف ريعها على المساجد وطلاب العلم وفرضها كذلك على المنازل ، جعل كل قلوب المصريين تنفر من نابليون وإصلاحاته وعلمه . وتنظر إليه نظرة الغاصب المستبد . ولقد ثار المصريون فى أكتوبر سنة ١٧٩٨م فأخذوا ثورتهم فى قسوة عارمة وعنفة وغلظة وانتهك حرمة المساجد الإسلامية وعبثا حاول بعد ذلك أن يؤلف قلوبهم أو يستميلهم إلى المدنية الغربية وإن كلفوا بها بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر . واتخذوا ما وصفه لهم أساسا للإصلاح الداخلى" . ويقول فى ذلك المؤرخ الإنجليزى الجود Elgood : لقد ترك الإحتلال الفرنسى فى مصر أثرا لا يحى . فقد ظل المصريون يعجبون بنابليون بعد خروجه

من ديارهم . وظلت طرق الإدارة الفرنسية مهيمنة على حكومة مصر . وظلت عادات التفكير الفرنسية تسيطر على الطبقة المستنيرة بمصر . وإن ما خلفته الحملة الفرنسية فى مصر خلال ثلاثة أعوام لاغير لمن أضخم ما يتسنى إنجازه فى هذا الأمد الوجيز .

الإستعمار الأوروبى والبلاد العربية :

بذا الإستعمار الأوروبى للشرق بصورة منظمة مع حركة الكشف الجغرافية البرتغالية فى القرنين ١٤ - ١٥ م . وقد استطاع البرتغاليون بفضل تقدمهم فى الملاحة البحرية واكتشاف البوصلة والأسطراب أن يصلوا إلى خيرات الشرق الأقصى فى بلاد الهند وأن يؤسسوا هناك مستعمرات لهم . ولم تكن البلاد العربية بمنأى ومعزل عن هذه الحركة لاسيما ساحل عمان والخليج العربى والمدخل الجنوبي للبحر الأحمر وجنوب الساحل الشرق لإفريقيا . بل إن الإتهام يوجه إلى الملاح العربى المشهور أحمد بن ماجد على أن هو الذى مكن البرتغاليين من الوصول إلى بر الهند . فقد ساعدهم وعلى رأسهم فاسكودى جاما فى اجتياز الطرق البحرية الوعرة التى كانت تنكسر سفنهم عندها واستطاع أن يقود سفنهم بنجاح إلى أن وصلوا إلى كاليبكوت بالهند ويقول أحمد بن ماجد فى إحدى أراجيزه مؤرخا لهذا الحدث الهام بقوله * :

وجا لكاليبكوت خذ ذى الفائدة . . . فى عام تسعمائة وست زابذة
ويتحدث عن هلع المسلمين هناك لرؤيتهم المستعمر البرتغالى فيقول « .
وسار فيهما مبعوض الإسلام . . . والناس فى خوف وإهتمام

من ناحية أخرى نجد أن نمو الرأسمالية الغربية إلى الدرجة التى بدأت معها تبحث عن آفاق جديدة خارجية لإستثمار فائض الأموال الهائلة ، قد عمل على ظهور الاستعمار التجارى لبلاد الشرق . وتأسست شركات تجارية كبيرة من أولها وأهمها شركة الهند الشرقية البريطانية . وشهد القرن التاسع عشر نمواً كبيراً لحركة الإستعمار الرأسمالى الأوروبى ومن هنا يقال إن الإستعمار أعلى

* . . . مزيد من التفصيل حول هذا الموضوع ارجع نكتاب مترجم لنفس المؤلف بعنوان : ثلاث أزهار فى معرفة البحار لأحمد بن ماجد ملاح فاسكودى جاما . عالم الكتب ، القاهرة .

درجات الرأسمالية . وكان من الطبيعي لهذه الأموال المستثمرة فى الخارج من وجود نفوذ سياسى وعسكرى يحميها . ومن هنا بدأت السيطرة الإستعمارية على الشعوب فى صورتها السياسية والعسكرية . ولما كان تأمين طرق التجارة البحرية من أهم ما تفرص عليه الدول الحماية مصالحها فى الخارج ، ولما كانت بريطانيا أكبر قوة بحرية آنذاك ، لذلك اتجهت إلى السيطرة على المضائق المائية العالمية لكى تتحكم فى هذه الطرق . ولذلك سيطرت على مضيق جبل طارق وقناة السويس ومضيق باب المندب جنوب البحر الأحمر وغيرها . كما إعتمدت القوى الإستعمارية الكبرى فى مقدمتها بريطانيا على سياسة الأحلاف العسكرية فى الشرق ومن أهمها حلف جنوب شرق آسيا وحلف بغداد وغيرها وذلك من أجل حماية مصالحها وتدعيم نفوذها .

ولذلك كانت جنوب اليمن - وهي المدخل الجنوبي للبحر الأحمر - من أوائل المناطق العربية التى فرضت بريطانيا سلطانها عليه . وكان ذلك عام ١٨٣٩ من أجل تأمين طريقها إلى الهند ، وهي المستعمرة التى كانت توصف بأنها ذرة التاج البريطانى آنذاك ، ولم تحصل اليمن على إستقلالها من بريطانيا إلا عام ١٩٦٧ . وإحتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ حتى عام ١٩٢٢ وبعدها بعام صدر أول دستور مصرى (١٩٢٣) ونص على إلزامية التعليم ومجانيته . كما إحتلت السودان عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩٥٦ وكانت الكويت ترتبط بمعاهدة مع بريطانيا منذ مطلع عام ١٨٩٩م وفى عام ١٩٦١ عقدت إتفاقية جديدة ألغيت بمضاها الإتفاقية السابقة وحصلت الكويت على إستقلالها .

ومع قيام الحرب العالمية الأولى إحتلت الجيوش البريطانية البصرة بالعراق عام ١٩١٤ ثم بغداد عام ١٩١٧ والموصل عام ١٩١٨ وحصل العراق على إستقلاله المشروط عام ١٩٣٠ . وفى عام ١٩٥٨ قامت ثورة عسكرية أعلن على أثرها قيام الجمهورية العراقية . ووقعت ليبيا تحت الحكم الإيطالى فى الفترة من ١٩١١ حتى ١٩٤٣ عندما إنهزمت إيطاليا فى الحرب العالمية الثانية . وبعدها وقعت ليبيا تحت الإدارة البريطانية والفرنسية معا . فسيطرت بريطانيا على الجزء الأكبر من البلاد فى برقة وهي المنطقة الشرقية وطرابلس وسيطرت فرنسا على فزان وهي جزء صحراوى كان شبه مهجور . وفى ديسمبر ١٩٥١ أقرت الأمم المتحدة إستقلال ليبيا الموحدة . وفى عام ١٩٦٩ قامت ثورة الفاتح . وعندها بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ البلاد . ووقعت الأردن تحت الإنتداب البريطانى

عام ١٩٢٠ بموجب إتفاق سايكس بيكو Sykes Picot (نسبة إلى إسمي المندوب البريطاني والفرنسي) الذي تم بموجبه تقسيم إحتلال العالم العربي بين بريطانيا وفرنسا . وبموجب هذا الإتفاق فرض في نفس العام الإنتداب الفرنسي على كل من سوريا ولبنان. واستقلت سوريا عام ١٩٤١. واستقل لبنان عام ١٩٤٦. والواقع أن فرنسا كانت أسبق من بريطانيا في إحتلال العالم العربي . فقد إحتلت الجزائر عام ١٨٣٠ حتى ١٩٦٢ عندما إستقلت الجزائر عن فرنسا . وفرضت الحماية الفرنسية على تونس عام ١٨٨١م حتى ١٩٥٦ تاريخ إستقلالها . كما إحتلت فرنسا المغرب من عام ١٩١٢ حتى ١٩٥٦ عندما حصل المغرب على إستقلاله .

وهكذا تقاسم السيطرة على العالم العربي أكبر قوتين أوربيتين خرجتا منتصرتين من الحرب العالمية الثانية . وقد إستهدفت الإدارة الفرنسية في المناطق التي كانت تحكمها وتخضع لسيطرتها وهي الجزائر وتونس والمغرب وسوريا ولبنان فرنسة البلاد وتحويل شعوبها إلى فرنسيين في اللحم والدم والثقافة شأنهم شأن المواطنين الفرنسيين . أما الإدارة البريطانية فقد إستهدفت في المناطق التي تخضع لسلطانها فرض لغتها وثقافتها بدون تحويل سكان البلاد إلى مواطنين بريطانيين .

وعلى الرغم من هذا الإختلاف بين السياسة التعليمية البريطانية والفرنسية فقد كانت النتيجة النهائية واحدة . وهي وجود مشكلات تربوية وتعليمية ظل العالم العربي يعاني منها فترة طويلة ، وما زال يعاني من بعضها حتى الآن . وفي مقدمتها تعريب التعليم سواء بإعطائه طابعا عربيا أو بإحلال اللغة العربية كلفة تعليم محل لغة المستعمر . والواقع أن العالم العربي قد خطا خطوات كبيرة في هذا السبيل لاسيما على صعيد إعطاء التعليم العربي طابعه القومي في ظل الثقافة العربية الإسلامية إلا أنه مازال دون القصد فيما يتعلق بإستخدام اللغة العربية كلفة تعليم لاسيما في الجامعات وإن كانت بعض البلاد العربية قد حققت ذلك بالفعل . وللأسف الشديد حدث انتكاس في التعليم المصري في السنوات الأخيرة عندما حل تدريس الكيمياء والفيزياء في التعليم العام باللغة الإنجليزية بعد أن كانت تدرس بنجاح باللغة العربية . وأصبحت صيحة المطالبة بالإصلاح مزدوجة . فبعد أن كانت تطالب بتعريب تعليم العلوم الطبيعية في التعليم الجامعي أصبحت تطالب الآن أيضا بتعريب هذه العلوم في التعليم العام .

أعلام النهضة التربوية في الشرق العربي

سنحاول في السطور التالية أن نعرض لآراء بعض أعلام النهضة التربوية في الشرق العربي في العصور الحديثة وهم : رفاعة الطهطاوي ، وعلي مبارك ، والشيخ محمد عبده .

١ - رفاعه رافع الطهطاوي (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) :

ينتسب الطهطاوي من ناحية أبيه إلى الحسين بن فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام . وترجع تسميته بالطهطاوي إلى بلدته طهطا في صعيد مصر . وقد ولد بها عام ١٨٠١ م . ويؤخذ مما كتبه عن نفسه أن أجداده كانوا من ذوي اليسار لكن الدهر أخنى عليهم . وقد تهيات له في طفولته ثقافة أزرية حتى قبل أن يدخل الأزهر . إذ قرأ بعض المتون الأزرية على يد أخواله ومنهم بعض علماء الأزهر كالشيخ عبد الصمد الأنصاري والشيخ أبو الحسن الأنصاري والشيخ فراج الأنصاري . وعندما توفي والده قدم إلى الأزهر وانتظم في الدراسة به . ودرس على أيدي علمائه المشاهير من أمثال الشيخ حسن العطار العالم اللغوي والشاعر الكاتب الذي خص الطهطاوي بعنايته لما لمسه فيه من نبوغ . وكان الطهطاوي يتردد على منزله لينهل من علمه ويشترك معه في الإطلاع على الكتب العربية التي لم تتداولها أيدي علماء الأزهر .

ولما اكتمل تعليم الطهطاوي اشتغل بالتدريس في الأزهر . ثم سافر سنة ١٨٢٦م بتزكية من الشيخ حسن العطار مع البعثة التي أوفدت إلى فرنسا ليكون إماما لها . وهناك تعلم الفرنسية ودرس أصول الترجمة طيلة خمس سنوات . واشتغل بها بعد عودته إلى مصر . ولعل أهم حدث في حياته بعد عودته من البعثة هو نفيه إلى الخرطوم سنة ١٨٥٠م . ويقال إن لكتابه " تخلص الإبريز في أخبار باريز " صلة بنفيه . إذ أن الكتاب يحوي آراء وأفكار تحررية لاترضي حاكما مستبدا مثل الخديو عباس . وكان الكتاب قد طبع للمرة الثانية في أوائل عهده . لكن الطهطاوي يقول في تفسير سبب نفيه إنه سافر إلى السودان بسعى بعض الأمراء بضمير مستتر بوسيلة نظارة مدرسة الخرطوم . ويبدو من الأشعار التي نظمها أن الطهطاوي كان متألما لنفيه ويصور الأمر على أنه وشاية فيقول :

وما خلت العزيز يريد ذلي . . . ولا يصغى لأخصام لـداد

لديه سعوا بألسنة حداد . . . فكيف صغى لألسنة حداد
رحلت بصفقة المغبون عنها . . . وفضلي في سواها في المزاد
وما السودان قط مقام مثلي . . . ولا سلماي فيها ولا سعادي
قضى الطهطاوي في السودان أربعة أعوام كانت قاسية على نفسه لاغترابه
عن أسرته وأهله . وبعد عودته من السودان عين ناظرا لمدرسة الحربية بالقلعة
ومعها نظارة قلم الترجمة والمحاسبة والهندسة الملكية والتفتيش والعمارة . ثم
ألغيت المدرسة الحربية وقلم الترجمة وما معها . وعين عضوا في قومسيون
المدارس ووكيل إليه الإشراف على صحيفة " روضة المدارس " التي أنشأها على
مبارك سنة ١٨٧٠م . وكانت مجلة علمية أدبية اجتماعية .

كان الطهطاوي صديقا للمستشرق الفرنسي سلفسنردي ساسي ، وعنه أخذ
الاهتمام بإحياء الكتب القديمة . وكان للطهطاوي فضل كبير في حركة الترجمة
والنشر . فقد كان رائدا لها . وبفضل جهوده أنشئت مدرسة " الترجمة " سنة
١٨٣٥م والتي عرفت بمدرسة " الألسن " فيما بعد وصار ناظرا ومديرا لها . وقد
كتب الطهطاوي وترجم كثيرا وألف عدة كتب من أهمها :

١ - تخلص الإبريز في أخبار باريز : وهو كتاب مؤلف وصف فيه رحلته لباريس
منذ مغادته لمصر حتى عودته إليها . وقد وصف أحوال فرنسا وأخلاق
أهلها وعاداتهم وعلومهم وفنونهم وأساليب حكمهم ومعيشتهم .

٢ - مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية : وهي مجموعات
دراسات في الأدب والأخلاق . وقد وصف فيها مصر وحضارتها . كما
ضمت دراسات قيمة في الأدب من ثمار الكتب العربية والفرنسية
ودراسات في الأخلاق والمواعظ .

٣ - المرشد الأمين في تربية البنات والبنين : وهو كتاب طبع عام ١٨٧٢ وضمنه
آراء في الأخلاق وفي التربية والتعليم مما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد .
كما كان له الفضل في نشر العلوم والمعارف وحمل الحكومة على طبع طائفة
من أمهات الكتب العربية على نفقتها مثل : تفسير الفخري الرازي ومعاهد
التنصيص وخزانة الأدب ومقامات الحريري . وغير ذلك

آراؤه التربوية :

يعتبر الطهطاوي أول من نادى في مصر بتعليم المرأة وتشقيفها . وأول من كتب بتوسع عن التربية في العصور الحديثة في العالم العربي . وكان في كتاباته عنها متأثرا بما كتبه سابقوه عن التربية الإسلامية . وردد آراءهم . كما كان لدراسته في فرنسا وإقامته بها أثر واضح على آرائه . والتربية في نظره تعني تنمية الأعضاء الجسمية والعقلية . وهي طريقة تهذيب النوع البشري ذكرا كان أم أنثى ليتحصل له أسباب السعادة والسيادة .

تعميم التربية واجب :

يرى الطهطاوي ضرورة تعميم التربية وشمولها لجميع أبناء الأمة ذكورا وإناثا على السواء وفي ذلك يقول : « . . . وبالجملة فتربية أولاد الملة وصبيان الأمة وأطفال المملكة ذكورا وإناثا من أوجب الواجبات . (محمد عمارة : ج ٢ ص ٣٨٥) . ويضرب المثل بتربية أمة اليونان القديمة المشهورة بالحكمة في قديم الزمان والتي كانت تحسن تربية أبناء ملوكها غاية الإحسان . كما كانت تحسن تربية أطفالها وصغارها على القوة والشجاعة . ويشير إلى تربية الإسكندر الأكبر بقوله إنه « ترشح بتهذيب أستاذه أرسطو إلى ملك الدنيا وهزم في كل الممالك الملوك والعسكر . . . » . كما يشير إلى التربية الأوربية في مساواتها بين تربية الأولاد البنات وهو يشيد بالتربية عند العرب القداماء وعنايتهم بالتربية على الشجاعة والبطولة .

مراعاة ميول المعلم :

آمن الطهطاوي بضرورة مراعاة ميول المتعلم وتوجيهه وفق هذه الميول إلى دراسة العلوم التي تناسبه . وهذا التوجيه التعليمي يتأتى بعد أن ينتهي المتعلم من دراسة العلوم الابتدائية والتجهيزية (الثانوية) . وبعدها يظهر ميله إلى التخصصات التي تناسبه من الصنائع والفنون . وهو يحث أهل الخير على مساعدة من يخرج من مجال التعليم ببضاعة رابحة أو نبيل الوظائف الأهلية العمومية الكافية لمعاشهم وانتعاشهم .

أنواع التعليم :

تحدث الطهطاوي عن أنواع التعليم العام ومراتبه فقسّمها إلى ثلاثة أنواع :

تعليم أولي أو ابتدائي وتعليم ثانوي تجهيزي وتعليم عال كامل إنتهائي . أما التعليم الابتدائي والأولي : فهو في نظره تعليم عام لجميع الناس ينتفع به أبناء الأغنياء والفقراء على السواء ذكورهم وإناثهم . وهو " عبارة عن تعلم القراءة والكتابة ضمن تعليم القرآن الشريف والنحو ومبادئ الحساب والهندسة " وهو يعتبر " التعليم الأولي ضروريا لسائر الناس يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء " . وهي عبارة تردد صداها عند طه حسين فيما بعد عندما نادى بأن التعليم حق لكل إنسان كالماء والهواء .

أما التعليم الثانوي والتجهيزي : فهو يعتبره تعليما أكثر صعوبة من سابقه . ولذلك « فهو في الغالب لا يلتفت إلى البراعة فيه وينبغي للحكومة أن ترغب الأهالي وتشوقهم إليه نظرا لأهميته . فهو طريق تمدين جمهور الأمة وكسبها درجة الترقى في الحضارة وال عمران » .

وأنواع هذا التعليم كثيرة فيما ينبغي أن يشتغل به أبناء الأهالي . منها المهم فالأهم كالعلوم الرياضية بأنواعها والجغرافيا والتاريخ والمنطق والحيوان والنبات والمعادن والطبيعة والكيمياء وإدارة الملكية وفنون الزراعة وبعض الألسنة الأجنبية التي يعود نفعها على الدولة . وقد يبدو غريبا على رجل مثل الطهطاوي الذي يعرف قدر اللغات الأجنبية أن يضع تعليمها في آخر القائمة . وهو يرى أن يكون التعليم الثانوي كثيرا منتشرا بين أبناء الأهالي القابلين له الراغبين فيه . فيتاح لهم التعليم ليكونوا من الدرجة الوسطى . وهو بهذا ترك التعليم الثانوي اختيارا لمن أراد وكان قادرا على الاستفادة منه .

التعليم العالي : وهو يسميه درجة العلوم العالية . ويقصد به اشتغال الإنسان بعلم معين يتبحر فيه بعد تحصيله علوم المبادئ والتجهيزات (أي علوم الابتدائي والثانوي) . ويضرب أمثلة لذلك بعالم الفقه والطبيب والفلكي والجغرافي والمؤرخ . ويطالب الطهطاوي طالب هذا النوع من التعليم بأن « يجول في أصوله وفروعه غاية الجولان حتى يكون كالمجتهد فيه » . وهو يعتبره تعليما معدا لأرياب السياسات والرئاسات وأهل الحل والعقد والممالك والحكومات . ولذلك يذهب الطهطاوي إلى أن يقتصر هذا النوع من التعليم على أناس قلائل اشترط فيهم أن يكونوا من أصحاب الثروة واليسار . وهو أمر قد يبدو غريبا من الطهطاوي . إلا أنه يبرر ذلك بأن الغنى لا يضر بالبلاد لتفرغه للعلوم العالية .

ويستطرد قائلا « فمن الخطر على من له صناعة يتعيش منها وينتفع به الناس أن يترك هذه الصناعة ليدخل في دائرة معالي المعارف التي لاتصلح أن تكون له بضاعة . ولا ينبغي أن يرخص للتلاميذ المتعلمين العلوم الأولية والثانوية أن ينتظموا في سلك أرباب المعارف القصوى إذا كانت في حقهم قليلة الجدوى . وهذه العبارة الأخيرة للطهطاوي يمكن أن يفهم منها أنه يجوز أن يلتحق بالتعليم العالي من كان قادرا على الاستفادة منه . وهو رأي تربوي سليم بمعايير العصر .

أخلاق المعلمين والمتعلمين :

يورد الطهطاوي في كلامه عن أخلاق المعلمين ما رواه الثعالبي من أن النبي ﷺ قال : « خير الناس وخير من يمشي على جديد الأرض المعلمون » . وهو يذهب مذهب جمهور علماء المسلمين في جواز أن يأخذ المعلم أجرا على التعليم استنادا إلى قول النبي ﷺ : « أحق ما أخذتم عليه أجرا كتاب الله تعالى » . ويورد قول بعض العلماء إنه ينبغي للمعلم أن يرغب المتعلمين في التحصيل ويدلهم على مكانتهم ويصرف عنهم الهموم المشغلة لهم ويهون عليهم مؤنته ويذكرهم بما حصله من الفوائد والقرائب وينصحهم في الدين . فبذلك يستنير قلبهم ويزكو علمهم . وهو يردد آراء سابقيه ممن كتبوا في التربية الإسلامية فيقول : « إن صلة المعلم بتلاميذه يجب أن تقوم على الحب وأن يجربهم منه مجرى أبنائه وأن يكون بهم عطوفا وعليهم صبورا لما يبدو منهم من سوء السلوك . . . » . وهو يورد مختلف الآراء في العقاب ويتشدد في عدم ضرب التلاميذ الصغار لأن الضرب مضر بهم فضلا عن أنه خروج على حدود الشرع . وأجاز الضرب للأب إذ يجوز له أن يضرب ابنه لتأديبه . وهو في هذا يخالف من كتب قبله عن التربية الإسلامية وأباحوا الضرب للمعلم تحت شروط متشدة . وهو يكرر ما ذهب إليه الغزالي من الإذن للصبي باللعب دون إجهاد وفي بعض الأوقات . ويكرر نفس عباراته بأن يكون لعبا جميلا غير متعب لهم ليستريحوا من كلفة الأدب . ويكرر قوله عن فوائد اللعب بقوله : « بأنه رياضة تروح النفس وتحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة وتنفي الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط وتزكي النفس . فإن النفس تمل من الدوب في الجد وترتاح إلى بعض المباح من اللهو » . ويؤكد الطهطاوي على ضرورة احترام الصبي لأستاذه . وأن يدعوا له كلما شرع في قراءة درس وبعد الانتهاء منه . كما أوجب الطاعة على

الصبي لأستاذه إلا في معصية الخالق . إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .
وعلى الصبيان أن يسمعوا أقوال معلمهم وأن ينتصحو بها .

طريقة التعليم : يشير الطهطاوي في طريقة التعليم بالنسبة للمتعلم إلى
بعض المبادئ التي سبق أن قررها سابقوه . منها أن يبدأ المتعلم بالعلوم الأهم .
وألا يخرج المتعلم من علم إلى غيره إلا بعد أن يجيده . وأن يقسم الدرس إلى
أقسام حتى يسهل استيعابه وحفظه . واعتبر المناظرة والمطارحة أجدى في تحصيل
العلوم من التكرار . ويجب على المتعلم أن يأخذ العلوم عن أساتذتها . ويحذر
الطهطاوي من استخدام الكتب إلا في علم الحديث .

تعليم المرأة : يعتبر الطهطاوي أول من نادى في مصر بتعليم المرأة وهو
ينظر إليها على أنها من أجمل ما صنع الله القدير . وهي قرينة الرجل في الخلقة
والمعينة له في تدبير أمره والحافظة لأطفاله والقائمة بأمر عياله والمسلية له في
أيام حياته . وهي تمتاز عن الرجل باللين واللفظ والرخاوة . ويعتبر الطهطاوي أن
التربية أساس صلاح المرأة ومن صفات كمالها . وفي ذلك يقول الطهطاوي في
كتابه المرشد الأمين : « ينبغي صرف الهمّة في تعليم البنات والصبيان معا . .
فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك . فإن هذا مما يزيدن أدبا
وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي
فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن . . فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه
بأنفسهن . وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة فإن فراغ أيديهن عن
العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل . فالعقل
يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة . . وإذا كانت البطالة مذمومة في
حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء . ويرد الطهطاوي على التخوف من
تعليم المرأة فيقول : « إن التجربة في كثير من البلاد قضت أن تعليم البنات
لاضرر فيه » . ويستعين أيضا بما روي في كتب الأحاديث وما كان في زمن
الرسول من تعليم النساء . والتعليم الذي يليق بالبنات في نظره هو القراءة
والكتابة والحساب ، وبعض الصنائع كالخياطة والتطريز . وهو يرد على من ذهب
إلى تحريم تعليم المرأة القراءة والكتابة والحساب وبعض الصنائع وأنها مكروهة
في حقهن لما قد يؤدي إليه تعليمها من إساءة استخدام بأن ذلك لا ينبغي أن يكون

على عمومه . ويضرب أمثلة بمن كان يعرف القراءة والكتابة من زوجات النبي ﷺ وغيرهن من النساء في كل زمان . ويرجع التشدد في عدم تعليم المرأة إلى المبالغة في الغيرة عليها . وفي ذلك يقول : « وليس مرجع التشديد في حرمان البنات من الكتابة إلا التغالي في الغيرة عليهن من إبراز محمود صفاتهن أيا ماكانت في ميدان الرجل تبعا للعوائد المحلية بحمية جاهلية . ولو جرب خلاف هذه العادة لصحت التجربة » .

ولا غرو أن أول مدرسة لتعليم البنات في مصر أنشئت عام ١٨٧٣م أي بعد عام من طبع كتابه " المرشد الأمين للبنات والبنين " . وكانت تسمى مدرسة السيوفية نسبة إلى الحي الذي أنشئت فيه . وقد أسستها إحدى زوجات الخديو إسماعيل . وهكذا نجد أن الطهطاوي كان رائدا في الدعوة إلى تعليم المرأة في مصر . وجاء من بعده الشيخ محمد عبده وتلميذه قاسم أمين . فأكدوا دعوته وسارا في نفس الطريق الذي دعا إليه .

٢ - علي مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣ م) :

يعتبر علي مبارك " أبا التعليم المصري " الحديث . وباسمه ترتبط أعظم المحاولات لإعادة التعليم المصري إلى أصوله الإسلامية ، بعد أن جاء في تنظيمه الحديث غربا على الشعب وعن النظم التعليمية التي عرفها عبر تاريخه الطويل . وهو مع زملائه مثل الشيخ رفاعة الطهطاوي وعبد الله باشا فكري والشيخ محمد عبده يمثلون أركان النهضة العلمية في مصر في تلك الفترة .

ولد علي مبارك سنة ١٨٢٣م في " برنبال " إحدى قرى الدقهلية في دلتا مصر . ودرس في الكتاب ، وكافح ليواصل دراسته حتى إلتحق بالمهندسخانة . وأكمل تعليمه فيها . وبعدها سافر إلى فرنسا في بعثة لمواصلة الدراسة التي استمرت هناك طيلة خمس سنوات . وكان سفره إلى فرنسا في عهد محمد علي باشا وعاد في عهد عباس الأول . وكان عهد عباس هذا عهد انكماش في التعليم . إذ لم يكن يرضى عن الحركة العلمية في البلاد . بل كان همه بناء القصور لافتح المدارس ولا الاحتفاظ بالمرجود . فألقى الكثير منها وخفض ميزانية التعليم بدرجة كبيرة . وكان أميل إلى تعليم أولاد الأتراك دون المصريين . فعهد إلى علي مبارك في إدارة البقية الباقية القليلة من المدارس (أحمد أمين: ص ٢٠٦) .

تقلد على مبارك بعد عودته إلى مصر عدة وظائف . منها وظيفة ضابط في الجيش وناظر لمدرسة المهندسخانة . ووصل إلى أرقى منصب يحلم به عندما عين ناظرا لديوان المدارس أي وزيرا للمعارف آنذاك . لقد توالى على "علي مبارك " أيام بؤس وأيام نعيم . وكانت الحالة في مصر غير مستقرة . وكل الموظفين وخاصة كبارهم رهن إشارة الحاكم . وكل منهم رهن بما يحاك حوله من دسائس . فيوما يرضى عنه فيرفعه إلى السماء ، ويوما آخر يغضب عليه فينزله إلى الحضيض . والبيت الحاكم منشق على نفسه . إذا تقرب أحد إلى بعضه غضب عليه البعض الآخر . رضي محمد علي باشا وإبراهيم باشا عن الشيخ رفاة الطهطاوي . وجاء عباس فغضب عليه وأخرجه من إدارة مدرسة الألسن وعينه ناظرا لمدرسة ابتدائية تنشأ في الخرطوم . ورضي عباس الأول عن "علي مبارك " وقربه إليه وعهد إليه في تنفيذ أمور كثيرة ثم جاء سعيد باشا وغضب على "علي مبارك " وأعاد الشيخ رفاة الطهطاوي وقربه إليه . وأراد سعيد باشا أن يتخلص من "علي مبارك " فأرسله مع الفرقة الحربية لمساعدة الدولة العثمانية في حربها مع روسيا . وهناك في تركيا في الآستانة والأناضول أقام فيها نحو سنتين لقي فيهما عناء كبيرا احتمله في صبر وثبات . واستطاع خلال هذه المدة أن يتعلم اللغة التركية ويجيدها .

وبعد عودته إلى مصر من تركيا كانت حياته مزيجا من السعادة والشقاء ، يوظف أحيانا ويطرد أحيانا أخرى . ويعمل أحيانا بالأعمال الحرة تاجرا مرة ومهندسا مدنيا مرة أخرى . ويصل به الملل والسخط أحيانا إلى حد التفكير في العودة إلى أهله في "برنبال " ليعمل عمل الفلاحين ويعيش معيشتهم وعلى الله العوض فيما تعلم . ولكن الحظ لم يلبث أن يبتسم له ويأتي إسماعيل باشا إلى الحكم ويسعى إلى إعادة الحياة العلمية في مصر . ويتوسع فيها . واستقر الحال بعلي مبارك . وكان هذا العهد أبرك عهده وأخصبها . وعمل علي مبارك أعمالا كثيرة تتصل بتخصصه في الهندسة المدنية والحرية . وعهد إليه بمشروعات هندسية عظيمة في تصميم الشوارع والترع والجسور والمساجد وبنائها . ولكن ذلك لم يكن سر عظمته وصحيفة خلوده . وإنما كان ذلك في شيء لم يتعلمه ولم يتلقه عن أستاذ . هو إصلاحه للتعليم في مصر بالوسائل المختلفة وبنائه في ذلك بناء ضخما يعد دعامة النهضة التعليمية في مصر . لقد أريد له أن يهندس

المباني والمنشآت. فهندس هو طرق التربية والتعليم ووضع تصميماتها، ووقف على تنفيذها في دقة وإحكام حتى عد من كبار المصلحين. (أحمد أمين : ص ٢٠٧).

جهوده الفكرية والثقافية :

يعتبر علي مبارك أحد زعماء النهضة الفكرية والثقافية البارزين الذين لعبوا دورا هاما في دفع حركتها في مصر. ومن أهم جهوده الفكرية والثقافية ما يأتي :

١ - كتب وألف في مختلف فروع العلم والثقافة . ومن أهم الكتب التي ألفها " الخطط التوفيقية " في عشرين جزءا ، وفيها وصف للقاهرة وشوارعها ومساجدها ومدارسها . كما وصف مدن مصر وقراها . وهي تكملة لخطط المقريري المعروفة . كما ألف كتابا أسماه " علم الدين " كان الغرض منه تفتيح أذهان الشرق لما في الغرب . وهو قصة لشيخ تربي في الأزهر وتلمذ له مستشرق إنجليزي تعلم منه اللغة العربية . ودعاه الإنجليزي لزيارة إنجلترا فلبى الدعوة . وكانا كلما مرا على شبي من القاهرة إلى الإسكندرية سأل الإنجليزي الشيخ "علم الدين " فكان يجيبه . وبعد الإسكندرية إنقلب الشيخ تلميذا والإنجليزي معلما . فكان الشيخ يسأل عن كل ما يجهل . فكان يجيبه الإنجليزي . والكتاب ملئ بالمعلومات القيمة عن الشرق والغرب ومظاهر الحضارة الأوربية . وألف وهو وزير للمعارف كتابا من جزئين لتعليم الأطفال القراءة والكتابة لعدم رضائه عن الطريقة التي كانوا يعلمون بها . وخصص الجزء الأول لتعليم حروف الهجاء وكيفية تركيبها . وخصص الجزء الثاني للتمرين على المطالعة والقراءة السهلة في موضوعات مفيدة .

٢ - أنشأ مجلة " روضة المدارس المصرية " التي رأس تحريرها الشيخ رفاعة الطهطاوي . وذكر في أول عدد منها أن مدير المدارس وهو "علي مبارك " جعلها ملحوظة بنظر نظارته لا يتدرج فيها شئ إلا بإشارته . وطلب من الأساتذة أن يمدوها بالمقالات .

٣ - أنشأ دار الكتب المصرية . وكانت الكتب قبل ذلك متفرقة في المساجد أو الأماكن المهجورة عرضة للسرقة والتلف فجمعها في مكان واحد ورتبها وسهل الاستفادة منها وجعل لها قاعة مطالعة .

٤ - أنشأ قاعة للمحاضرات كانت تعتبر جامعة مفتوحة يحضرها كل من شاء . وكان يحاضر فيها كبار الأساتذة من مصريين وأجانب . فكان على سبيل المثال الشيخ حسين المرصفي يحاضر في الأدب وإسماعيل بك الفلكي في الفلك والشيخ عبد الرحمن البحراوي في الفقه ، ومسيو بروكسن في التاريخ العام وأحمد ندا في النبات . فإذا حاضر محاضر باللغة الأجنبية أقيمت محاضراته بعد ذلك باللغة العربية . وكانت هذه المحاضرات تعقد يوميا باستثناء يوم الجمعة . وكل محاضرة ساعة ونصف . وبعض الموضوعات كان لها محاضرتان أسبوعيا وبعضها محاضرة واحدة . (أحمد أمين : ص ٢١٢)

٥ - أنشأ مدرسة دار العلوم سنة ١٨٧٢م وكانت أول معهد لإعداد المعلم . وقد تطورت إلى كلية دار العلوم حاليا . وكان طلبتها يؤخذون من خيرة طلبة الأزهر بامتحان خاص . كما كان يختار لها خيرة العلماء من الأزهر وغيره . وكان طلبتها يعلمون العلوم الدينية واللغوية وشيئا من علوم الرياضة والجغرافيا والتاريخ والطبيعة والكيمياء .

جهوده في التربية والتعليم :

لم يتعلم على مبارك في مصر ولا في فرنسا علوم التربية وأصولها على معلم مختص . وإنما تعلمها من حسن استعداده وصدق نظره ، ومن دورس في التربية الفاسدة تلقاها في الكتاب حين كان يضرب . وفي مدرسة قصر العيني حين كان يضرب أيضا ، ومدرسة أبي زعبل حين كان يلقي عليه الدرس فلا يفهم . بيد أن " علي مبارك " كان يهتم بالمسائل الكلية في سياسة التربية والتعليم وتنظيمها وتخطيطها وتنفيذها . وإذا نظر إلى الجزئيات فلتطبيق الكليات عليها . لذلك لا نجد له آراء تفصيلية عن المباحث الجزئية للتربية والتعليم . وهو في هذا عكس الشيخ رفاعة الطهطاوي الذي كان ينظر إلى المسائل الجزئية . ويعنى بإصلاحها وتنفيذها . ولهذا نجد له كثيرا من الآراء الجزئية عن مختلف موضوعات التربية . (المرجع السابق : ٢١٧) .

ويقدم لنا أحمد أمين في حديثه عن علي مبارك وصفا بليغا لتطور التعليم المدني في مصر منذ إنشائه فيقول : (زعماء الإصلاح . ص ص ١٩٣ - ١٩٤) :

« كان التعليم المدني الذي أنشأه محمد علي في مصر تعليماً أساسه الجيش . فالمدارس الحربية لتخريجه ، ومدرسة الطب لتطبيبه والهندسة لتصميماته ، والمدارس الصناعية لإمداده ، والبعثات لسد حاجاته . فإن جاءت من كل ذلك فائدة لغير الجيش فبالتابع لا بالقصد . حتى إن المدارس كانت ثكنات عسكرية في نظامها ومأكلها وملبسها ، ورُتب المعلمين والنظار والمديرين رتب عسكرية . فملازم وصاغ وأميرلاي وميرمران الخ . حتى الطلبة في البعثة في باريس لهم بيت يقيمون فيه يدار إدارة عسكرية . وكل أنواع التعليم على هذا الوجه في القاهرة والإسكندرية فقط . أما المدن الأخرى والأرياف فليس لها حظ من هذا التعليم . ويجانب هذا التعليم تعليم آخر يبتدئ بالكتاب وهو منتشر في القاهرة والمدن والقرى وينتهي بالأزهر . هذا التعليم لاتعنى به الحكومة ولا تتدخل فيه ولا يهتمها أمره . وكل ما فعله عباس الأول وسعيد أن ضيقا التعليم المدني حتى إذا جاء اسماعيل بدأ بتغيير هذا النظام . وينظر إلى التعليم نظرة أخرى غير النظرة الحربية . وكان من أكبر العاملين على هذا على مبارك . فلو قلنا إنه حول التعليم من وجهة حربية إلى ثقافة شعبية كان ذلك وصفا مجملا صادقا . »

كان "علي مبارك" يرى أن إصلاح التعليم هو خير أنواع الإصلاح ، بل إن الإصلاح السياسي لقيمة له ما لم يرتكز على الإصلاح التعليمي . ولذلك لانرى له دورا في الثورة العرابية . وكان مما ساعد على مبارك على إصلاحاته التعليمية أن الظروف السياسية كانت مواتية . فالخديو إسماعيل لديه رغبة أكيدة في العمل على تجديد مصر وتحويلها إلى قطعة من أوربا ، ومجلس الشورى يطالب بتحسين التعليم وإصلاحه . وتتركز أهم الجهود التربوية لعللي مبارك في جانبين رئيسيين هما :

أ - إصلاح الكتابيب ووضع نظام قومي للتعليم أساسه التعليم الشعبي الذي نظمته " لائحة رجب " الذي أعدها كوثيقة هامة تعتبر من أهم الوثائق التعليمية الحديثة في مصر .

ب - إصلاح المعلم ركن الزاوية في التعليم . وقد تجسدت خطة علي مبارك في الإصلاح في إنشاء دار العلوم . وسنفضل الكلام عن هذين الجانبين في السطور التالية :

أولاً : إصلاح الكتاتيب ووضع نظام قومي للتعليم :

اهتم علي مبارك بتطوير التعليم في الكتاتيب . فهو نفسه تعلم فيها وأحس بنواحي النقص فيها . وقد وصفها بقوله : « . . كانت الكتاتيب الأهلية في المدن والأرياف جارية على العادة القديمة . ليس فيها على قلة أهلها إلا تعليم القرآن الشريف . وأقل القليل من يتمه منهم ويجيد حفظه ويجوده ويحسن قراءته مع رداة الخط في عامة المكاتب » . وكانت الكتاتيب في حالة يرثى لها . وصفها أحمد أمين بقول : « . . فكثير منها إما في دكان أو حجرة مظلمة بجانب مراحيض المسجد . والتلاميذ يختلط صحيحهم بمرضهم . وقد يكون المرض معديا ، فأقرع وأبرص وأجرب ومحموم ينشرون العدوى في الأصحاء . يجلسون على حصير بال ، ويشربون بكوز واحد من زير واحد ويأكلون في الظهر من صحن واحد . وفقه الكتاب كثيرا ما يكون أعمى لا يحسن أن يرعى التلاميذ ولا أن يدبر شئونهم . وكل كفاءته أنه يحفظ القرآن ويحفظه من غير فهم لاعلم له بالدنيا ولا بالدين . ووسائل التأديب عنده ليست إلا السب والضرب . . » . (أحمد أمين: ص ٢١٠) . وعاب على الفقهاء في الكتاتيب والمدارس الأساليب التي يستخدمونها في التربية وفي مقدمتها القسوة على التلاميذ اعتقادا منهم بأن " عصا الفقيه من الجنة " . ومنها الخوف والرهبنة التي كانت تقوم عليها العلاقة بين المعلم والتلميذ مما يدفع الأخير إلى النفاق والرياء . وعلي مبارك نفسه قاسي من هذه الأساليب التي جعلته يكره الكتاب كرها شديدا . ومنها أمن بضرورة تطوير أساليب التعليم في هذه الكتاتيب والمدارس بحيث تكون مسايرة لمتطلبات المجتمع وحاجاته .

لائحة رجب (١٢٨٤هـ / ١٨٦٨م) :

تعتبر لائحة رجب - نسبة إلى شهر رجب وهو تاريخ صدورها - من أهم الإنجازات التربوية لعلي مبارك ، إذ وضعت هذه اللائحة كيانا قوميا للتعليم أساسه تعليم شعبي متطور تشرف عليه الحكومة وتوليده عنايتها . وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام : القسم الأول منها يتناول تطوير المكاتب في المدن من حيث الإدارة والمباني والتجهيزات والرعاية الصحية . والقسم الثاني يتناول تنظيم المكاتب في القرى . والقسم الثالث يتناول تنظيم المدارس المركزية في مراكز المديرية .

وقد لخص علي مبارك خطته في الإصلاح بقوله : « فجميع المدارس والمكاتب سواء بالقري أو البنادر تكون تحت أصول تنظيمية وترتيبات حسنة منتجة وامتحانات سنوية وملاحظات وتفتيشات من طرف الحكومة . وهذا لتحسين حالهم واستقبالهم ومنفعتهم الخصوصية العائدة إليهم مع المنفعة العمومية على الحكومة مع تهذيب رعاياها وإصلاح حالهم ووجود التعاون بينهم ، ومعاونتهم لأوطانهم » . وكانت أهم المبادئ التي قامت عليها لائحة رجب هي :

- تطوير الكتابات مع الاحتفاظ بروحها الأصيلة التي تتميز بالبساطة في الأثاث والاهتمام بتعليم القرآن الكريم .
- الاحتفاظ للكتاتيب بطابعها الشعبي وعدم تدخل الحكومة في شئونها وترك مسئوليتها على الأهالي .
- وصل الكتابات بالتعليم الأميري أو الرسمي الذي يوصل إلى المراحل الأعلى من التعليم .
- تنظيم الإشراف والتفتيش على المدارس والمكاتب .
- تنظيم الامتحانات وعمل مهرجانات لها آخر العام تعزف فيها الموسيقى وتوزع الجوائز على المتفوقين .
- اشترطت اللائحة شروطا في المعلم منها حسن الأخلاق والصفات وأهليته لتعليم القرآن والمعرفة بأمور الدين وأن يحسن باب العديّة في الحساب . وجعلت تعيينهم بمعرفة ديوان المدارس .
- تركت لائحة رجب تدبير الأموال اللازمة لإصلاح الكتابات على الأهالي . وكانت هذه هي أهم نقطة ضعف في اللائحة على الرغم من أن علي مبارك كان عليه أن يراعي الظروف المالية الصعبة للبلاد في ذلك الوقت ، إذ كانت تمر بأول وأعظم ضائقة مالية عرفتتها . وجرت عليها الولايات والتدخل الأجنبي . وتشير المصادر التاريخية إلى أن الشعب لم يستطع أن يقوم بالأعباء المالية، فضلا عن أن لائحة رجب لم تضع الطريقة التي يمكن بها جمع المال ، بل تركت الأمر مفتوحا دون تحديد . وكان ذلك عائقا حقيقيا دون الوصول إلى الأهداف التي أرادها علي مبارك من إصلاح التعليم . ولكن على الرغم من هذا فإن لائحة رجب قد تركت بصماتها على الطريق ،

وظلت علامة تشير إلى جهود المخلصين من أبناء هذه الأمة الذين عملوا من أجل رفعتها ، وكان الإخلاص رائدهم .

ثانيا : إصلاح المعلم :

كان من المسائل الهامة التي عني بها علي مبارك مسألة المعلمين ، وكيف يصلح أحوالهم . فقد كان يقوم بتدريس اللغة العربية في المدارس رجال من الأزهر . وكان التعليم في الأزهر آنذاك على أسلوبه في القرون الوسطى يعلم الكتب ولا يعلم العلم . وغاية النابغ منهم أن يحسن فهم عبارة الكتاب لا فهم موضوع الكتاب . وهذا يؤدي إلى أنه لا يحسن تطبيق ما تعلم . فأكثرهم لا يحسن قراءة صفحة ولا أن يكتب موضوعا ولا أن يقيم وزنا لبيت من شعر ، كما وصفهم بذلك عبد الله باشا فكري في مقال كتبه تحت عنوان " فكيف يصلحون بعد لتعليم الناشئة ؟ " . ولهذا اتجه فكر علي مبارك إلى إنشاء مدرسة يؤخذ لها خيرة طلبة الأزهر ويختار لهم خيرة علماء الأزهر وغيره . فكان إنشاء دار العلوم كأول معهد لإعداد المعلم .

٣ - جمال الدين الأفغاني

(١٢٥٤-١٣١٤هـ / ١٨٣٩-١٨٩٧م)

مقدمة :

هو أحد رواد الإصلاح والنهضة والجامعة الإسلامية في العصر الحديث . وأحد أئمة المصلحين من أهل السنة ، وأحد زعماء حركة التجديد والتنوير في الفكر الإسلامي الحديث . اسمه بالكامل هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتي الحسيني الأفغاني . ولد في عام ١٢٤٥ هـ / ١٨٣٩م بأسعد آباد من أعمال كابول عاصمة أفغانستان . وهو سليل أسرة عريقة ينتمي نسبها إلى السيد علي الترمذي المحدث المشهور ، وينتهي نسبها إلى آل البيت إلى الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . ويقول أحمد أمين في " زعماء الإصلاح " إنه جمع إلى شرف النسب عزة السيادة . فكان أهل بيته سادة بلاد الأفغان . وكانت لهم السيطرة على جزء من هذه البلاد يحكمونه ، ولهم الولاية عليه حتى غلبهم على أمرهم الملك محمد خان فاغتصب منهم أرضهم ونقل والد السيد جمال

الدين وأعمامه إلى كابول (محمود قاسم : جمال الدين الأفغاني : ص ٩) .
وكان جمال الدين الأفغاني آنذاك في الثامنة من عمره .

تعليمه : تلقى جمال الدين الأفغاني تعليمه في مدارس كابول على الطريقة المدرسية الإسلامية القديمة . ودرس اللغة والدين والتاريخ والعلوم . وتعلم في شبابه الفارسية والعربية . وفي الهند درس الفلسفة الإسلامية والتصوف كما درس العلوم العقلية والرياضية على الطريقة الأوربية البريطانية . وبهذا جمع بين الثقافة الأصيلة والحديثة .

ترحاله وسفروه : كان جمال الدين كثير السفر والترحال ، فزار بلادا كثيرة منها تركيا وأوربا وأكثر البلاد العربية . وقد سافر إلى لندن عام ١٨٨٣ ولم تطل إقامته بها . ثم سافر إلى باريس بعد أن تعلم الفرنسية في فترة قصيرة وجيزة . واستطاع أن يقرأ الكتب الفرنسية ويترجم عنها . وسافر إلى بطرسبورج عاصمة روسيا آنذاك وأقام بها ثلاث سنوات تقريبا (عام ١٨٨٦) . وكانت له خبرة واسعة بحياة الشرق وأحواله . وجاء إلى مصر مرتين وبقي بها ثماني سنوات (١٨٧١ - ١٨٧٩ م) = (١٢٨٨ - ١٢٩٦ هـ) وهي فترة تعتبر أخصب فترات حياته . اهتم بالحركة الوطنية في مصر وساندها وأيدها .

جمال الدين الأفغاني والصحافة :

كانت الصحافة من المجالات الهامة التي أحسن جمال الدين استخدامها لنشر أفكاره وآرائه . فقد كان يرى في الصحافة وسيلة فعالة لإحداث التغيير السياسي والاجتماعي الذي ينشده . وسلك في ذلك سبيلين أحدهما تشجيع أعوانه ومريديه على إنشاء الجرائد ومحبيهم في الكتابة الصحفية . والسبيل الثاني هو قيامه بكتابة المقالات لهذه الجرائد . ومن الأمثلة على ذلك أنه شجع أديب اسحق وهو أحد مريديه وتلاميذه على إنشاء جريدة " مصر " . وكان جمال الدين يكتب بعض مقالاتها تحت اسم مستعار هو " مظهر بن وضاح " . وكتب مقالين أحدهما عن الحكومات الشرقية وأنواعها والثاني عن " روح البيان في الإنجليز والأفغان " . وكان لهما صدى بعيد أغلقت الصحيفة بسببهما . ومنها أيضا أن الكاتب الإسرائيلي الفكه " يعقوب صنوع " اتصل به وأنشأ مجلة هزلية إسمها " أبو نضارة " انتقد بها سياسة اسماعيل باشا (أحمد أمين : زعماء

الإصلاح : ص ٧٠) . كما قام بتوجيه بعض أصحابه إلى الكتابة في جريدة الوقائع المصرية وغيرها ، فكون بذلك مجموعة من الكتاب الذين يجيدون الكتابة في موضوعات ملتصقة بحياة الشعب وما يعانیه .

أنشأ أثناء وجوده في باريس جريدة عربية بالتعاون مع الشيخ محمد عبده الذي تولى رئاسة تحريرها . وكان جمال الدين عقلها المفكر ، وهي جريدة "العروة الوثقى" . وهو عنوان له مغزاه مقتبس من القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة البقرة : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله واسع عليم » . وقد صدر من هذه الجريدة ١٨ عدداً في ثمانية أشهر . وظهر أول عدد منها في مارس ١٨٨٤ . وتتلخص أهم أغراض هذه الجريدة كما حددها أول عدد منها في إصلاح حال المسلمين دينياً وسياسياً واجتماعياً ، وتقريب الصلة بين الأمم الإسلامية وترباطها وتقاسكها في عروة وثقى . كما كان من أهم أهدافها بث الأمل في نفوس الشرقيين ودعوتهم إلى التمسك بأصول الدين التي كان عليها أبائهم وأسلافهم . وكان يشترط في من يدخلها أو يعمل بها أن يقسم يمينا يتعهد فيه بأن يبذل ما في وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين ، وألا يؤخر إلا ما أخره الدين .

اتصاله برينان :

التقى جمال الدين أثناء فترة إقامته في باريس بالفيلسوف الفرنسي المعروف " رينان " الأستاذ بجامعة السربون المعروف بعدائه للمسلمين والعرب . وكان رينان قد ألقى في جامعة السربون محاضرة تركز موضوعها في ثلاث نقاط هي (أحمد أمين : زعماء الإصلاح . ص ص ٨٦ - ٨٧) :

١ - خطأ المؤرخين في قولهم علوم العرب وفنون العرب وتقدم العرب وفلسفة العرب لأن هذه الأشياء نتاج غير العرب أكثر منه نتاجا للعرب . وهو قول رده ابن خلدون . فالتمدن من نتاج الفرس ، والفلسفة أكثرها من نتاج النصراني النسطوريين والوثنيين الحرانين ، والفلسفة كالكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد لم يكن منهم من العرب إلا الكندي .

٢ - أن الإسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر ، بل هو عائق لها بما فيه من غيبيات وخوارق العادات .

٣ - أن العنصر العربي بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها . ولم تظهر الفلسفة في العالم الإسلامي إلا بعد عصر الخلفاء الراشدين .
وعلى الرغم من هذه الانتقادات المفتراة المفرضة يقول رينان عن الدين الإسلامي « إن في دين الإسلام تعاليم ومبادئ عالية القيمة ، رفيعة المقام ، وما دخلت في حياتي مسجدا من مساجد المسلمين إلا شعرت بجاذبية نحو الإسلام ، بل تأسفت ألا أكون مسلما » . وقد نشرت محاضرة رينان في جريدة " الدنيا " الفرنسية فأثارت خواطر المسلمين والمستشرقين والمتخصصين في الدراسات الإسلامية ، وقام جمال الدين بعد بضعة أسابيع من نشر المحاضرة بالرد عليها في نفس الجريدة وهي " الدنيا " . وكان رده هادئا مدحا فيه رينان على بحثه ورد على ما أثاره من شبهات . ورد عليه رينان وبادله مدحا بمدح وإعجابا بإعجاب . يقول رينان عن جمال الدين : « وقد خيل إلي من حرية فكره ونبالة شيمه وصراحته وأنا أتحدث إليه أنني أرى وجها لوجه أحد من عرفتهم من القدماء وأنتي أشهد ابن سينا وابن رشد » .

الأفغاني والتربية والتعليم :

كان الأفغاني في حد ذاته مدرسة فكرية إسلامية كبيرة تشع بنور الهداية والعرفان حيثما وجدت وحيثما حلت . كان يرى أن الإسلام دين العقل والعلم والتنوير وأنه أوجب على الدولة تعليم أبنائها وتنوير عقولهم بالمعارف والعلوم . وقد جاهد أثناء إقامته في مصر في سبيل نشر التعليم والتنوير والعرفان بين الناس . واستطاع أن يؤسس في مصر مدرسة فكرية حملت لواء التجديد الإسلامي الحديث ، وإنهاض الأمة الإسلامية وإيقاظها من سباتها وتخلفها . وكان من قادة هذه المدرسة تلميذه الشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا وغيرهم .
وجه عنايته وهو في مصر إلى الدعوة إلى الديمقراطية والشورى والوحدة الإسلامية والتحرر ومحاربة التخلف والجهل . وكان يوجه إلى المصريين خطبا تفيض بالحماسة وإثارة النخوة والعزة والكرامة . يقول فيها ما معناه : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد وريتم في حجر الاستبداد . . تناوئتم أيدي الرعاة واليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والماليك . وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت . .

أنظروا أهرام مصر وهياكل ممفيس وآثار طيبة ومشاهد سيوة وحصون دمياط فهي شاهدة بمنعة آباتكم وعزة أحداتكم . . هيوأ من غفلتكم . أصحابوا من سكرتكم . عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء .» وكانت مثل هذه الخطب بمثابة الشرارة التي اندلعت فيها الثورة العربية بقيادة أحمد عرابي باشا .

كما تضمنت رسالته في "الرد على الدهريين" وتحليله لأسباب ضعف المسلمين وسعادة الأمم مبادئ تربوية وتعليمية هامة نعرض لها في السطور التالية :

رسالة الرد على الدهريين :

استطاع جمال الدين الأفغاني بعد نفيه من مصر إلى حيدر أباد في ١٨٧٩م أن يكتب بعض المؤلفات الهامة وأهمها رسالته المشهورة بعنوان " الرد على الدهريين " . وقد كتبها باللغة الفارسية وقام بترجمتها إلى العربية الشيخ محمد عبده بمعاونة تابع جمال الدين وهو " عارف أفندي أبو تراب " . والغريب أن الشيخ محمد عبده قد نقل هذه الرسالة وهو في منفاه بسوريا بتهمة اشتراكه في الثورة العربية . فهذه الرسالة إذن ألفها صاحبها وهو في المنفى ونقلها مترجمها إلى العربية وهو في المنفى أيضا . وهي رسالة صغيرة الحجم ، قليلة الذكر ، عظيمة القدر . يقول عنها مترجمها الإمام محمد عبده في تقديمه لها : « أما الرسالة فعلى إيجازها قد جمعت لإرغام الضالين ، وتأييد عقائد المؤمنين ما لم يجمعه مطول في طوله . وحوث من البراهين الدامغة والحجج البالغة ما لم يحوه مفصل على تفصيله " . ويقول عن مولفها جمال الدين : « أما الشيخ فله من لسان الصدق ورفيع الذكر ما لا يحتاج معه إلى الوصف » .

وفي هذه الرسالة يبين جمال الدين فساد مذهب الدهريين "النتشرين" أو الطبيعيين الذين ينكرون الألوهية، ويثبت أن الدين أساس المدنية، وأن الكفر فساد للعرمان. وقد رد فيها على آراء داروين ومذهبه في النشوء والارتقاء. كما رد على أصحاب مذهب التطور وهو المذهب الذي قاله به لامارك وسبنسر وغيرهما .

ويقول جمال الدين إن هذا المذهب قديم . إذ يوجد في البوذية وعند بعض فلاسفة اليونان . وعرفه العرب قديما وسموا أصحابه بالدهريين . وذكره الجاحظ والشهرستاني وغيرهما من مؤرخي المذهب ، وظهر في العصور الحديثة عند كثير من الفلاسفة في إنجلترا وألمانيا . والعجيب أن جمال الدين كتب هذه الرسالة في

نفس العام الذي مات فيه داروين . ويقول الاستاذ صلاح الدين السلجوقي في تقديمه لطبعة الرسالة تحقيق الشيخ محمود أبورية ونشر دار الكرنك (ص ٥٥) .

« ومع أن التطور الذي هو من سنة الكون لا ينكره أحد إلا أن التطور بطريقة الأنواع تتبدل بالانتخاب الطبيعي وليست مخلوقة خلقا مستقلا لا يزال حتى الآن محل نقاش ولم يثبت حتى الآن بدلائل قاطعة تفضي إلى اليقين » .

يقول جمال الدين في رده على الدهريين :

« رأس القائلين بهذا القول داروين ، وقد أُلّف كتابا في بيان أن الإنسان كان قرداً ثم عرض له التنقيح والتهديب في صورته بالتدرج على تنالي القرد . . . وعلى زعم داروين هذا . . . فإن سئل عن الأشجار القائمة في غابات الهند والنباتات المتولدة من أزمان بعيدة . . . وأصولها تصرب في بقعة واحدة وفروعها تذهب في هواء واحد وعروقها تسقى بماء واحد ، فما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر . . . فأبي فاعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها . . . أظن لاسبيل إلى الجواب سوى العجز عنه . . . " وإن قيل له هذه أسماك بحيرة أورال وبحر كسبين تشاركها في المأكّل والمشرب وتسبقها في ميدان واحد ، ترى فيها اختلافا نوعيا وتباينا في الألوان والأشكال . . . فما السبب في هذا التباين والتفاوت ، فلا أراه يلجأ في الجواب إلا إلى الحصر " .

« ومن واهياته ما كان يرويه داروين من أن جماعة كانوا يقطعون أذباب كلابهم ، فلما واطبوا على عملهم هذا قرونا صارت الكلاب تولد بلا أذنان . . . كأنه يقول حيث لم تعد هناك للذنب حاجة كفت الطبيعة من هبته . وهل صمت أذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الحثان ألوقا من السنين ، لا يولد مولود حتى يختن . . . وإلى الآن لم يولد واحد منهم مختونا إلا لإعجاز » .

أسباب ضعف المسلمين :

تعرض جمال الدين في مقالاته المتعددة إلى الشرح الوافي المستفيض لأحوال المسلمين وما آل إليه حالهم من الضعف والتخلف وبيان الأسباب التي أدت بهم إلى ذلك . فقد كان يرى المثل الأعلى للمسلمين في عهد الخلفاء الراشدين من حيث اكتمال العقيدة الدينية والصفات الخلقية والأوضاع السياسية . ثم دب

الفساد والضعف في العالم الإسلامي على توالي الزمن لأسباب متعددة من أهمها (أحمد أمين : زعماء الإصلاح : ص ٨٣) :

١ - ظهور عقيدة الجبر والخطأ في فهم القضاء والقدر حتى صرفت النفوس عن الجهد في الأعمال .

٢ - ما أدخله الزنادقة على تعاليم الإسلام في القرنين الثالث والرابع الهجريين . فجعلوا المسلمين شيعة وأحزابا وأضعفوا قوة المسلمين وقوة الدين بما أدخلوا من تعاليم فاسدة .

٣ - ما أحدثه السوفسطائيون والمغالطون من أفكار وعدهم الحقائق خيالات وأوهاما تبدو للنظر .

٤ - ما عمله كذبة المحدثين من دس ووضع أحاديث ينسبونها إلى النبي ﷺ وفيها السم القاتل لروح العمل وما يستوجب ضعفا في الهمم وفتورا في العزائم .

٥ - ضعف التربية والتقشير في إرشاد الجمهور إلى أصول دينهم ونشر العلم بينهم .

٦ - تفكك الروابط بين أجزاء الأمة ، فلا ترابط بين علماء المسلمين بعضهم ببعض ولا بين العلماء والأمرء .

وكان مثله الأعلى المنشود قيام حكومة إسلامية واحدة تحتكم إلى الإسلام وتعاليمه وترتبط فيما بينها بروابط وطيدة وتمسك جميعها بالعروة الوثقى .

سعادة الأمم :

حدد جمال الدين أربعة أمور تتم بها سعادة الأمم (أنظر رسالة الرد على الدهريين نشر السلام العالمية ص ص ٩٦ - ١٠٦) هي :

أولا : صفاء العقول من كدر الخرافات وصدأ الأوهام . لأن الخرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية . وتجعل صاحبها ألعوبة في أيدي المحتالين ، وصيدا في جبال الماكرين والدجالين . وأول ركن بني عليه الدين الإسلامي صقل العقول بصقال التوحيد وتطهيرها من لوث الأوهام .

ثانيا : أن تكون نفوس الأمم مستقبلة وجهة الشرف ، طامحة إلى بلوغ

الغاية منه بأن يجد كل واحد من نفسه أنه لائق بأية مرتبة من مراتب الكمال الإنساني ما عدا رتبة النبوة فإنها بمعزل عن المطمح ويختص بها الله من شاء من عباده . إن دين الإسلام فتح أبواب الشرف في وجوه الأنفس وكشف لها عن غايته وأثبت لكل نفس صريح الحق في أي فضيلة . . . وقرر المزايا البشرية على قاعدة الكمال العقلي والنفسي لاغير . فالتناس إنما يتفاضلون بالعقل والفضيلة . وقد لانجد من الأديان الأخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة .

ثالثا : أن تكون عقائد الأمة وهي أول رقم ينقش في ألواح نفوسها مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة . إن الدين الإسلامي يكاد يكون متفرداً بين الأديان بتقريع المعتقدين بلا دليل وتوبيخ المتبعين للظنون ، وتبكيك الخاطبين في عشواء العماية والقده في سيرتهم . هذا الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان في أصول دينهم وكلما خاطب خاطب العقل . وكلما حاكم حاكم العقل . تنطق نصوصه بأن السعادة من نتاج العقل والبصيرة ، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة . . . وكلما جاء الإسلام بحكم شرعي اتبعه ببيان الغاية منه ، وكلما يوجد من الأديان ما يساويه أو يقاربه في هذه المزية ، وأظن غير المسلمين يعترفون لهذا الدين بهذه الخاصية الجليلة .

رابعاً : أن يكون في كل أمة طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة لا يألون جهداً في تنوير عقولهم بالمعارف الحققة وتحليلتها بالعلوم الصافية ، وتبين طرق السعادة لهم . وطائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيفها وتكشف عن الأوصاف الفاضلة وحدودها ، وتمثل للمدارك فوائدها ومحاسن غاياتها وتفضع مستور الرذائل وتشق الحجاب عن مضارها وسوء منقلب المتدسسين بها . وتشدد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . . . ذلك أن جل المعارف البشرية والعقائد الدينية مكتسبة فإن لم يكن في الناس معلم قصرت العقول عن درك ما ينبغي لها دركه . . . وساوى الإنسان في معيشتها سائر الحيوان وحرمت سعادة الدارين . وفارق هذه الدنيا على أتعس الأحوال . فإذا لا بد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القائم بتقويم الأخلاق . وإن من أهم الأركان الدينية في الديانة الإسلامية هاتين الفريضتين : إقامة المعلم الذي يؤدي عمل التعليم ، وإقامة المؤدب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهو يقتبس من القرآن الكريم قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن

المنكر « . . وقوله عز وجل : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذورا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . وقد برز دين الإسلام على غالب الأديان في العناية بهذين الأمرين . ويختتم جمال الدين كلامه بقوله : « ولهذا أخذت على نفسي أن أضع رسالة تختص بذلك الغرض أبين فيها أن المدينة الفاضلة التي مات الحكماء على حسرة من فقدوها لا تختلط في العالم الإنساني إلا بالدين الإسلامي . فإن قال قائل : إن كانت الديانة الإسلامية على نحو ما بينت فما بال المسلمين على ما نرى من الحال السيئة والشأن المحزن ، فجوابه أن المسلمين كانوا كما كانوا ، وبلغوا بدينهم ما بلغوا ، والعالم يشهد بفضلهم واكتفي الآن من القول بهذا النص الشريف : « إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

نشاطه التعليمي :

كان نشاطه التعليمي (كما يقول أحمد أمين في زعماء الإصلاح ص ٦٤) ذا شقين : دروس علمية منظمة يلقيها في بيته في خان الخليلي على طائفة من مجاورري الأزهر وبعض علمائه أمثال الشيخ محمد عبده والشيخ إبراهيم الهلباوي والشيخ إبراهيم اللقاني ، ودروس علمية يلقيها زواره في بيته وفي بيوت العظماء حين يرد زيارتهم وفي قهوة " البوستة " بالقرب من " العتبة الخضراء " وحيثما كان في المجتمعات . ومن الذين تلقوا على يديه هذه الدروس العلمية رب السيف والقلم الشاعر محمود سامي باشا البارودي وإبراهيم المويلحي وسعد زغلول وعلي مظهر وسليم نقاش وأديب أسحاق وغيرهم .

وفاته :

في نهاية المطاف بعد الترحال الطويل شرقا وغربا ، وبعد عمل دؤوب لا يعرف الملل أو الكلل ذهب جمال الدين إلى الآستانة بدعوة من السلطان عبد الحميد ووصل إليها عام ١٨٩٢ وعرض عليه منصب مشيخة الإسلام إغراء له فأبى ورفض . ومع استمرار إقامة جمال الدين خاف السلطان عبد الحميد منه على حياته . ومرض جمال الدين بالسرطان في فمه أثناء وجوده في الآستانة ثم وافته المنية عام ١٨٩٧ . ودفن هناك غير مأسوف عليه من السلطان ، ومنعت الجرائد العثمانية من تأبينه . ومع مر السنين كادت تضيع معالم مقبرته لولا أن قيّض

الله لها مستشرقاً أمريكياً ذهب إلى الآستانة عام ١٩٢٦م ونقب عن قبره حتى وجده فبناه وأحاطه بسور من حديد وكتب على أحد وجهي قطعة جميلة من الرخام اسم السيد جمال الدين وتاريخ ولادته ووفاته . وكتب على الوجه الآخر عبارة : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم . الخير الأمريكي المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦ » (أحمد أمين : زعماء الإصلاح : ص ١١٥)

٤ - الشيخ محمد عبده

(١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

ولد الشيخ محمد عبده سنة ١٢٦٦ هـ / ١٨٤٩م بمحلة نصر من مديرية البحيرة من أسرة رقيقة الحال وقد تلقى بعض تعليمه في الجامع الأحمدى بطنطا ثم بالجامع الأزهر وحصل على شهادة العالمية من الأزهر عام ١٨٧٧م . كان ميله إلى التدريس شديداً وقد قال عن نفسه . « إنما خلقت لكي أكون معلماً . وقد درس في الأزهر وفي دار العلوم كما اشتغل بالتدريس في المدرسة "السلطانية" في بيروت سنة ١٨٨٦م . وانتقل منها من مدرسة شبه ابتدائية إلى مدرسة عالية . ومن الكتب التي شرحها فيها "تهج البلاغة" و "ديوان الحماسة" و "إشارات ابن سينا" و "التهذيب" ومجلة الأحكام العدلية العثمانية . كما ألقى فيها دروس التوحيد التي تحولت بعد عودته لمصر إلى "رسالة التوحيد" (محمد عمارة ج ١ ص ٢٧)

ويعتبر الإمام الشيخ محمد عبده من أنصار الحركة الإصلاحية السلفية التي سبقت الإشارة إليها وكان داعية إلى الجامعة الإسلامية التي تزعمها أستاذه جمال الدين الأفغاني الذي كان يعتبر في نظر الإمام محمد عبده ناهضة العصر وأستاذ الجيل وبخاصة فيما يتعلق بالثورة الفكرية الإسلامية الصحيحة . وقد تأثر محمد عبده بآراء أستاذه وعمل معه . وكان أكبر تأثير على شخصية الإمام قبل اتصاله بجمال الدين الأفغاني هو تأثير الشيخ درويش خضر أحد أحوال أبيه . وكان رجلاً صوفياً طيب القلب ذكي الفؤاد . وقد تحدث محمد عبده نفسه عن ذلك الأثر الطيب الذي تلقاه في ريعان شبابه من الشيخ درويش خضر فقال :

» ولم أجد أمامي يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة . ومن قيود

التقليد إلى إطلاق التوحيد . وهو (هذا الشيخ) مفتاح سعادتني إن كانت لي سعادة في هذه الدنيا . وهو الذي رد لي ما كان غاب عني من غريزتي وكشف لي ما كان خافيا عني مما أودع في فطرتي » . (محمد رشيد رضا : ج ١ ص ٢٣) .
بيد أن تأثير جمال الدين الأفغاني عليه كان قويا . فقد كان الأفغاني الذي حضر إلى مصر سنة ١٨٧١م قوة دافقة لاتعرف الكلل أو الملل في سبيل إيقاض الأمة الإسلامية من سباتها وضعفها . وعند حضوره إلى مصر اتصل به محمد عبده وسعد زغلول وإبراهيم اللقاني وإبراهيم الهلباوي ومحمود سامي البارودي وأديب إسحاق وغيرهم . لكن كان محمد عبده أقربهم إلى نفس الأفغاني لما لمس فيه من سعة العقل وسمو النفس والحماسة للإصلاح . ويقول الإمام محمد عبده في تقدير أثر الأفغاني عليه :

« إن أبي وهبني حياة أشارك فيها عليا ومحروسا (وهما أخوان له كانا مزارعين) والسيد جمال الدين وهبني حياة أشارك فيها محمدا وإبراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين . . . » . بهذه القوة الدافقة عبر الشيخ الإمام عن تأثير أستاذه عليه . لقد جمع بين الشيخين وحدة الغرض والانسجام الروحي فتلازما وتحابا . وكان محمد عبده يرى كأستاذه أنه لاسبيل لإصلاح الأمة الإسلامية إلا بالعودة إلى الأصول الإسلامية الصحيحة لتجديد الإسلام وتصحيح العقيدة . وكون الإمام مدرسة فكرية ظلت تعمل وتعيش حتى اليوم . وهو لم يدع إلى الإصلاح نظريا عن طريق التأليف أو الخطب والمقالات كما يفعل بعض المصلحين بل كان يحول أفكاره في الإصلاح إلى عمل . ويحاول أن يجد لها طريقها إلى التنفيذ والتطبيق على الرغم مما لحق به من ظلم ونفي . وبالنسبة للتربية والتعليم فقد اشترك في تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية سنة ١٨٩٢م التي كانت تهدف لنشر التعليم وإعانة المنكوبين . وتولى رئاسة هذه الجمعية سنة ١٩٠٠م . وهي السنة التي أسس فيها جمعية إحياء العلوم العربية . فحققت ونشرت بعض التراث العربي الإسلامي الفكرية الهامة (محمد عمارة : ج ١ ص ٣٠) . وقد تعاون مع أستاذه في إصدار مجلة " العروة الوثقى " التي تدافع عن الإسلام والمسلمين وتعمل من أجل إعادة مجد الإسلام .

مدرسة الإمام :

لقد عمل الإمام بكل طاقته في سبيل نشر فكره ودعوته ورسالته نحو تنبيه

العقول وتنوير الأذهان وتحرير الفكر من قيد التقليد . وكان لأرائه وأفكاره أصداء قوية ترددت في مصر وفي خارجها . أما في مصر فقد ظهرت بفضل جهوده وتأثيره أربع مدارس لعبت دورا هاما في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية في مصر . فكانت المدرسة الاجتماعية التي حمل لواءها قاسم أمين . وكانت المدرسة السياسية التي حمل لواءها سعد زغلول . وكانت المدرسة الدينية التي برز من مجرمها الشيخ الأحمدى الظواهري في دعوته إلى إصلاح الأزهر وضرورة تطوير التعليم فيه وفقا لحاجات العصر وتقدم المعرفة . وكانت هناك المدرسة الفلسفية التي حمل لواءها مصطفى عبد الرازق الذي جمع بين القديم والحديث ، فكان أقربهم إلى روح أستاذه وعقليته . (عثمان أمين : ص ٢٤٣) . وقد ترجم رسالة التوحيد إلى الفرنسية .

أما في خارج مصر فكانت سوريا أكثر بلاد الشرق الأدنى تأثرا بالإمام . ويأتي في مقدمة تلاميذ الإمام في سوريا السيد " رشيد رضا " صاحب مجلة " المنار " الذي ارتبط اسمه باسم الأستاذ الإمام . وهناك أيضا شكيب أرسلان وعبد القادر المغربي وكرد علي . وفي شمال إفريقيا التي زارها الإمام نجد من أنصار مدرسته في الجزائر الشيخ " محمد بن الخوجة " والشيخ " عبد الحلیم بن سماية " . وفي إيران نجد الكاتب الفارسي " زكاء الملك " الذي كانت بينه وبين الإمام صلات فكرية وثيقة . وقد أثنى على الإمام محمد عبده بقوله : « كان الإمام محمد عبده هو العالم الصادق الوحيد في الإسلام كله وهو وحده الذي نفذ إلى روح الإسلام وعرف كيف يطبق مبادئه مراعيًا مطالب عصرنا » . (عثمان أمين : ص ٢٦١) .

وامتد صدى فكر الإمام إلى الهند وأندونيسيا وغيرها من بلاد الشرق الإسلامي . وقال جمال الدين الأفغاني يوم توديعه لمصر : « لقد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالما » .

جهوده العلمية والفكرية :

من أهم الآثار العلمية التي تركها الشيخ محمد عبده " شرح نهج الهمزاني " و " الإسلام وأثره على منتقديه " . وهي سلسلة مقالات نشرها في صحيفة المؤيد سنة ١٩٠٩ م . و " رسالة التوحيد " و " فلسفة الاجتماع والتاريخ " و " تاريخ

الثورة العربية " و " رسالة الرد على الدهريين " . وقد ألفها بالفارسية السيد جمال الدين الأفغاني وترجمها الإمام محمد عبده إلى العربية بمساعدة " عارف أفندي أبوتواب " أحد أصدقائه من الأفغان . كما كتب بعض الفصول في كتاب "تحرير المرأة " لقاسم أمين . وللإمام أيضا رسالة في نظام التربية والتعليم بمصر تناول فيها طرق التربية والتعليم . كما ترجم عن الفرنسية كتاب " التربية " لهربرت سبنسر .

آراؤه في التربية :

كان محمد عبده صاحب نظرة ثابتة مثالية تنشد الكمال والإصلاح. ولقد تأثرت نظريته للتربية بتجربته الفردية الخاصة. ومن أهم آرائه في التربية ما يأتي:

- ١ - التربية هي الطريق الوحيد للنهضة : اعتقد الإمام محمد عبده أن التربية هي البلمس الشافي لكل علة . واعتبر فقر العقول والتربية أشد ضروب الفقر . وفي نظره أن الإنسان إذا فقد التربية فقد كل شيء ، وأن الإنسان لا يكون إنسانا حقيقيا إلا بالتربية . وكان يرى أن الطريق الوحيد للنهضة والتجديد في العالم الإسلامي هو التربية وفي ذلك يقول : « . . إنني أدعو إلى التربية لأنني عرفت أية ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه اليوم وتقوم على غراس تغرسه اليوم وتقوم على تنمية السنين الطوال » .
- ٢ - العمل التربوي بديل العمل السياسي : آمن الإمام محمد عبده بقدرة التعليم على تكوين طبقة واعية مستنيرة تستطيع أن تحقق الحكم النيابي الصحيح. وكان يرى أن الجهل عقبة في طريق تحقيق الديمقراطية . وهو رأي سديد . وقد طالب بشدة بأن يكون العمل التربوي بديل العمل السياسي . وفي ذلك يقول : « إنني لأعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم كل همهم في السياسة. وإهمالهم أمر التربية الذي كان كل شئٍ وعليه كل شئٍ . إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الإسلام أكبر فائدة . . » (محمد عمارة : ص ١٥٦) .

- ٣ - مراقب التعليم : يرى الإمام محمد عبده أن الناس ينقسمون بالنسبة للتعليم إلى ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى: هي طبقة العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم.

الطبقة الثانية: هي طبقة الساسة ممن يتعاونون العمل للدولة في تدبير أمر الرعية وحمايتها من ضباط العسكرية وأعضاء المحاكم ورؤسائها ، ومن يتعلق بهم وأمور الإدارة على اختلاف مراتبهم .

الطبقة الثالثة: هي طبقة العلماء من أهل الإرشاد والتربية .

وفي نظره أنه يجب تحديد مايلزم لكل واحدة من هذه الطبقات من التعليم كما ونوعا . وهو يرى أن إرتقاء الناس بالتعليم من الطبقات الدنيا إلى العليا غير ممنوع . ويقول الإمام بوضوح : « ولا نريد بهذا التقسيم منع الآحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم » .

وكانت مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي ساهم الإمام في إنشائها وتولى رئاستها تعلم أبناء الطبقة الأولى من عامة الناس وأولاد الفقراء من أبناء أهل الصناعة والتجارة والزراعة . فهذه المدارس كما رآها الإمام ليست كمدارس الحكومة التي تعمل لتخريج الموظفين . ومن ثم ليست خاصة بالطبقة الثانية من الطبقات الثلاث التي أشرنا إليها . وهي ليست كالأزهر أو دار العلوم تعمل على تكوين العلماء وأهل الإرشاد والتربية ، ومن ثم فهي ليست خاصة بالطبقة الثالثة من الناس . ولقد حدد الإمام فلسفة مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية فقال : « .. لم تنشأ الجمعية لمقصد أعلى من هذا في مدارسها كأخذ الشهادات والاستعدادات للوظائف . بل من أهم مقاصدها أن تنزع من النفوس اعتقاد أن التعليم لافائدة فيه إلا الاستخدام في الحكومة . والجمعية توطن نفوس التلاميذ في مدارسها على أن يعمل الواحد منهم عمل أبيه بإتقان ويعيش مع الناس بالأمانة والاستقامة . فولد النجار يكون نجارا ، وولد الحداد يكون حدادا ، وولد الفراش يكون فراشا . والتربية والتعليم يساعدان على إتقان عمله وصناعته . » . ويعلق جامع الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده على هذه الآراء بقوله : « والأمر المؤسف أن الاستاذ الإمام كان من أنصار طبقية التعليم » . (محمد عمارة : ص ١٦١) . لكن ينبغي ألا نحكم على آراء الرجل بمعايير عصرنا . فقد كان التعليم طبقيا بالفعل آنذاك . كما أنه ينبغي أن ننظر إلى حقيقة هذه الآراء في اهتمام الإمام بتعليم الفقراء . وقد كانوا محرومين من

التعليم آنذاك . وما كان ليستطيع أن يحقق لهم بالموارد المتاحة آنذاك أكثر مما فعل . بل إنه عبر عن رأيه في أنه كان يريد أن يعمم مثل هذا التعليم في البلاد لكل الطبقات فيقول : « كنت أحب أن يكون هذا التعليم عاما في البلاد منبثا في جميع الطبقات . ثم يتسنى بعده لكل طبقة أن تتناول من العلوم والفنون واللغات في المدارس الثانوية والعالية ما هي مستعدة له . هذا التعليم سلم يرتقي عنه الغني إلى التعليم العالي ويجعل الفقير على مقربة من الغني في الفكر والخلق . فإما أن يجد فيلحقه وإما أن يحسن الاستفادة منه بخدمته ومساعدته في أعماله بالصدق والأمان . . فهذا التعليم لا يستغني عنه أحد . وهذا يوضح أنه كان ينظر إلى هذا التعليم على أنه تعليم عام مشترك للجميع كما نفهمه اليوم .

٤ — على الأغنياء بذل المال في إنشاء المدارس : يرى محمد عبده أن الأغنياء يجب أن يبذلوا من مالهم في سبيل نشر العلم والتعليم . ويرى أن عليهم دورا هاما في هذا السبيل نحو الفقراء . وهو ما يلقي الضوء على مزيد من فهم رأيه السابق في مراتب التعليم . يقول الإمام : « إن على الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم وتطاول الأيدي الظالمة إليهم . . أن يتآلفوا ويتحدوا ويبذلوا من أموالهم في سبيل افتتاح المدارس والمكاتب واتساع دوائر التعليم حتى تعم التربية وتنبت في البلاد جراثيم العقل والإدراك ، وتنمو روح الحق والإصلاح . وتتهذب النفوس ويشتد الإصلاح بالمنافع والمضار . . فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بني غيرها من الأمم . . وعلى الحكومة في جميع ذلك أن تسن قوانين التعليم وتلاحظ أحوال المعلمين والمتعلمين .

٥ — إصلاح الأزهر : من الجهود الهامة المشكورة للإمام محمد عبده محاولاته المخلصة من أجل إصلاح الأزهر . فقد درس في الأزهر وعرف نقط الضعف في مناهجه وبرامجه التعليمية . وقد وضع خطة للإصلاح حدد فيها مدة الدراسة ، والاجازات والعطلات . ووضع نظاما للتدريس وأدخل نظام الامتحانات السنوية . وهو ما لم يكن موجودا من قبل مما أثار سخط الطلبة عليه . وطالب بإلغاء الكتب القديمة والشروح العقيمة والحواشي ، وأن تستبدل بأخرى أكثر نفعاً وأقرب إلى مدارك الطالب . واهتم بالعلوم النقلية . كما طالب بإدخال العلوم العقلية من رياضيات وفلسفة واجتماع وتاريخ . وقد عارض شيوخ الأزهر خطته

الإصلاحية ، كما ثار الطلبة ضدها لأنها فرضت عليهم امتحانات سنوية كما أشرنا . وكانت الامتحانات قبل ذلك بدون ضابط ومتروكة للشفاعات والرجاء والوساطة . وتأخر العمل بخطته . لكنها نبهت الآذان وفتحت الأعين على الطريق الذي يجب أن يسير فيه العمل لتطوير الأزهر .

٦ - تعليم المرأة : كان الإمام محمد عبده من المؤمنين بضرورة تعليم المرأة وتنوير عقلا شأنه شأن سلفه رفاة الطهطاوي . فقد رأى أن المرأة قد ضرب بينها وبين العلم بما يجب عليها في دينها أو دنياها . ونادى بتكوين جمعية نسائية تقيم المدارس لتعليم البنات . وقد دافع عن تعليم المرأة مع تلميذه قاسم أمين فيما جاء بكتابه " تحرير المرأة " و " المرأة الجديدة " عن تعليمها .

٧ - الدعوة إلى تحرير الفكر والفهم الصحيح للدين : لقد عبر محمد عبده بوضوح عن خلاصة نهجه في الإصلاح بالدعوة إلى تحرير الفكر والفهم الصحيح للدين . وفي ذلك يقول : « إرتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلف والرجوع في كسب معرفة إلي ينابيعها الأولى . . » (أحمد أمين : ص ٣٢٧) . ويقول أيضا : « إني وهبت حياتي لإصلاح العقيدة الإسلامية وتنقيتها من الخرافات والأوهام . . . » .

٨ - الدعوة إلى إصلاح أساليب اللغة العربية : يواصل الإمام محمد عبده كلامه السابق فيقول : « والأمر الثاني إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المخاطبات الرسمية أو في المراسلات » (أحمد أمين : ص ٣٢٧) .

وفاة الإمام :

توفي الإمام محمد عبده في مساء يوم ٢١ يولييه سنة ١٩٠٥م عن سبعة وخمسة عاما . ودفن في مقبرة العفيفي بالقاهرة ونقش على قبره ما يلي :

« هو الحي الباقي »

قد خططنا للمعالي مضجعا . . . ودفنا الدين والدنيا معا

الاتجاهات التربوية في العصور الحديثة :

شهدت البلاد العربية في العصور الحديثة عدة اتجاهات تربوية هامة من أبرزها :

أولاً : إقتباس النظم التعليمية الحديثة :

ترتب على إهمال العثمانيين للتعليم في الدول العربية أن ركدت المدارس وذبلت . وقد انسحب ذلك على التعليم الديني الذي تخلف بصورة واضحة عما كان عليه من قبل من عناية بالعلوم العقلية إلى جانب العلوم النقلية . وانتهى الأمر بالتعليم الديني أن تركزت عنايته على العلوم النقلية في أضيق نظام . وعندما أرادت الدول العربية مع بدء اليقظة الوطنية إرساء قواعد نهضتها كان من أهم ما انتهت إليه الأنظار هو ميدان التعليم . وفي ظل الوضع الذي كان عليه حال معاهد التعليم التقليدية في البلاد العربية الإحساس بأنها لاتفي بمطالب الحياة الجديدة ، اتجهت الجهود إلى اقتباس النظم التعليمية المتقدمة في أوروبا لاسيما فرنسا . وقد ضرت الدولة العثمانية نفسها مثلاً للبلاد العربية باقتباسها لنظم التعليم الفرنسية في محاولة تطوير العلم بها . وكانت مصر وهي أول دولة عربية انفصلت عن الدولة العثمانية أول من طبق هذا النظام المقتبس من المدارس الفرنسية . وكان هذا بداية لثنائية تعليمية بين التعليم الحديث والتعليم الديني التقليدي . وظلت هذه الثنائية لفترة طويلة تتحدى حركات الإصلاح . وكانت الصخرة التي أعيت ناطحيها واستمرت فترة طويلة من الزمن حتى سنة ١٩٦١م عندما نظم التعليم الديني في مصر .

ومن المعروف أن هذه الثنائية ترجع إلى عهد محمد علي باشا الكبير الذي ولى عرش مصر ١٨٠٥ وكان قد جاء إلى مصر جندياً في الجيش الذي أرسلته تركيا إلى مصر بإعتبارها تابعة لها لإخراج الفرنسيين منها ١٨٠١م . ولم تمض أربع سنوات حتي استولى على مصر وأصبح والياً عليها . وكان محمد علي طموحاً وأراد أن يبنى من مصر دولة عصرية حديثة تضاهي أوروبا . وعول على برنامج شامل النهضة في الجيش والإدارة والتعليم والصناعة والزراعة . ووجد أن الإهتمام بالتعليم يجب أن يكون أساس هذه النهضة الشاملة . وكانت نظرة ثاقبة منه وإن كانت موجهة لخدمة الجيش . فأنشأ المدارس العالية والابتدائية، وجلب

الأساتذة المتخصصين فى كل العلوم والفنون من فرنسا ، وأرسل البعثات التعليمية إلى الخارج ، لاسيما فرنسا ، لتكوين الكوادر المصرية ، واهتم بترجمة الكتب الأوربية ونقل معارف الأوربيين فى العلوم والآداب ، وأنشأ المطابع لطباعتها كما أنشأ الصحافة لتكون عوناً على تثقيف الشعب وتنويره . والغريب أن هذه الخطوات التى اتخذها محمد على فى سبيل بناء الدولة العصرية الحديثة تشبه إلى حد كبير ما فعله الإمبراطور مييجى فى اليابان لبناء الدولة الحديثة وإليه يرجع الفضل فى نهضتها . ومع أن محمد على كان سابقاً لمييجى بعدة عقود من الزمان إلا أن نهضة مصر لم تستمر بعد محمد على فى حين أنها آتت أكلها وأينعت فى اليابان . ولله فى خلقه شئون .

وكان التعليم الحديث بالمجان فى كافة المدارس وكانت الحكومة هى التى تتولى الإنفاق على المدارس والتلاميذ وتتولى أمور مسكنهم وملبسهم ومأكلهم وتجربى عليهم الأرزاق والمرتبات . وعلى الرغم من ذلك فإن أفراد الشعب نفروا من إرسال أبنائهم إلى المدارس فى أول الأمر لدرجة أن الحكومة كانت تلجأ إلى الإجبار والقسر . وقد يرجع ذلك إلى ارتباط المدارس بالجيش وتنظيمها تنظيمياً مشابهاً له فى القوانين ونظام العمل والألقاب والرتب العسكرية .

وقد إرتبط إقتباس النظم التعليمية بإرسال البعثات التعليمية إلى فرنسا ليعمل المبعوثون بعد عودتهم بالتدريس فى هذه المدارس والإشتغال بترجمة الكتب فى المواد المختلفة اللازمة لها . وكان رفاة رافع الطهطاوي رائد حركة الترجمة والنشر . وكان له فضل كبير فيها . وقد ترتب على إقتباس النظم التعليمية الغربية الحديثة علمانية المدارس وبداية التعليم المدني ووجود سلطة حكومية مدنية للإشراف على التعليم .

خلف من بعد محمد على خلف لم يهتموا بأمر التعليم فقد كان عباس (١٨٤٨ - ١٨٥٤) وسعيد (١٨٥٤ - ١٨٦٣م) من دعاة الرجعية وأغلقت المدارس فى عهدهما . وعندما ولى إسماعيل بعدها عرش مصر ١٨٦٣ لم يكن بها سوى مدرسة إبتدائية واحدة ومدرسة حربية وأخرى طبية وثالثه للصيدلة . وأوقفت البعثات واستغنى عن خدمات من عاد من رجالها . وكان إسماعيل طموحاً مثل جده محمد على وترسم خطاه فى بناء نهضة شاملة تكون مصر بوجها قطعة من أوربا فأعاد للبعثات سيرتها الأولى . وأعيدت المدارس العالية

التي كانت فى عهد محمد على مثل الهندسة والطب وزيد عليها مدرسة الحقوق وكانت تسمى مدرسة الإدارة والألسن . وأنشئت مدرسة دار العلوم فى ١٨٧١ كما أنشئت أول مدرسة لتعليم البنات فى حى السيوفية بالقاهرة سنة ١٨٧٣ . كما أنشأت الحكومة بجانب هذه المدارس كثيراً من المدارس الصناعية والخصوصية كمدرسة المساحة والمحاسبة والزراعة ومدرسة العميان والبكم . أما المدارس الابتدائية فقد زاد عددها من مدرسة واحدة إلى أربعين مدرسة، كما أنشأت الحكومة عدة مدارس ثانوية منها مدرسة رأس التين بالإسكندرية عام ١٨٦٢ والمدرسة الخديوية بالقاهرة عام ١٨٦٨ . وأعادت مجلس المعارف (ديوان المدارس) عام ١٨٦٨ وهو المسئول عن إدارة المدارس . وكان قد ألغاه سعيد . وأنشئت دار الكتب المصرية ١٨٧٠ لتكون عوناً على النهضة العلمية والثقافية . كما أنشئت الجمعيات العلمية المختلفة لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر (عمر الدسوقي ص ٧٠ - ٧٥) . وجاء من بعد اسماعيل توفيق الأول (١٨٧٩ - ١٨٩٢) . وفى بداية عهده وقعت مصر تحت وطأة الاحتلال البريطانى . وبعد توفيق جاء عباس الثانى (١٨٩٢ - ١٩١٤) . ومن بعده جاء السلطان حسين كامل (١٩١٤ - ١٩١٧) ثم الملك فؤاد الأول (١٩١٧ - ١٩٣٦) ثم ابنه الملك فاروق الأول (١٩٣٦ - ١٩٥٢) وفى آخر حكمه قامت ثورة الجيش عام ١٩٥٢ وتنازل عن العرش وغادر مصر منهياً بذلك حكم أسرة محمد على . وعام ١٩٥٣ أعلنت الجمهورية فى مصر بعد أن كانت تحكم ملكياً وراثياً طيلة ما يقرب من قرن ونصف من الزمان .

ثانياً : التعليم المصرى والاحتلال البريطانى (١٨٨٢ - ١٩٢٢ م) :

منذ بداية الاحتلال البريطانى فى مصر عام ١٨٨٢ لم يكن له سند قانونى لوجوده حتى قيام الحرب العالمية الأولى عندما أعلنت بريطانيا فرض الحماية على مصر . وكانت الإدارة البريطانية خلال معظم فترة الاحتلال تتركز فى شخصية "سير ايفلين" الذى عرف فيما بعد باللورد "كرومر" . فقد عين قنصلاً عاماً على مصر فى سبتمبر ١٨٨٣ حتى استقالته سنة ١٩٠٧ . وكان خلال هذه الفترة الحاكم الفعلى لمصر . وبالنسبة لسياسته التعليمية فقد اتبع خطى السياسة التعليمية التى فرضها (ماكولى) على الهند . وقد عبر بذلك صراحة عندما قال "إن الإنجليز فى مصر قد ساروا على نفس المبادئ التى نادى بها ماكولى" .

وكان ماكولى يعتقد كما عبر عن ذلك سنة ١٨٣٥ أن الهدف الرئيسى للحكومة (فى الهند) هو نشر العلوم الأوربية بين الهنود واستخدام الإنجليزية كلفة للتعليم فى المدارس لأنها أعلى اللغات الأوربية وتوجيه ميزانية التعليم للإتفاق على التعليم الإنجليزى وحده . وكان ماكولى معروفا بتعصبه الشديد ضد الشرق والشرقيين لا سيما المسلمين منهم . وقد عبر عن ذلك عندما قال إن اللغات الشرقية لا تستحق أى اهتمام وأن رفا واحدا من مكتبة أوربية يساوى كل التراث الوطنى للهند وجزيرة العرب . وكان ماكولى يستهدف من سياسته التعليمية خلق طبقة من الهنود هم هنود فى اللون والدم ولكنهم إنجليز فى الفكر والذوق والخلق والعقلية . وقد أعجب كرومر بسياسة ماكولى هذه . وعلى الرغم من أنه يتفق مع ما وجه من نقد إلى هذه السياسة على أنها كانت كارثة بالنسبة للهند ، فإنه من ناحية أخرى يقول إن سياسة ماكولى كانت حكيمة وأنها كانت السياسة الجديرة بشعب متحضر .

السياسة التعليمية للاحتلال : اعتمدت سياسة كرومر التعليمية على عدة مبادئ رئيسية من أهمها :

١- استخدام اللغة الإنجليزية كلفة تعليم :

فقد عمل كرومر على اتباع سياسة تعليمية فى مصر مماثلة لسياسة رفيقه ماكولى فى الهند فعمل على إدخال اللغة الإنجليزية كلفة تعليم منذ سنة ١٨٨٨ واحلالها محل اللغة العربية ومحل اللغة الفرنسية التى كانت اللغة الأجنبية الأولى فى مصر ولغة التخاطب بين كثير من المصريين والأجانب من مختلف الجنسيات . كما عمل الإنجليز على إضعاف شأن اللغة التركيه التى كانت تدرس باهتمام حتى ذلك التاريخ وهو عام ١٨٨٨ . وأصبحت بعدها تدرس اختياريا لمن يرغب فى دراستها . ويقول "مستر همفرى بومان" وهو شاهد عيان إنجليزى عمل فى مصر كمفتش فى وزارة المعارف فى الفترة من ١٩٠٣ - ١٩١١ : إن المواد التى كانت تدرس باللغة العربية هى اللغة العربية والدين الإسلامى . ويعلق على ذلك بقوله إن استخدام الإنجليزية كلفة تعليم كان بالنسبة لمدارس الحكومة مبدأ خطأ بصورة أساسية . لقد كانت اللغة العربية تعامل كلفة أجنبية بل إن الأسوأ من ذلك هو أن عدد الساعات الأسبوعية التى كانت مخصصة لتعليمها خفض

إلى الحد الأردني وكانت أقل من المدة التي كان تخصص لتعليم اللغة الإنجليزية كلفة أجنبية .

وكانت المدارس الثانوية والمعاهد العالية تضم أعدادا كبيرة من المدرسين الإنجليز . وقد ظل استخدام اللغة الإنجليزية كلفة تعليم حتى ٢٤ سبتمبر عام ١٩٠٧ عندما بدأ إحلال اللغة العربية بالتدرج محل اللغة الإنجليزية . وكانت هذه السنة هي السنة التي غادر فيها كرومر مصر، كما كانت السنة التي شكلت فيها لجنة تأسيس الجامعة المصرية .

٢- تجميد النمو التعليمي :

فعلى الرغم من أن عدد سكان البلاد زاد من حوالى ٧ ملايين سنة ١٨٨٢ الى ما يزيد قليلا على ١١ مليوناً سنة ١٩٠٧ وأن ميزانية الدولة خلال نفس الفترة زادت من حوالى ٩٤ مليوناً الى ١٦٨ مليوناً فإن سياسة الإنجليز عملت على تجميد الموقف التعليمي مما أدى إلى انتشار الجهل . لقد ارتفعت نسبة الأمية بين الشعب من ٧ ٨٣٪ بين الذكور سنة ١٨٨٢ الى ٩٣٪ سنة ١٩٠٧ . يضاف إلى ذلك أن عدد المدارس فوق المرحلة الأولى زاد من ٣٨ مدرسة الى ٥٨ مدرسة من بينها أربع مدارس فقط ثانوية وست مدارس عالية وهو نفس العدد الذى كان موجوداً منذ ٢٥ سنة مضت . وشمل التقييد أيضاً التعليم الفنى فقد حاربه سلطات الاحتلال البريطانى لاسيما الصناعى منه بحجة أن مصر بلد زراعى ولإبقاء مصر مزرعة ومصدراً للمواد الخام التى تحتاجها الصناعات البريطانىة لاسيما لمصانع لانكشير . يضاف إلى ذلك أن تبقى مصر سوقاً رائجة لتصريف المنتجات الصناعية البريطانىة .

٢- تقييد الفرص التعليمية بفرض المصروفات المدرسية :

فقد كانت كل أنواع التعليم قبل الإحتلال مجانية فى المدارس الحكومية ولكن بعد الإستقلال فرضت المصروفات المدرسية على كل أنواع المدارس الرسمية . وفى تبرير هذه السياسة يقول لورد كرومو " إن أحسن اختبار لمعرفة ما إذا كان المصريون يرغبون حقيقة فى التعليم هو تأكيد مدى استعدادهم لأن يدفعوا المال فى مقابلته . ويقول أيضاً إن من الصعوبات الرئيسة فى سبيل سياسة تعليمية متنورة فى مصر فى السنوات الأولى من الإحتلال كان يتمثل فى وجود

قلة من الباشوات . ولا شك فى أنه لو كان للإنجليز يد حرة فى تصرف الأمور لكان هناك تقدم كبير أكثر مما كانت عليه الحال " ونقول رداً عليه ألم يكن كرومر نفسه حاكم مصر ؟ فما الذى قيد حريته فى تصرف الأمور ؟

وربما كان من أحسن التفسيرات على تقييد البريطانيين فى مصر هو أن الإدارة البريطانية بدت تعتقد أن المثقفين المصريين يمكن أن يكونوا عنصراً مزعجاً لها . ولذلك عملت على تحويل نظام التعليم برمته إلى تخريج جيل من الكتبة وصغار الموظفين الحكوميين بأقل مستوى من التعليم . وفى تعليقه لطف حسين يقول إن الإنجليز يقترون التعليم على أبنائهم فى بلادهم فما بالك بأبناء المستعمرات ؟

٤- ربط الوظائف بالشهادة :

عملت السياسة الإنجليزية فى مصر على إستحداث الشهادات الدراسية وربط الوظيفة بالشهادة . فقد أنشئت الشهادة المدرسية الثانوية سنة ١٨٨٧ ، والابتدائية سنة ١٨٩١ ، والشهادة العالية للوظائف الملكية الصغرى سنة ١٩٠٥ . وأصبح الحصول على الشهادة من أجل الحصول على الوظيفة الحكومية . وهذا هو غاية ما كان يتطلع إليه الشباب فى مصر . لقد كتب " مستر مان " الخبير البريطانى فى تقريره المشهور لوزارة المعارف عام ١٩٢٨ يقول ليس فى العالم على الأرجح قطر يتمتع فيه موظف الحكومة بمنزلة كبيرة بين الأهالى كالتى يتمتع بها الموظف فى مصر . وقد لا يوجد فى أي بلد آخر آباء يضحون بالشئ الكثير فى سبيل جعل أبنائهم موظفي الحكومة بأى شكل كان .

٥- تسلط الإدارة :

فقد إعتد كرومر فى إدارة التعليم على القس الاسكتلندى "دوجلاس دانلوب " الذى عينه مفتشاً عاماً فى وزارة المعارف فى يناير سنة ١٨٩٠ . وفى مارس ١٨٩٧ رقى إلى سكرتير عام ثم إلى مستشار فى ٢٤ مارس سنة ١٩٠٦ حتى عام ١٩١٩ . وإتسمت إدارته للتعليم بالشدة والصرامة والتعليمات الشديدة وكان يؤمن بالمثل الذى يقول " إن الألفة تولد الإحتقار " . ولذلك كان يبدو بمظهر التعالى والكبرياء حتى يحمل الآخرين على هيئته وإحترامه وبعبارة أخرى لقد تنكر دانلوب فى إدارته للتعليم فى مصر للمبادئ الحرة الديمقراطية

التي تسيير عليها إدارة التعليم فى بلده . ولم يكن مخلصا لمصر بل كان إستعماريا مستبدا وأمكن له السيطرة على إدارة التعليم بيد من جديد .

٦- التقييد على التعليم : عملت سياسة الإحتلال على ضغط ميزانية التعليم على الرغم من مغالطات لورد كرومر . فعلى الرغم من الضائقة المالية التى كانت تمر بها البلاد قبل الإحتلال فإن ميزانية التعليم ظلت فى اطراد مستمر حتى بداية الإحتلال . فقد كانت الميزانية فى ١٨٧٨/٧٧ حوالى ٣٥ ألف جنيه (وليست ٢٩ ألف جنيه كما ذكر كرومر) زيدت إلى حوالى ٤٥ ألف جنيه سنة ١٨٧٨ . ١٨٧٩ ، وحوالى ٥٩ ألف جنيه سنة ١٨٨٠/٧٩ ، وحوالى ٨٣ ألف جنيه سنة ١٨٨١/٨٠ وحوالى ٨٨ ألف جنيه سنة ١٨٨٢/٨١ ثم نقصت إلى ٧٥٦ ألف جنيه عام ١٨٨٣/٨٢ . وبينما كانت ميزانية التعليم تعادل ما يقرب من ١٪ من ميزانية الدولة سنة ١٨٨٢ فإن هذه النسبة نقصت إلى ٧٠٪ من ميزانية الدولة - رغم زيادتها الرقمية - عام ١٨٩٠ . وفى سنة ١٩٠٠ أى بعد ١٨ عاما من الإحتلال وصلت النسبة إلى حوالى ١٪ أى إلى ما كانت عليه تقريبا فى بداية الإحتلال . وهذا سير " ألفريد ميلنر " وهو رجل إنجليزى كان يعمل وكيلا لوزارة المالية فى مصر يشير إلى إتفاقية لندن سنة ١٨٨٥ التى قامت على أساس تقرير إشتراك فيه " لورد كرومر " فيقول « إن هذه الإتفاقية قد خفضت بدرجة كبيرة ميزانية وزارة المعارف العمومية » .

سعد زغلول وسلطات الإحتلال :

منذ تولى سعد زغلول زعيم الحركة الوطنية فيما بعد وزارة المعارف سنة ١٩٠٦ أصبح التعليم ميدانا للمعارك بينه وبين السياسة البريطانية . وكان هذا الصراع يمثل قوة مد الحركة الوطنية فى مصر ممثلة فى زعيمها الذى استطاع أن يحقق لها الانتصار فى عدة جبهات . أولها فى جبهة إحلال اللغة العربية كلفة تعليم بدلا من الإنجليزىة منذ عام ١٩٠٧ . وثانيا فى جبهة ميزانية التعليم التى إرتفعت سنة ١٩١٠ إلى حوالى ٣٪ من ميزانية الدولة بعد أن كانت ٧٠ سنة ١٨٩٠ . وثالثا فى جبهة مجانية التعليم فقد ألغيت مجانية التعليم فى عهد الإحتلال واستطاع أن يخصص بعض الأماكن المجانية لتعليم بعض التلاميذ فى التعليم الثانوى إلا أن مجانية التعليم لم تتحقق بصورة كاملة بالنسبة للتعليم

الإبتدائي إلا سنة ١٩٤٤ وفى التعليم الثانوى سنة ١٩٥١ .

ثالثا : التعليم فى عهد الإستقلال : (١٩٢٢ - ١٩٥٢)

إنتهت الثورة الوطنية بزعامة سعد زغلول سنة ١٩١٩ بحصول مصر على استقلالها سنة ١٩٢٢ عندما رفعت عنها الحماية البريطانية . وصدر بعضها بعام أول دستور مصرى مكتوب نص على إلزامية التعليم ومجانيته فى المدارس العامة . وبدأت تشهد مصر نهضة تعليمية كبرى فى ميدان تعليم الصغار وتعليم الكبار على السواء . فكانت المدارس تفتح أبوابها ثلاث مرات يوميا مرتين فى الصباح وللصغار ومرة ثالثة للكبار فى المساء . وكان من أهم التطورات التعليمية التى شهدتها البلاد فى تلك الفترة مشروع تعميم التعليم الإلزامى وتوحيد مدارس المرحلة الأولى وتطوير التعليم الثانوى وظهور حركة التربية الحديثة وإستخدام الخبراء الأجانب والإهتمام بإعداد المعلمين وإنشاء الجامعات وظهور الإتجاهات التعليمية المتميزة وتطوير الأزهر وهو ما ستفصل الكلام عنه فى السطور التالية .

١- مشروع تعميم التعليم الإلزامى سنة ١٩٢٥ :

عندما فكرت وزارة المعارف فى تعميم مشروع التعليم الأولى كان يشرف على مراقبة التعليم الأولى الشيخ عبد العزيز جاويش . ولقد إستهدف هذا المشروع تعميم التعليم الإلزامى للذكور والإناث على السواء بين السابعة والثالثة عشرة . وحدد للإنتهاء من المشروع مدة ٢٣ سنة تنتهى سنة ١٩٤٧ ويتكلف تنفيذه ثلاثة ملايين من الجنيهات تحمّلها كل من وزارة المعارف ومجالس المديرية . الأولى تدفع مرتبات المدرسين والعاملين والثانية تدفع تكاليف الأبنية والتجهيزات . وقد بنى المشروع على أساس إستخدام المدرسة دورتين فى اليوم الواحد . وأنشئ نوع جديد من المدارس عرف بالمدارس " الإلزامية " .

وكانت البداية ناجحة وقوية للمشروع فقد أنشئت فى أول عام من تنفيذه ٧٦٢ مدرسة إلزامية . ولكن ما يلبث أن بدأت المشكلات تظهر فى الأفق لاسيما المالية منها . وإنتهى الأمر بفشل المشروع . وفى عام ١٩٤٧ وهو العام الذى كان مقدر فيه أن يتم تعميم الإلزامى كان عدد التلاميذ الذين

يتلقون تعليماً في المرحلة الأولى ثلاثة أرباع مليون تلميذ من بين ثلاثة ملايين تلميذ في سن المدرسة .

لقد كتب نجيب الهلالي عام ١٩٤٣م في تقريره المشهور عن إصلاح التعليم وكان عندها وزيراً للمعارف يقول إنه لم يُمنَ أي نوع من أنواع التعليم بمثل الفشل الذي مُنِيَ به التعليم الإلزامي . وكان السبب الرئيسي لهذا الفشل في نظره هو قصر مدته بما يقدمه من تعليم نصف يومي هزيل .

توحيد مدارس المرحلة الأولى :

في ظل الظروف التاريخية لتطور التعليم في مصر تعددت مدارس المرحلة الأولى منه . فكان هناك المدارس الابتدائية التي أنشئت عام ١٨٣٢ باسم مكاتب " المبتديان " . وظلت منذ نشأتها الطريق المعبد إلى التعليم الثانوي ثم الجامعي . وإلى جانب هذا النوع من المدارس كانت هناك المدارس الأولية والمدارس الإلزامية التي جاء بها مشروع التعليم الإلزامي عام ١٩٢٥ وكانت تابعة لوزارة المعارف آنذاك وكان هناك ما يسمى بالمكاتب العامة وكانت تابعة لمجالس المديرية آنذاك . وكانت كل هذه المدارس على عكس المدارس الابتدائية بالمجان . ولا تدرس بها لغة أجنبية ، ولم تكن توصل للتعليم الثانوي بل كانت مدارس منتهية . وهذا الوضع كان يفتقر بوضوح إلى تكافؤ الفرص التعليمية لأبناء الشعب ويعكس طبقيّة الوضع الاجتماعي في البلاد . وظل الوضع على هذا النحو حتى عام ١٩٥١ عندما توحدت كل مدارس المرحلة الأولى في مدرسة واحدة إلزامية مجانية عرفت باسم المدرسة الابتدائية . وكان وزير المعارف آنذاك طه حسين وإليه يرجع الفضل في ذلك . فهو بلا شك مفجر شعبية التعليم وجماهيرته في مصر .

٢- تطوير التعليم الثانوي العام :

كان التعليم الثانوي العام منذ نشأته في مصر يؤهل للتعليم العالي . ولذلك عرفت مدارسه في أول نشأتها بالمدارس التجهيزية أي التي تجهز أو تعد للتعليم العالي . وكان إنشاء أول مدرسة تجهيزية بالقاهرة عام ١٨٢٥ . وكانت مدرسة وحيدة تضم ١٥٠٠ تلميذ وكان بجانبها مدرسة أخرى في الإسكندرية تضم ٥٠٠ تلميذ . وقد تطور التعليم الثانوي صعوداً وهبوطاً مع تطور الحياة السياسية في

البلاد . وكان بموجب قانون ٢٦ لسنة ١٩٢٨ ينقسم إلى مرحلتين : مرحلة الكفاءة ومدتها ثلاث سنوات ومرحلة البكالوريا ومدتها سنتان . وكانت الدراسة في مرحلة الكفاءة عامة موحدة مشتركة لجميع التلاميذ . أما مرحلة البكالوريا فكانت تتشعب إلى شعبتين إحداهما أدبية والأخرى علمية .

وفى عام ١٩٣٥ أصدر أحمد نجيب الهلالي - وكان وقتها وزيرا للمعارف - تقريره المشهور عن التعليم الثانوى : عيوبه ووسائل إصلاحه . وكانت نتيجة هذا التقرير إعادة تنظيم التعليم الثانوى وذلك بتقسيمه إلى مرحلتين : المرحلة الأولى عرفت بإسم مرحلة الثقافة العامة مدتها أربع سنوات تنتهى بالحصول على شهادة الثقافة العامة والمرحلة الثانية عرفت بإسم " المرحلة التوجيهية " مدتها سنة واحدة يتخصص الطالب فيها في إحدى الشعب الثلاث : الأدبية والعلمية والرياضية وتنتهى للحصول على الشهادة التوجيهية التى كانت توجه صاحبها أو تؤهله للإلتحاق بالجامعة . وقد أصبح التعليم الثانوى مجانيا عام ١٩٥١ بموجب القانون رقم ١٤٢ . وكان ذلك بفضل طيب الذكر طه حسين الذى كان وزيرا للمعارف آنذاك .

وفى عام ١٩٥٣ أعيد تنظيم التعليم الثانوى (قانون ٢١١) فقسمت المرحلة الثانوية إلى مرحلتين : المرحلة الإعدادية العامة ومدتها أربع سنوات والمرحلة الثانوية ومدتها ثلاث سنوات . ثم أعيد تنظيم المرحلة الإعدادية عام ١٩٥٧ بموجب قانون رقم ٥٥ وأصبحت مدتها ثلاث سنوات فقط . وهكذا استقر وضع التعليم الثانوى على مرحلتين إحداهما إعدادية مدتها ثلاث سنوات من سن ١٢-١٥ والأخرى ثانوية عامة مدتها ثلاث سنوات من سن ١٥-١٨ تنتهى بالحصول على شهادة الثانوية العامة التى تؤهل صاحبها للإلتحاق بالتعليم الجامعى والعالى . وهو الوضع القائم حاليا .

ومن العرض السابق يتضح أن حركة تطور التعليم الثانوى فى مصر ومحاولات إصلاحه فى الماضى كانت تتمركز فى إجهتين لهدفين أو غرضين .

الإجهاد الأول : تحرير علاقة المدرسة الثانوية بالجامعة ومحاوله كسر حدة هذه العلاقة مع المحافظة بالطبع على وجود علاقة وظيفية بينها وبين الجامعة فى نفس الوقت .

الإتجاه الثانى : تحريك التعليم الثانوى من حيث أهدافه ووظائفه ومحتواه من أجل إعداد الشباب للدخول فى معترك الحياة المتغيرة من حولهم .

وفى الإتجاه الأول ظهرت جهود سنة ١٩٣٥ على يد نجيب الهلالى والتى ضمنها تقريره المشهور عن " التعليم الثانوى عيوبه ووسائل إصلاحه " . كما ظهرت قضية العمومية والتخصص فى المدرسة الثانوية بمعنى أن المدرسة الثانوية هل هى مدرسة أكاديمية متخصصة ؟ أم أنها مدرسة للتربية والثقافة العامة ؟ . ومن هنا نشأت مرحلة الثقافة العامة والسنة التوجيهية فى المدرسة الثانوية فى مرحلة ما من تطورها . وقد إستمر فى هذا الإتجاه إلى أن ظهرت فكرة المدرسة الإعدادية أو المتوسطة سنة ١٩٥٣ لتكون مرحلة للثقافة العامة ، وأصبحت المدرسة الثانوية مرحلة متخصصة مدتها ثلاث سنوات فى أغلب البلاد العربية . كل هذا ونحن إلى اليوم مازالنا ندور فى هذا الإتجاه عن العلاقة السليمة المنشودة بين المدرسة الثانوية وبين التعليم الجامعى والعالى . وفى هذا الإتجاه الثانى ظهرت محاولات وتجارب عديدة لخلق الصفة الأكاديمية البحتة عن التعليم الثانوى وتطويره بحيث يقبل فكرة " العمل والدراسات العملية والتطبيقية وفكرة إعداد الشباب للحياة وليس للجامعة " وهنا ظهرت على سبيل المثال فكرة التعليم الثانوى الفنى بأنواعه المختلفة ، والمدرسة الثانوية التجريبية ، كما ظهرت فكرة المدرسة الإعدادية أو المتوسطة الفنية والعملية والتجريبية .

ويمكننا أن نخرج من دراسة تطور التعليم الثانوى فى البلاد العربية بنتجتين أو ملاحظتين .

١ - أن الإتجاه الأكاديمى كان دائما هو المسيطر . وأن سلطان الجامعة كان أقوى من أى سلطان ، وأن تطلعات الشباب ومعهم الآباء إلى جانب التركيب الإقتصادى والاجتماعى قد جعل لهذا التعليم الأكاديمى المركز الأول .

٢ - أن التجارب التى بدأت فى التعليم الثانوى قامت لتنتهى بسرعة ، ولم تتح لها الفرصة الكاملة من النمو والإنطلاق والتقويم العلمى ، وذلك تأثيرا بضغط ونفوذ التعليم الأكاديمى إلى حد ظهور الدعوة إلى إلغاء التعليم الفنى أو إلغاء النواحي العملية فيه ، وفى التعليم الثانوى أيضا تحت شعار إلغاء الإزدواجية دون أن نفكر فى تغيير المحتوى الأكاديمى للمدرسة الثانوية أو تطويره .

ومن هنا تضخمت المشكلة . فعلى الرغم من شدة الحاجة إلى التوسع فى التعليم الثانوى إلا أن الشكوى منه قد إرتفعت لهذه الصبغة الأكاديمية المحدودة وإرتباطه الوثيق بالجامعة . كما ظهرت شكوى الجامعة من الأعداد المتدفقة على الرغم من صغر حجم هذا التعليم بالنسبة لعدد السكان ممن هم فى سن هذا التعليم ، إذن كيف يمكن تطوير هذا التعليم بحيث يحقق أكثر من عرض ؟ وهذه هى القضية الأولى التى وقفت عندها محاولات الإصلاح الأولى . ومن ناحية أخرى نجد أن التعليم الفنى الذى إنحصر فى تقسيمه إلى صناعى وزراعى وتجارى قد أصبح قليل الشأن بالقياس إلى التعليم الأكاديمى لإنغلاقه وهزاله وقصور محتواه على الرغم من شدة حاجة المجتمع إليه . إن الإستراتيجية العربية الحالية فى التغيير أو التطوير أو التفكير فى تجريب نماذج جديدة من التعليم الثانوى يجب أن تستند إلى بعض الإعتبارات الرئيسية وفى مقدمتها .

١ - أن المجتمع العربى يأخذ بأسباب التقدم ويشعر بحاجته إلى توجيه ثروته البشرية فى ضوء المتغيرات الجديدة وفى مقدمتها حركة التصنيع والتمدن والتحضر ، وما يتطلبه ذلك فى إعداد أكبر قدر ممكن من القوى البشرية لتكون مصدرا من مصادر القوة له .

٢ - أن المجتمع العربى يفتح على العالم بخبراته وتجاريه . وكل محاولات الإصلاح والتطوير فى الماضى كانت تستهدف اللحاق بالانجازات العالمية المعاصرة والتجارب الرائدة فيها .

٣ - أن استفاد من كل الخبرات والتجارب السابقة التى شهدتها البيئة العربية فى مجال التجريب فى التعليم الثانوى والتى أجهضتها عوامل مختلفة . وينبغى التعرف عليها والإلتفات لها . وذلك توفيراً لضمانات النجاح لأى تجربة أخرى جديدة .

٤ - أن يأخذ التغيير والتطوير بالأسلوب التدريجى لا الطفرة بحيث يأخذ فى إعتباره إمكانات البيئة العربية ومطالبها . وينطلق من واقع هذه البيئة وهذه الإمكانيات والمطالب . وفى نفس الوقت ينشد التقدم والتطور إلى الإمام .

٤ - ظهور حركة التربية الحديثة :

شهدت البلاد العربية اهتماما بحركة التربية الحديثة وما يتصل بها من نظريات جديدة في التربية . وقد بدأت هذه الحركة أساسا في مصر بعد الحرب العالمية الأولى . وابتدأت تعبر عن نفسها في الثلاثينيات من هذا القرن . وقد بدأت هذه الحركة على يد الرعيل الأول من حملوا حركة التربية الحديثة من أمثال نجيب الهلالي ، وطه حسين ، وإسماعيل القباني ، وعبد العزيز القوصي . . وغيرهم . وعن طريق هؤلاء الرجال والأساتذة الزائرين من الأجانب من أمثال "كلابريد" و"مان" و "بودي" و "جراي" و "رج" تعرف دارسو التربية على مشكلات التربية وحركة التربية الحديثة في أمريكا وإنجلترا وفرنسا وغيرها من الدول .

إن نظرة فاحصة إلى المبادئ الرئيسية التي تستند عليها هذه الفلسفة تدعم وجهة نظر المؤلف في أن هذه الفلسفة كانت متأثرة بصورة أساسية بالحركة التقدمية في التعليم الأمريكي بصفة عامة وفلسفة " جون ديوي " البراجماتية بصفة خاصة . إن إسماعيل القباني وهو نفسه شاهد معاصر لهذه الحركة ورائد من روادها يذكر أن آراء جون ديوي وتطبيقاتها الاجتماعية كانت تدرس بعناية في معهد التربية وكانت تشير كثيرا من الاهتمام بين رجال التربية . وكانت أهم مبادئ هذه الفلسفة تنادي بأن التربية يجب أن تساعد التلميذ على فهم مجتمعه واكتشاف بيئته وما يحيط بها . وأن المناهج يجب أن تكون على صلة وثيقة بنمو التلميذ الجسمي والنفسي . وأن مواد الدراسة يجب أن تتكامل فيما بينها في وحدة عضوية . وأنه يجب العناية بالنشاط الفني الخلاق والدراسات العملية حتى يتسنى للتلميذ أن يتعلم التفكير عن طريق الخبرة العملية . ويعزى نشر هذه الفلسفة الحديثة بصفة عامة إلى مؤسستين إثنين :

١ - رابطة التربية الحديثة وخرجي معاهد التربية التي أسست سنة ١٩٣٧م : وكان هدفها هو تقديم التربية الحديثة في المدارس المصرية . ومنذ تأسيسها قامت الرابطة بتنظيم عدة مؤتمرات وحلقات لهذا الغرض . وكان من أهمها المؤتمر الذي عقد سنة ١٩٤٥م لمناقشة " تطبيق أساليب التربية الحديثة في المدارس المصرية " . وهو عنوان له مغزاه . وتقوم الرابطة أيضا بطبع صحيفة خاصة تصدر كل ثلاثة أشهر تعرف باسم " صحيفة التربية " وفيها تنشر المقالات والبحوث التربوية الحديثة . وقد استمر نشر هذه الصحيفة حتى الآن .

٢ - معهد التربية : وقد أنشئ سنة ١٩٢٩م ليحل محل مدرسة المعلمين العليا بناء على توصية الخبير السويسري " كلاباريد " الذي كان عندئذ أستاذ علم النفس وعميد معهد روسو بجنيف . وكان الغرض من إنشائه تحقيق الأغراض الآتية :

- أ - أن يعد المعلمين لمدارس التعليم العام الابتدائية والثانوية .
- ب - أن يكون مركزا للبحث العلمي في مسائل التربية والتعليم والدراسات النفسية للأطفال .
- ج - أن يكون أداة لنشر الأفكار الحديثة عن التربية بين رجال التعليم وتزويدهم بالإرشاد اللازم لتطبيق أساليبها في المدارس المصرية .

وكان المعهد منذ تأسيسه يلعب الدور القيادي في حركة التربية الحديثة في العالم العربي . وفي الفترة بين عام ١٩٤٤ و ١٩٥٣م قام المعهد بدعوة عدد من رجال التربية المشهورين في أمريكا وأوربا ومن بينهم " بودي Bode " المربي الأمريكي (١٩٤٤ - ١٩٤٥م) . و " كيرتجر Kirteger " (١٩٤٥ - ١٩٤٦م) الذي كان آنذاك أستاذا بجامعة أوهايو بأمريكا . و " مارتز Martz " (١٩٤٧ - ١٩٤٨م) الذي كان أستاذا بجامعة إنديانا ، و " السير كلارك Clark " (١٩٤٩م) الذي كان أستاذا بمعهد التربية بجامعة لندن ، و " رج Rugg " (١٩٥١ - ١٩٥٢م) الأستاذ السابق بجامعة كولومبيا .

ومن ناحية أخرى قام المعهد منذ سنة ١٩٣٢م بتطبيق أساليب التربية الحديثة في الفصول النموذجية التي أنشئت لهذا الغرض بالذات منذ عام ١٩٣٩م . وقد استطاعت هذه المدارس أن تلعب دورا هاما كان له تأثيره على بقية المدارس في مصر والبلاد العربية . فإسماعيل القباني وزير التربية والتعليم السابق يذكر أن مناهج هذه المدارس كانت أساس التغييرات التي أدخلت على مناهج الدراسة الثانوية العامة سنة ١٩٤٥م وحتى ١٩٥٣م . ومناهج الدراسة الابتدائية الحكومية سنة ١٩٣٧م و ١٩٤٧م و ١٩٥٣م ، واستطاعت هذه المدارس النموذجية أيضا أن تؤثر على المدارس الحكومية في أشياء كثيرة أخرى منها ألوان النشاط خارج المنهج والجو المدرسي بصفة عامة . والواقع أن وزارة التربية والتعليم قد اعترفت بفضل هذه المدارس على تطوير التربية في مصر . وابتدأت

تظهر اهتماما كبيرا بها كان من مظاهره إعادة تنظيمها سنة ١٩٥٦م * . وأعلنت الوزارة عندئذ أن هدف هذه المدارس هو أن تكون حقلًا للتجريب التربوي الحديث وأساليب التربية الحديثة التي يمكن تطبيقها ونقلها إلى المدارس الأخرى . وأعطى الإشراف الفني على هذه المدارس النموذجية سنة ١٩٥٥م إلى كلية المعلمين (أسبوت) وإدارة البحوث الفنية والمشروعات بوزارة التربية . ولتنظيم بين هذه الهيئات الإشرافية أنشئ المجلس الأعلى للمدارس النموذجية . وفيما يلي نماذج للبحوث التي قامت بها هذه الهيئات بين عامي ١٩٥٥م و ١٩٦١م كما وردت في التقرير السنوي (١٩٥٩ - ١٩٦١ م) لإدارة البحوث الفنية والمشروعات :

« بحث حالة المدارس الابتدائية - تنظيم الإدارة المركزية لوزارة التربية والتعليم - مشاكل التعليم الثانوي - البطاقات المدرسية - الاختبارات الموضوعية والتحصيلية - نظام الامتحانات في المدارس الإعدادية والثانوية والفنية - المستوى الثقافي لخريجي الجامعة - العقاب المدرسي - تقويم الدور الاجتماعي للمدرسة في المجتمع - تقويم المدرسين والإداريين - نظام التفتيش - متابعة خريجي المدارس الثانوية الفنية - التأخر الدراسي في المدارس الابتدائية - تجربة منطقة الجيزة في اللامركزية - مشكلة الانقطاع الدراسي - طرق تعليم القراءة - مناهج المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية - تقويم الكتب الدراسية - الأخطاء الإملائية - مشكلات المرأة العاملة - التغذية المدرسية - مشاكل المراهقة - الدروس الخصوصية .

٥ - استخدام الخبراء الأجانب :

مع أن استخدام الخبراء الأجانب لتطوير النظم التعليمية العربية كان مقصورا على عدد محدود من البلاد العربية إلا أنه ينبغي الكلام عنه . فقد استقدمت

* مع عدم التقليل من أهمية الدور الذي لعبته المدارس النموذجية فإن المؤلف وقد عمل مدرسا في إحدى هذه المدارس في أواخر الخمسينيات يعتقد بضرورة الأخذ بمفهوم جديد للمدارس النموذجية لا يقتصر تطبيقه على التعليم العام بل يتعداه ليشمل التعليم الفني أيضا مع تركيز الاهتمام على محتوى المواد الدراسية وأساليب تعليمها على أحدث الاتجاهات . لماذا لا تفكر مثلا في إنشاء مدارس صناعية نموذجية أو مدارس على غرار المدرسة الشاملة بحيث تكون على نطاق تجريبي .

العراق بعض الخبراء لدراسة وتطوير أحوال التعليم فيها . واستقدمت الحكومة المصرية خيرين لدراسة نظام التعليم وتطويره هما " كلاباريد " السويسري و"مان" البريطاني . وكانت خلاصة عملهما تقريرين مشهورين سنفضل الكلام عنهما في السطور التالية :

أ - تقرير كلاباريد :

كان الدكتور " كلاباريد " استاذ علم النفس ومدير معهد جان جاك روسو للبيداغوجيا في جامعة جنيف بسويسرا . وقد استدعته وزارة المعارف المصرية لدراسة نظام التعليم بهدف إصلاحه وتطويره لاسيما نظام إعداد المعلمين . وقد حضر " كلاباريد " إلى مصر في أواخر شهر أكتوبر سنة ١٩٢٨ م . وأمضى نحو ثمانية أشهر أصدر في نهايتها تقريرا مشهورا ضمنه خلاصة دراسته ومقترحاته . وطبعته وزارة المعارف فيما بعد عام ١٩٣١ م بعنوان : تقرير عام مرفوع إلى وزارة المعارف العمومية من أ.د. كلاباريد .

وقد اعتمد " كلاباريد " في دراسته على ملاحظاته من خلال زيارته للمدارس والاختبارات السيكولوجية التي أجراها على التلاميذ في مختلف مدارس المدن والأرياف . كما استعان بملاحظات وآراء المعلمين والمفتشين وخبراء الامتحانات . وكذلك طلاب مدرسة المعلمين العليا . وقد جانب كلاباريد التوفيق في تطبيقه لاختبارات سيكولوجية مشبعة بالثقافة الأوربية على التلاميذ المصريين . ولم يكن غريبا إذن ما توصل إليه من إنخفاض مستوى ذكاء التلاميذ المصريين . وكانت أهم الموضوعات التي عهد إلى الدكتور " كلاباريد " بدراستها :

- ١ - دراسة نظام التعليم العام بجميع مراحل تطويره من حيث مواد الدراسة ومقدارها . والتوحيد بين الدراسة في مدارس البنين والبنات وعدد المدارس لكل مرحلة بالنسبة إلى عدد السكان .
- ٢ - دراسة نظام التعليم الإلزامي واحتمالات نجاح مشروع تعميم التعليم الإلزامي من الوجهة التعليمية والاجتماعية .
- ٣ - دراسة ميزانية التعليم بالنسبة للميزانية العامة .
- ٤ - علاقة المدارس العليا بالجامعة .
- ٥ - نظم مدارس المعلمين وهل يجمع فيها بين المادة العلمية والبيداغوجية ؟

وهل تضم مدرسة المعلمين بقسميها العلمي والأدبي إلى كليتي العلوم والآداب بالجامعة المصرية ؟ ، وما الخطة التي تسيّر عليها الوزارة في تجرية إعداد المعلمين ؟

وقد انتهى " كلاباريد " من دراسته إلى تقديم بعض المقترحات ومن أهمها :

- ١ - تخفيض عدد التلاميذ في الفصل مع توزيع التلاميذ توزيعا متجانسا على أساس السن والمستوى العقلي .
- ٢ - تعيين معلمين فصل في المدارس الأولية والابتدائية وجعل تعليم الأطفال حتى سن التاسعة في أيدي المعلمات .
- ٣ - تخفيف حدة المركزية ومنح قدر معقول من الحرية للمعلمين ونظار المدارس .
- ٤ - تخفيف المناهج وتعديل نظام الامتحانات بحيث لا تعتمد على الحفظ والاستظهار وإنما على العقل والتفكير .
- ٥ - التوسع في تعليم الفتاة بالمدارس الابتدائية والثانوية .
- ٦ - عدم التسرع في نشر التعليم الإلزامي حتى يتخرج أعداد المعلمين الكافية .
- ٧ - تعديل أسلوب إعداد المعلمين وإنشاء فرق متنقلة لنشر الثقافة في الريف ، وإلقاء محاضرات أسبوعية في التربية لرفع مستوى أداء المعلمين . وتعيين مفتشين سيكولوجيين لمواصلة البحث في المدارس وإرشاد المعلمين .

ب - تقرير " مان "

كان المستر " مان " مفتشا للمدارس وكليات المعلمين بوزارة المعارف البريطانية . وقد استدعته الحكومة المصرية لدراسة سياسة التعليم . وحضر إلى مصر في سبتمبر سنة ١٩٢٨م وبقي بها حتى إبريل سنة ١٩٢٩م
وقد أعد في نهاية إقامته تقريرا قدمه إلى وزارة المعارف ضمنه نتائج دراسته وأهم مقترحاته * . وكانت أهم الموضوعات التي طرحت عليه لدراستها نظام

* Report on Certain Aspects of Egyptian Education Rendered to His Excellency
The Minister of Education at Cairo , By Mann , F. Ministry of Education , Egypt
. July 1929 . Government Press . 1932.

تخريج المعلمين ومناهج الدراسة في التعليم العام ،والعلاقة بين مناهج مدارس البنين والبنات ، ونظام التعليم الإلزامي ، وعدد المدارس اللازمة لكل مرحلة ، وميزانية التعليم بالنسبة لميزانية الدولة . وهي موضوعات مشتركة قدمت أيضا إلى "كلاباريد " الذي كان موجودا في نفس الفترة تقريبا . وقد اقترح " مان " عدة اقتراحات تأثر فيها بنظام التعليم في بلاده . كما اتفق مع " كلاباريد " في كثير من الأمور . ومن أهم الاقتراحات التي قدمها تخفيف قيود المركزية في التعليم، ومنح المعلمين والنظار مزيدا من الحريات في إدارة مدارسهم ، وقيام السلطات المحلية بإدارة التعليم الأولى وما يتبعه من مدارس للمعلمين والمعلمات. وتطوير المناهج والامتحانات ، وإلغاء نظام الدور الثاني ، وعدم اعتبار الشهادات الدراسية أساس التعيين في وظائف الحكومة .

٦ - الاهتمام بإعداد المعلمين :

يعتبر " علي مبارك " الرائد الأول لحركة إعداد المعلمين في العالم العربي في العصور الحديثة . وكان من نتيجة جهوده إنشاء دار العلوم سنة ١٨٧٢م لتخريج المعلمين اللازمين للمدارس . وفي سنة ١٨٨٠م أنشئت مدرسة المعلمين المركزية على غرار مدارس النورمال الفرنسية البروسية . وكان من أهم التطورات في إعداد المعلمين في العالم العربي إنشاء معهد التربية العالي للمعلمين بالقاهرة سنة ١٩٢٩م - كلية التربية جامعة عين شمس حاليا - الذي أنشئ بناء على اقتراح الخبير السويسري " كلاباريد " الذي زار مصر في تلك الفترة ثم ضم المعهد إلى جامعة عين شمس في عام ١٩٤٩/١٩٥٠م ، وفي عام ١٩٥٦م تحول إلى كلية للتربية . وقد ظلت هذه الكلية لفترة طويلة تلعب الدور القيادي في النظرية التربوية وتطبيقاتها في العالم العربي . وخرجت أجيالا من التربويين تولت زمام القيادة الفكرية والتربوية في العالم العربي . وقد ضمت إليها كلية المعلمين عام ١٩٦٩/١٩٧٠م وانتقلت من مبناها القديم في المنيرة إلى مبناها الجديد في روكسي بمصر الجديدة . وفي تلك الفترة بدأت كليات التربية تنتشر في المحافظات والأقاليم انتشاراً واسعاً حتى وصل عددها في نهاية القرن العشرين إلى ما يزيد على ثلاثين كلية للتربية وكلية نوعية .

٧ - إنشاء الجامعات :

يعتبر إنشاء الجامعات المصرية قمة ما وصلت إليه الحركة التربوية في القرن العشرين . وكانت النشأة الأهلية للجامعة من أهم انتصارات اليقظة الوطنية . وقد افتتحت الجامعة في ديسمبر سنة ١٩٠٨م لدراسة العلوم والفنون والآداب . وكانت أهلية ثم تحولت إلى حكومية سنة ١٩٢٥م . وعرفت باسم الجامعة المصرية التي تطورت إلى جامعة القاهرة الآن . وكانت أول جامعة حكومية عربية هي الجامعة السورية (جامعة دمشق حاليا) التي أنشئت سنة ١٩٢٣م . وتعتبر الجامعة المصرية بعد تحولها إلى حكومية سنة ١٩٢٩م ثاني جامعة عربية حكومية . وتعتبر جامعة الإسكندرية (جامعة فاروق الأول) أسبق من غيرها من الجامعات العربية الأخرى . لأنها أسست خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٤٢م) . وجميع الجامعات العربية أنشئت بعد هذه الحرب .

وتوالى إنشاء الجامعات في مصر نفسها وبأقبي الدول العربية فيما بعد . وانتشرت الجامعات وتعددت وعمت العالم العربي من شرقه وغربه بما في ذلك الأراضي الفلسطينية . فقد أنشئت أول جامعة سنة ١٩٦٨م في الأرض المحتلة لتعليم الفلسطينيين تعرف بجامعة " بير زيت " * . كما أن هناك ثلاث جامعات

* تشير إحدى الدراسات الحديثة (Poster and Zimmer 1992) إلى القيود الشديدة التي تفرضها السلطات الإسرائيلية على التعليم في الأراضي الفلسطينية بما في ذلك التعليم الجامعي . بل إن إسرائيل تعمل بكل الطرق على عدم قيام مؤسسات تعليمية خارج هذه القيود . ومن بين محاولاتها في هذا السبيل أنها حالت دون اكتمال بناء الجامعة المفتوحة للفلسطينيين في بيروت ، وقامت عن عمد بتدمير مبناها خلال غزوها للبنان عام ١٩٨٢ . ومن الأمثلة الأخرى التي تشير إليها هذه الدراسة (ص ٢٦) رفض إسرائيل طلب إحدى الجامعات الفلسطينية بإنشاء كلية للزراعة حتى لا تنتمي لدى الفلسطينيين نزعة الانتماء إلى الأرض والرغبة في الإنتاج . كما رفضت طيلة عشر سنوات طلب جامعة بير زيت إنشاء كلية للفنون الجميلة حتى لا تنتمي لدى الفلسطينيين حب التعبير عن آمالهم وهمومهم وواقعهم ورواياتهم وثقافتهم . كما رفضت أيضا طلب جامعة بيت لحم بتقديم برنامج لإعداد المرشدين السياحيين خوفا من أن يقوموا بتفتيح أعين السياح وأذهانهم إلى الوجود الفلسطيني وواقع الفلسطينيين وآلامهم وآمالهم وتاريخهم وثقافتهم . وتشير الدراسة إلى ما قاله موسى ديان وزير الحربية الإسرائيلي السابق إلى أنه من الأسهل عليه السماح للفلسطينيين بقيادة الطائرات الحربية الإسرائيلية قبل أن يسمح لهم بأن يكونوا مرشدين سياحيين . بهذه الدرجة =

غير عربية في الوطن العربي هي الجامعة الأمريكية ببيروت ومثيلتها بالقاهرة ،
والجامعة اليسوعية في بيروت *.

٨ - ظهور الاتجاهات التعليمية المتميزة :

كان من أهم الاتجاهات التعليمية التي برزت في الفترة الأخيرة في مصر
الاتجاه الذي كان يمثلته نجيب الهلالي وهو سياسة الأبعاد الثلاثة والاتجاه الثاني
الذي كان يمثلته طه حسين وعرف بسياسة الكم ، والاتجاه الثالث الذي كان يمثلته
إسماعيل القباني وهو ما عرف بسياسة الكيف ، وسنفصل الكلام عنها في
السطور التالية :

١ - سياسة الأبعاد الثلاثة (نجيب الهلالي) :

لنجيب الهلالي تقريران مشهوران . أحدهما كتبه سنة ١٩٣٥م وهو عن
"التعليم الثانوي عيوبه ووسائل إصلاحه" . والتقرير الثاني عن " إصلاح التعليم
في مصر " (١٩٤٣م) . وكان نجيب الهلالي في كتابه هذا التقرير الأخير متأثراً
بدرجة كبيرة بالإصلاحات التعليمية في إنجلترا بعد الحرب العالمية لاسيما قانون
"بتلر" Butler الذي صدر في إنجلترا سنة ١٩٤٤م . وهو القانون الذي كان ينظم

= المتطورة ينظر الإسرائيليون إلى تعليم الفلسطينيين . وقد عملت الظروف القاسية الصعبة التي
يعيش فيها الفلسطينيون ومحاربة إسرائيل لهم في تعليم أبنائهم وغلق ما هو قائم منها لفترات
طويلة أن برزت أهمية وجود نظام بديل فعال يتمثل في تعليم المجتمع . وهو برنامج موجه
سياسياً يهدف إلى تنمية البناء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي لأفراد المجتمع . والإسرائيليون
ينظرون إلى هذا البرنامج على أنه نشاط تروبي خطر يتعارض مع الأنظمة القائمة التي تفرضها
إسرائيل في مجال التعليم والسياسة والاقتصاد والنواحي الاجتماعية . وعندما تغلق إسرائيل
المدارس والجامعات تصعب البيوت ملتقى التلاميذ والطلاب والمعلمين . وتصعب هذه البيوت
مدارس وجامعات بديلة . وهنا يمثل لب تعليم أو تربية المجتمع المحلي الذي يقوم عن طوعية
واختيار بتدبير كل ما يمكن لمواجهة الموقف دون انتظار لمساعدة خارجية . فالأفراد الذين يعيشون
في هذا المجتمع المحلي يتكاتفون معا بكل ما يتاح لهم من امكانيات مادية وبشرية على التعامل
مع مشكلاتهم المختلفة .

* لمزيد من الكلام حول التعليم الجامعي أنظر لنفس المؤلف كتاب : الاتجاهات الحديثة في التعليم
الجامعي المعاصر وأساليب تدريسه . النهضة العربية . ١٩٩٢ .

التعليم الإنجليزي حتى سنة ١٩٨٨م عندما صدر قانون جديد عرف باسم قانون الإصلاح التعليمي * وقد سبق قانون " بتلر " خطوات كثيرة مهدت لصدوره كصدور الكتاب الأبيض . وهذا يفسر لنا مدى تأثير الهلالي بقانون " بتلر " مع أن تقريره صدور قبل هذا القانون بعام .

وفي حديثه عن الإصلاح التعليمي المقترح يشير الهلالي إلي أن تطوير التعليم ينبغي أن يسير في اتجاهات أو أبعاد ثلاثة : الطول والعرض والعمق . أما بعد الطول فيشير إلى مدة التعليم وإطالتها لتشمل التعليم الإلزامي للأطفال والتعليم العام للفتيان والبرامج الأعلى للشباب . أما بعد العرض فيعني التوسع في التعليم بما يحقق تكافؤ الفرص التعليمية لكل الطبقات بدون أي تمييز . أما بعد العمق فيعني جودة التعليم ونوعه وكيفية وحسن اختيار المادة الدراسية بما يتمشى مع قدرة واحتياجات التلاميذ .

وبعبارة أخرى فإن الهلالي كان ينظر إلى التربية على أنها عملية مستمرة وأنها من المهد إلى الحد . وأن التعليم لا ينبغي أن يكون مقصورا على طبقة معينة وإنما يجب أن يتاح لكل الطبقات بدون تمييز . وقد نادى بأن يكون التعليم الابتدائي والثانوي مجانا ومتاحا لكل المصريين . كما أن التعليم يجب أن يتنوع ليوافق الاحتياجات الفردية والاستعدادات الشخصية للتلاميذ على مستوى المدرسة الثانوية بتقسيمها إلى أنواع منها الأكاديمي ومنها الفني الزراعي والتجاري والصناعي . وربما كان لطفه حسين تأثير على آراء وأفكار الهلالي . فقد كان طه حسين مستشاره الفني من ١٩٤٢ - ١٩٤٤م . وعمل معه في انسجام تام ، وهو الذي قام بكتابة التقرير . إلا أنه يبدو واضحا تأثيره في المبادئ التي بنى عليها خطة إصلاح التعليم في مصر بالمبادئ التي قام عليها قانون بتلر كما أشرنا . فقد تبني هذا القانون فكرة التربية على أنها عملية مستمرة . وتبنى أيضا فكرة التعليم العام المجاني للجميع وكذلك تنوع التعليم الثانوي . وهي نفس المبادئ التي نادى بها الهلالي لإصلاح التعليم . وعلى كل حال فإن مفهوم الهلالي لتكافؤ الفرص التعليمية يعتمد على إتاحة فرص التعليم العام المجاني

* لمزيد من التفصيل عن هذا القانون أنظر لنفس المؤلف كتاب الاتجاهات المعاصرة في التربية المقارنة . عالم الكتب . ١٩٩٢ م .

للجميع بدون تمييز ، وأن يتنوع التعليم ليوافق الاحتياجات والفروق الفردية بين التلاميذ . وهي آراء وأفكار تعتبر تقدمية وسابقة لعصرها في وقتها .

وقد قدم الهلالي تقريره عن إصلاح التعليم إلى البرلمان آنذاك كما عرضه على الرأي العام للمناقشة وإبداء الرأي فيه . واستجابة لذلك تطوع إسماعيل القباني وكان عميدا لمعهد التربية آنذاك بمناقشة ماجاء في التقرير بالاتفاق مع الوزير الهلالي باشا . وأعد لذلك اجتماعان رتبتهما رابطة خريجي معهد التربية كان أحدهما في ٢٦ ديسمبر ١٩٤٣م والثاني في ٥ يناير ١٩٤٤م . ونشر القباني نص المحاضرتين مع بعض الإضافات في كتاب له بعنوان " سياسة التعليم في مصر " . وحضر الوزير نجيب الهلالي المحاضرة الأولى . أما طه حسين فقد حضر المحاضرتين باعتباره مستشار الوزارة ، وهو الذي أعد التقرير ومسئول مسئولية أدبية ورسمية عما جاء فيه . وبعد المحاضرة الثانية بأسبوع أي في ١٢ يناير ١٩٤٤م قام طه حسين بالرد على آراء القباني وهاجمها بما استند إليه من أفكار تربوية ونفسية . وكانت هذه أولى المعارك التي خاضها طه حسين مع القباني . وكانت المعركة الثانية بعد أن تولى طه حسين وزارة المعارف في حكومة الوفد عام ١٩٥٠م وسنعود إلى ذلك فيما بعد عند كلامنا عن سياسة طه حسين كوزير للمعارف .

ومن أهم نقاط الخلاف بين ماجاء في التقرير واعترض عليها القباني هي أن المبادئ الديمقراطية تفرض على مصر الأخذ بمبدأ تكافؤ الفرص في التعليم لجميع أفراد الشعب بدون تمييز . ومن هنا نادى التقرير بإلغاء المصروفات الدراسية في التعليم الابتدائي والثانوي . وهو ما عارضه القباني ونادى بدلا من ذلك بتوحيد أنواع مدارس المرحلة الأولى . وهو مطلب يبدو أنه أكثر صعوبة في تطبيقه مما نادى به التقرير . هذا فضلا عن إلغاء المصروفات الدراسية في التعليم الابتدائي يعتبر في الواقع خطوة عملية تمهيدية أكثر واقعية نحو ما طالب به القباني وهو توحيد مدارس المرحلة الأولى التي تشمل المدارس الابتدائية ذات المصروفات وتؤدي إلى الالتحاق بالتعليم الثانوي ، والمدارس الأولية والإلزامية والمكاتب العامة ، وكلها مجانية لكنها لاتؤدي إلى التعليم الثانوي .

ب - اتجاه الكم أو سياسة الماء والهواء (طه حسين) :

في سنة ١٩٣٨م كتب طه حسين في كتابه " مستقبل الثقافة في مصر "

يقول إن التعليم ليس ترفا وإنما هو ضرورة ، وطالب ألا يكون التعليم مقصورا على طبقة معينة . وربما كان طه حسين وهو خريج السربون متأثرا في ذلك بما حدث في فرنسا سنة ١٩٣٠م عندما بدأ إلغاء المصروفات الدراسية من المدرسة الثانوية . وسمح بدخول أعداد كبيرة من التلاميذ غير الطبقات الاجتماعية التي كانت محظوظة بهذا النوع من التعليم . وطه حسين نفسه يذكر فرنسا كمثال على ديمقراطية تعميم التعليم بالمجاني . ومع أن طه حسين كان يعتقد أن التعليم يتساوى في الأهمية مع الدفاع القومي وهي فكرة ثاقبة تعتبر في وقتها سابقة لأوانها ، فإنه كان يعتقد أن فكرة التعليم المجاني للجميع فيها تبذير . وهي فوق ما تستطيع امكانيات الدولة أن تتحمله . بيد أن هذه الفكرة نفسها تطورت مع مرور الزمن . فبعد ١٢ عاما أي في سنة ١٩٥٠م عندما أصبح طه حسين وزيرا للمعارف نادى بأن التعليم كالماء والهواء حق لكل إنسان ولا يصح أن يباع ويشترى . إنما يجب أن يكون مجانيا ومتاحا لكل من يريده . وقد طبق طه حسين هذا الكلام عام ١٩٥١م بإلغاء المصروفات المدرسية من التعليم الثانوي . وكانت هذه المصروفات قد ألغيت من التعليم الابتدائي عام ١٩٤٤م . وبهذا أصبح التعليم العام كله مجانيا . وفي نفس العام (١٩٥١) أجري تنظيما شاملا لمرحلة التعليم الابتدائي وصدر قانون ١٤٩ لسنة ١٩٥١ الذي ينص على تسمية جميع مدارس المرحلة الأولى من التعليم بالمدارس الابتدائية . وقد ترتب على ذلك زيادة هائلة في أعداد تلاميذ التعليم العام من ٩٠٨.٥٩٨ تلميذا في سنة (١٩٤٩/١٩٤٨م) إلى ١.٠٥١.٠٥٦ تلميذا عام ١٩٥٠م . ثم إلى ١.٠٢٠.٨١٧ تلميذا عام ١٩٥١م . وفي التعليم الثانوي كله زاد عدد التلاميذ من ٩٨.٧٠٤ تلميذا إلى ١٢٧.٠٦٤ تلميذا . ثم إلى ١٥٤.٩٤١ تلميذا في السنوات نفسها . وزادت ميزانية التعليم زيادة كبيرة من حوالي ١٩ مليونا سنة ١٩٤٩م إلى حوالي ١٩٢٩ مليونا عام ١٩٥١م . وكان لهذا التوسع الكمي الهائل نسبيا في أعداد التلاميذ في التعليم العام أثر في خفض مستواه ونوعيته . وربما كان هذا من الأمور العادية . فمن المعروف أن من أهم المشكلات التي تواجهها النظم التعليمية التي تعول على توسع تعليمي كبير هي التوفيق بين الكم والكيف . وغالبا ما يكون الكم على حساب الكيف . وقد كان ذلك من أهم الأسباب التي هوجمت من أجلها سياسة طه حسين وروج لها على أنها سياسة

الكم مع أنه هو نفسه لم يطلق عليها ذلك . وكان القباني أكثر نقاد سياسة طه حسين . ونقدها نقداً مرة في عدة مقالات كتبها في جريدة الأساس سنة ١٩٥٢م ، ثم فيما نشر له من كتب فيما بعد . وهذه هي المعركة الثانية بينهما . وقد سبق أن أشرنا إلى المعركة الأولى في كلامنا عن تقرير إصلاح التعليم الذي أعده الوزير الهلالي باشا عام ١٩٤٣م وكان طه حسين مستشاره الفني . وقد عرفت هذه المعركة الأخيرة بمعركة الكم والكيف . وكانت الصحف الوفدية تؤازر طه حسين في هذه المعركة بنشر مقالاته ومقالات غيره من الكتاب الوفديين . وكان من أهم الانتقادات التي وجهها القباني إلى سياسة طه حسين أنها أهملت التعليم الابتدائي على حساب التعليم الثانوي ، وأنها اهتمت بالكم على حساب الكيف في التعليم .

لقد كان طه حسين على وعي بأهمية الكيف وأكد أنه في الوقت الذي ينادي فيه بأن يكون إتاحة التعليم لكل المصريين فإنه ينبغي أن يكون هذا التعليم بناءً مفيداً وناجحاً ، فلن يرضيه أن تضم المدرسة ألفاً في حين أنها لا تستطيع أن تعلم أكثر من نصف ألف . ومظهر آخر لاهتمام طه حسين بنوعية التعليم تأكيده لأهمية نوعية المعلم . وكان يعتقد أن معلم الثانوي إلى جانب حصوله على الدرجة الجامعية ينبغي أن تعد له مقررات وامتحانات على غرار نظام شهادة "الأجرجاسيون" الفرنسية .

ج - اتجاه الكيف أو تعليم الصفوة (إسماعيل القباني) :

يمثل هذا الاتجاه إسماعيل القباني حتى قبل أن يصبح وزيراً للمعارف في الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٥٤م . وقد أكد القباني أهمية الكيف وقال إنها تأتي قبل الكم . ونادى بضرورة تحسين الكم والتوسع التدريجي في التعليم . أما تعميمه فباتي مؤخراً أو فيما بعد . والواقع أن الخطوة التي اتخذها القباني عام ١٩٥٣م بإصدار قانون التعليم الابتدائي الذي تم بموجبه التوحيد الكامل لنظم ومناهج المدارس الابتدائية والشهادة التي تمنحها تعتبر امتداداً وتكملة للخطوة التي اتخذها طه حسين عام ١٩٥١م بتوحيد مدارس المرحلة الأولى كما سبق أن أشرنا . والواقع أن القباني كان مهتماً بالتعليم الثانوي والعالي . وفي ذلك يقول : « في كل الشعوب المتحضرة يتفق المربون على أن الكيف يأتي قبل الكم في هذين النوعين من التعليم ، وأن أي أمة تضحى بالكيف في سبيل الكم هي أمة

تنتحر». وفي تبرير ذلك يقول القباني إن التعليمين الثانوي والعالى بعدان الأفراد الذين يتولون قيادة الأمة فى الجيل التالى . وأى انخفاض فى مستواها يعنى إضعافا لحياتنا المستقبلية .

ومعنى هذا أن القباني لايقبل أى تنازل فى مستوى نوعية التعليم الثانوي والعالى . أما فى التعليم الابتدائي فى رأيه أن إنخفاض مستواه يمكن أن يحتمل فى سبيل الاسراع بتعميمه . والمسألة إذن فى نظر القباني تتعلق بمفهومه عن التعليم الثانوي ودوره فى إعداد القادة والجمع بينه وبين التعليم العالى فى هذا الدور . وإذا كان مفهوم التعليم الثانوي بهذا المعنى فهو إذن فى نظره ليس تعليما للجميع وإنما هو تعليم للصفوة

وفى تقويم آخر لسياسة كل من طه حسين وإسماعيل القباني يقول الأستاذ سامح كريم فى كتابه : معارك طه حسين الأدبية والفكرية (ص ص ٢٦٤ - ٢٦٥) : « على الرغم من أن الصحافة الحزبية استفادت كثيرا من خلاف الدكتور طه حسين والأستاذ إسماعيل القباني فكتبت فيه الكثير ، إلا أننا نقرر أن كليهما كان يؤمن بالفلسفة الديمقراطية فى التعليم ، وبضرورة نشره بين جميع أبناء الوطن وتيسيره لجميع الطبقات الفقيرة إلا أنهما كانا يختلفان فى الأسلوب الذى يتبع فى تطبيق هذه المبادئ لإصلاح التعليم فى مصر . فالدكتور طه حسين يتجه اتجاها ليبراليا شعبيا بينما يتجه الأستاذ إسماعيل القباني اتجاها تربويا مدرسيا أو المعروف بالاتجاه البيداجوجي السيكلوجي . كما كانت هناك فوائد كثيرة حققتها هذه المعارك الفكرية فى مقدمتها النهضة التى أصابت التعليم نتيجة هذه المعركة التى قامت بين الدكتور طه حسين والأستاذ إسماعيل القباني .

٩ - تطوير الأزهر :

شهدت العصور الحديثة عدة محاولات لتطوير التعليم فى الأزهر . ومن المعروف أن الفاطميين أسسوا الأزهر عام ٣٦٨هـ - ٩٧٠م للدعاية للمذهب الشيعي وأن يعقوب بن كلس حوله عام ٣٧٨هـ إلى معهد علمي تدرس فيه العلوم والآداب بعد أن كان مقصوراً على إقامة الدعوة الفاطمية (حسن إبراهيم ج ٣ ص ٣٣٧) .

وقد جاء الإحساس بضرورة هذا التطوير استجابة لما دعا إليه الشيخ رفاعه

رافع الطهطاوي صاحب أول دعوة لإصلاح الأزهر في القرن التاسع عشر ورائد ترجمة العلوم العربية . وقد تخرج هو نفسه من الأزهر وعاب على محمد علي والي مصر أنه أهمل إدخال العلوم الحديثة إلى الأزهر . وقال : لو تشبث خيار أهل العلم الأزهريين بالعلوم العصرية لفازوا بالكمال . كما دعا إلى الإصلاح أيضا الشيخ محمد عبده والشيخ العروسي والشيخ المراغي وطه حسين وغيرهم .

وقد تمثلت المطالبة بإصلاح الأزهر في ضرورة الأخذ بالعلوم الحديثة مثل الطبيعيات والرياضيات والتاريخ والفلسفة والاجتماع . كما تمثل أيضا في العمل على ربط الأزهر بالمجتمع والحياة وتخليصه من البدع والخرافات والأوهام . ولم يكن من السهل إدخال هذه العلوم الحديثة مثل الطبيعيات والرياضيات والتاريخ والفلسفة والاجتماع . ومن أبرز الشخصيات التي كانت تقاوم إدخال العلوم الحديثة إلى الأزهر في القرن التاسع عشر الشيخ محمد عليش وكان يعاونه في ذلك محمد العباسي المهدي شيخ الجامع الأزهر آنذاك .

ويجب أن نشير إلى الاستفتاء الذي تقدم به أشهر علماء جامع الزيتونة في تونس وهو الشيخ محمد ببيرم إلى شيخ الأزهر محمد الإنبائي وكان ذلك سنة ١٣٠٥هـ/١٨٧٧م يسأله رأيه عما إذا كان يجوز تعلم المسلمين للعلوم الرياضية والطبيعيات والهيئة والكيمياء . وقد أجابه الشيخ الإنبائي بأنه يجوز تعلم العلوم الرياضية وعلم الطب والطبيعيات ولكنه أفتى بتحريم علم التنجيم كما أشار الغزالي . وعلى الرغم من هذا حدثت محاولات لتطوير الأزهر في أواخر القرن التاسع عشر .

وفي سنة ١٩١١م صدر قانون يتعلق بتنظيم الجامع الأزهر ، فبعد أن كان التعليم فيه مطلقا غير مقيد أو محدد قسم القانون المذكور الدراسة إلى مراحل لكل منها نظام ومواد خاصة وأنشئت بموجبه هيئة كبار العلماء وأنشئت معاهد دينية جديدة في بعض عواصم المديریات . وأضاف هذا القانون إلى مواد الدراسة مواد جديدة هي التاريخ والجغرافيا والرياضة ومبادئ الطبيعة والكيمياء . وصدر قانون آخر سنة ١٩٣٦ وهو متمم للقانون السابق . وقد أصبحت دراسة الطب ممكنة بعد أن أسدرت لجنة الفتوى بالأزهر فتوى تجيز فيها تشريح جسم الإنسان الميت من أجل دراسة الطب أو من أجل التحقيق في الجريمة .

ولعل أهم قانون لتنظيم الأزهر في العصر الحديث هو القانون الذي صدر عام

١٩٦١م بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها وهو الذي يسري به العمل حاليا . وقد جاء في صدر القانون تمجيد الدور المناط بالأزهر كهيئة تعليمية إسلامية كبرى وأهمية الدور الذي يلعبه بالنسبة للعالم الإسلامي .

ويعتضى هذا القانون أنشئت كليات حديثة في جامعة الأزهر هي كلية الطب وطب الأسنان والزراعة والتجارة والمعاملات ومعهد اللغات والترجمة . كما أنشئت كليات خاصة بالبنات هي كلية البنات الإسلامية وتدرس فيها العلوم الطبيعية إلى جانب العلوم الدينية . وبهذا القانون انتقل الأزهر من الجامع إلى الجامعة ، ومن نظام الحلقات في ساحة المسجد إلى نظام المدرج المنشأ على الطراز الحديث . ومن شيخ العامود إلى الأستاذ ومن صاحب الفضيلة إلى فضيلة الدكتور .

والواقع أن التطوير الأخير للأزهر عام ١٩٦١م وهو المعمول به حاليا قد سبقته إرهاصات كثيرة . وتعالى على مدى سنوات طويلة صحبات المخلصين من علماء الأزهر وشيوخه التي طالبت بالإصلاح والتجديد . منهم الشيخ حسن العطار (توفي ١٨٣٤) ، والشيخ رفاعة الطهطاوي (توفي ١٨٧٦) والشيخ مصطفى العروسي (توفي ١٨٧٦) ، والشيخ محمد المهدي العباسي (توفي ١٨٩٨) وجمال الدين الأفغاني (جاء لمصر عام ١٨٧٠) ، والإمام محمد عبده (توفي ١٩٠٥) ، وقد سبق أن أشرنا إلى آرائه في تطوير الأزهر ، والشيخ مصطفى المراغي (شيخ الأزهر عام ١٩٢٨) ، والشيخ أحمد الظواهري (تولى بعد المراغي مشيخة الأزهر ١٩٢٩) ، والشيخ عبد المجيد سليم (توفي ١٩٥٤) . وكان من بينهم أيضا في السنوات الأخيرة الشيخ محمد الشرباصي والمفكر المعروف عباس العقاد . وكان طه حسين أعلى صوتا في المطالبة بتطوير الأزهر منذ صدور كتابه المعروف " مستقبل الثقافة في مصر " (١٩٣٨) . وخصص فيها كلاما وافيا شافيا عن ضرورة إصلاح التعليم في الأزهر والتقريب بين مناهجه ومناهج التعليم العام في صورتها المطورة . وأيضاً تطوير التعليم الخاص . وكانت حجته في ذلك أن أنواع التعليم المختلفة تخرج عقليات مختلفة ينكر بعضها بعضا مما يفت في عضد الأمة ووحدها الثقافية والقومية . ولذلك طالب بتوحيد مناهج مختلف أنواع التعليم لتحقيق ثقافة عامة قومية مشتركة بين جميع أبناء البلاد . وفيما بعد على صفحات الجرائد في مصر كان يكتب المقالات

التي يؤكد فيها نظرته إلى تطوير الأزهر . وكانت العبارة المشهورة التي تتكرر في كل مقالاته هي : "شبابنا الأزهريون لا يتعلمون كما يتعلم الناس ولا كما ينبغي أن يتعلم الناس " . وعلى كل حال فقد صدر قانون تطوير الأزهر عام ١٩٦١ . ولكن للأسف أنه منذ صدوره بدأ يتعثر في تطبيقه ويحتدم حوله الخلاف بين مؤيد ومعارض . فمع أن القانون نص على تحديد أربعة أشهر لصدور لائحته التنفيذية ، فإن هذه اللائحة لم تصدر إلا عام ١٩٧٥ أي بعد مرور أربعة عشر عاما على صدور القانون . وهذا يعني أن الكليات المختلفة لم يكن لها دليل عمل يوجهها . وسارت الأمور بها بدون ضوابط . وترتب على ذلك أخطاء كثيرة . كما أن الجدول احتدم حول القانون منذ صدوره . ولعل أهم نقد وجه إليه أنه صدر بدون الرجوع لرجال الأزهر ولم يؤخذ رأيهم فيه ، وأنه قد فرض عليهم فرضا وكان من الطبيعي أن يرفضه علماء الأزهر . وقد عبر عن هذا الرأي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي العالم الإسلامي الكبير المعروف . كما عبر عنه أيضا عبد المنعم غمر وهو من علماء الأزهر البارزين . وهناك معارضون آخرون كثيرون . ولعل من أكثر الصيحات المعارضة التي تفيض بالأسى واللوعة ما يعبر عنه الدكتور عبد العظيم المطعني في كتابه " الفراغ وأزمة التدين عند الشباب " (مايو ١٩٧٨) حيث يقول :

« ويعلم الله أن تطوير الأزهر قد أصابه بطعنة لم يسلم منها موضع في جسمه حتى أصبح التطوير توريطا . وما أكثر ما يعانيه الأزهر الآن لاسترداد أنفاسه والوقوف مرة أخرى على قدمين راسخين » .

وعلى الجانب الآخر وهوجانب المؤيدين للقانون نجد الشيخ شلتوت شيخ الأزهر سابقا يرى أن القانون بشوبه الجديد يمكن الأزهر من أداء رسالته . ونجد الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر سابقا ينهج نفس النهج المؤيد ويقول إن القانون الجديد للأزهر حقق أماني المسلمين في إصلاح الأزهر وتمكينه من أداء رسالته كاملة . ومن المؤيدين للقانون الجديد أيضا محمد البهي وبدوي عبد اللطيف ومحمد الطيب النجار وكلهم رؤساء سابقين لجامعة الأزهر .

وهكذا تختلف الآراء حول قانون تطوير الأزهر الأخير بين معارض ومؤيد . ووسط هذا الخضم من الخلاف نرجو أن تجد جامعة الأزهر في النهاية ما تصبو إليه من تطلع في أداء رسالتها من أجل خدمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها .

بين الأزهر والزيتونة :

كتب فضيلة الأستاذ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور عضو مجمع البحوث الإسلامية آنذاك (١٩٧٢) بحثا قيما من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية ونشر في مجلة التوجيه الاجتماعي في الإسلام التي يصدرها المجمع الجزء الرابع ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م . ص ص ٨٥ - ١٠٧ . وعنوان هذا البحث هو "امتزاج الأزهر بالزيتونة " . وهذا البحث في نظري يعتبر من أحسن ما كتب في هذا الموضوع ، ولذلك اعتمدنا عليه بصورة رئيسية شاكرين لفضيلته عظيم جهده في سبيل خدمة العلم وأهله . وهو يؤكد في بداية بحثه أن الزيتونة والأزهر صنوان وأن الزيتونة هي أزهر تونس .

ومن المعروف أن الفاطميين بنوا الجامع الأزهر في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) (٣٦٨هـ / ٩٧٠م) وأنه لم يتخلص من نشأته الشيعية كما يقول المقرئ في خطه إلا في منتصف القرن السابع الهجري أي بعد حوالي ثلاثة قرون من إنشائه عندما جددت عمارته وأخذ طابعه السني أيام الملك الظاهر بيبرس . وكان ذلك بإقامة صلاة الجمعة فيه على مذهب أهل السنة والجماعة . ورتبت فيه دروس الحديث والفقہ . أما جامع الزيتونة فقد بني في أوائل القرن الثاني الهجري أي قبل الأزهر بقرن ونصف تقريبا . وكان بانيه عبيد الله بن الحبحاب السلولي الذي كان واليا على مصر ومنها قدم إلى تونس بعد أن استخلف أبه أبا القاسم على مصر . وكان ابن الحبحاب إمام وخطيب جامع عمرو أو جامع الفسطاط وهو أول مسجد أنشئ في مصر وأبو الجامع الأزهر . فلا غرابة في أن يتأثر في بنائه بجامع الزيتونة في تونس بما رآه من جامع الفسطاط في مصر . وقد نشأ جامع الزيتونة نشأة سنية منذ البداية على خلاف الأزهر وظل محافظا عليها . وتكرر شيوخته للفاطميين مثلهم في ذلك مثل شيوخ القيروان في عدائهم للفاطميين حتى خرجوا من تونس . وكان لجامع الزيتونة أثر واضح في هذا العداء . فقد كان هذا الجامع كما يقول ابن خلدون منبع الثورة التي خرجت بها البلاد الإفريقية من حكم العبيديين (الفاطميين) في أيام المعز باديس الصفهاجي بالقيروان والمستنصر الفاطمي بالقاهرة . وقد تم الانتصار للثورة على

الفاطميين سنة ٤٤٠هـ وانقطع الدعاء لهم من منابر البلاد الإفريقية وأحرقت بنودهم ومحي إسمهم من الطراز والسكة . وقد تم في القرن السادس الهجري توحيد البلاد المغربية كلها من الأندلس حتى الحدود المصرية على يد عبد المؤمن بن علي بعد أن خلعها من احتلال النرمانديين أصحاب صقلية ، ومن أمراء الطوائف في صفاقس وسوسة وقابس وقفصة وبنزرت وطرقة . وصارت تونس عاصمة البلاد المغربية الإفريقية باستقرار الدولة الحفصية .

وكانت القاهرة قبل ذلك بخمسين سنة تقريبا قد ردت عنها غارات الصليبيين وقامت فيها الدولة الأيوبية . وصارت الحلقات في الأزهر سنية . وتأكد ذلك بصورة جلية في منتصف القرن السابع الهجري . وبدأ المذهب المالكي يعاود منزلته في مصر في أواخر القرن السادس الهجري بمن رحل إليها من العلماء الأفاارقة والأندلسيين والمغاربة والصقليين بعد أن انقطع علماء هذا المذهب عن الديار المصرية في أواخر القرن الرابع الهجري . ونتيجة لذلك شاعت الكتب المغربية ومناهج الدراسة الإفريقية والأندلسية مثل المدونة وتهذيبها وكتب ابن أبي زيد وكتب أبي الوليد الباجي . وانبعثت في أصول الدين وأصول الفقه طريقة الأشعري والباقلاني وإمام الحرمين والغزالي والمازري . وتواصلت بذلك المذاهب السنية ولاسيما المذهب المالكي والشافعي . وكان لشيوع دعوة الغزالي إلى وصل التصوف بعلوم الشريعة أثرها في تقويب المحدثين والفقهاء والمتكلمين من الصوفية . وتأثر هؤلاء بهؤلاء تأثرا ظهر في طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني في المغرب وطريقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي في تونس . وقد أوصل هذه الطريقة هو وأصحابه إلى مصر وعم انتشارها من تونس ومصر شاقا وغربا .

وكانت الدراسة بالأزهر والزيتونة طيلة القرن السادس والسابع وما بعدهما تسير على نهج واحد وكتب مشتركة وسند موحد من العلماء فيهم المصريين والأفاارقة ، وغيرهم من الأندلسيين والمغاربة والشاميين والعراقيين والأعاجم وعلماء الروم .

وكان انتشار المدارس في كل من مصر وتونس في النصف الثاني من القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري . وكان إنشاء المدارس الأولى في مصر في

الفسطاط حول جامع عمرو أو الجامع العتيق . فهناك أنشئت المدرسة الصلاحية والمدرسة القمحية لتدريس الفقه المالكي . وكانت الدراسة فيها تعتمد على أمهات كتب هذا المذهب من تأليف العراقيين والإفريقيين والأندلسيين .

وسارت الدراسة منذ ظهور المدارس في تونس وفي حلقات جامع الزيتونة على نفس المنهج ونفس الكتب في الفقه المالكي والفنون الأخرى من الحديث والأصول والتصوف وفنون العربية . مما زاد من قوة الامتزاز وروح الأخذ والعطاء بين البلدين أو المركزين العلميين : الأزهر والزيتونة . فأخذ علماء الزيتونة من علماء مصر من أمثال ابن دقيق العيد المصري والحافظ المنذري والإمام عز الدين بن عبد السلام . كما أخذ علماء تونس من أمثال ابن هارون الطائي وابن الغماز والتجاني وابن هارون الكنتاني عن علماء مصر واستعملوا كتبهم ورووا عنهم من أمثال ابن زيتون وابن رشد .

وفي القرن الثامن الهجري بلغ التواصل الثقافي والعلمي بين مصر وتونس قمته وتناقلت التأليف والروايات واستمر ذلك في القرون التالية . وهكذا كان توحد مناهج الدراسة بين الأزهر والزيتونة في الفقه المالكي وعلوم العربية . وقد ظهر في مصر في ذلك القرن الثامن الهجري من أئمة العربية جمال الدين بن هشام الذي أقبل العلماء والدارسون على استخدام كتبه لاسيما كتاب " مغني اللبيب " الذي ذاع صيته منذ القرن الثامن الهجري بالزيتونة في حياة مؤلفه . ودخل هذا الكتاب في منهج الدراسة بالزيتونة في أوائل القرن التاسع الهجري . كما كان يدرس أيضا في الأزهر في نفس الفترة . وفي مجال الأدب والعلوم العقلية كان هناك تواصل بين الأزهر والزيتونة في القرن الثامن الهجري . فكانت شهرة آل السبكي وابن خلدون في تونس والمغرب . وكانت رحلة ابن خلدون إلى مصر وتصدره للإقراء بالجامع الأزهر . وعنه أخذ علماء الأزهر من أمثال ابن حجر والمقرئزي . وزاد ذلك من شهرة الزيتونة وعلمائها في المشرق .

وف القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) تأثرت الدراسة في جامع الزيتونة بتأليف الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي ، وامتد تأثيره إلى القرون التالية . كما تأثرت الدراسة في الزيتونة في القرن العاشر الهجري بأعلام

القرن التاسع الهجري من الأزهرين وكتبهم فشاع تفسير الجلالين وشرح العيني على البخاري وكتب الشيخ خالد الأزهرى مثل التصريح والأجرومية . وكان كثير من معلمي الزيتونة في القرن الحادي عشر الهجري تلاميذ لأعلام الأزهر مثل الشيخ إبراهيم اللقاني والشيخ عبد الباقي الزرقاني والشيخ الشبرخيتي وشيخ الإسلام محمد الخرشى . وزاد انجذاب الزيتونة إلى الأزهر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجري . وظل التواصل بينهما مستمرا إلى أن انتهى في هذه الفترة بالتكامل بينهما . يتضح ذلك من قوانين التعليم في كل منهما ، ويتضح منها أن الكتب التي كانت تدرس في مراحل التعليم الثلاث : الابتدائية والمتوسطة والعالية كانت واحدة بصفة غالبية .

وكان امتزاج العلماء أيضا . فقد زار الشيخ محمد عبده تونس زيارته الأولى عام ١٣٠٢هـ وامتزج بعلمائها ثم عاد بعد عشرين سنة إلى مصر ونادى بإصلاح الأزهر . وكان لدعوته صدى في تونس عندما نادى طلاب الزيتونة بإصلاح مآثر لإصلاح الأزهر . وكانت حركة الطلاب في الأزهر وإضراباتهم موجبة لحركة طلاب الزيتونة . وتبادل المعهدان التحاق طلابهما بالمعهد الآخر للدراسة والبحث العلمي. وبعد الحرب العالمية الثانية ظهرت صورة من التلاقي لم تكن معروفة من قبل ، إذ نشأ التواصل الرسمي بين الأزهر والزيتونة . وربطت طرق المواصلات بين الشيخين مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر ومحمد طاهر بن عاشور شيخ الزيتونة. كما قام بالتدريس في الزيتونة الشيخ أحمد حسن الباقوري كأستاذ زائر . وكذلك الشيخ عبد الحلیم محمود . وكانت زيارته الأولى في عام ١٣٨٢هـ . وبلغ من التواصل والتعاون الرسمي بين الأزهر والزيتونة أنه لما توفي شيخ الأزهر عام ١٣٦٧هـ أعلن شيخ جامع الزيتونة نعيه في الصحف ببلاغ رسمي وعظمت الدروس في جميع معاهد الزيتونة بالقطرين التونسي والجزائري . وكذلك كان الحال في المناسبات المشابهة . وهناك مثال آخر هو أن أحد شيوخ الزيتونة العظام وهو الشيخ محمد الحضر حسين احتضنه الأزهر بين علمائه بعد أن استقر به المقام في مصر حتى سمي شيخا للأزهر عام ١٣٧٢هـ . أليست هذه صفحة مشرقة للتعاون العلمي الوثيق بين أهم معهدين في تاريخ التربية الإسلامية استطاع أن يقدمها لنا ببراعة فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بن الفاضل بن عاشور جزاه الله

عنا وعن أهل العلم خير الجزاء .

١٠- سيطرة الدولة على التعليم الخاص والأجنبي :

من حق أي دولة أن تتأكد من أن التعليم الخاص والأجنبي بها يتمشى مع سياستها القومية العامة ولا يتعارض مع أهدافها الكبرى وأمانها القومية . ومن هنا كان من حق كل دولة أن يكون لها نوع من الإشراف أو الرقابة على هذا النوع من التعليم للتحقق من أنه يتمشى مع القوانين المرعية في البلاد ، وأنه يعمل في إطار النظام الذي وضعت له الدولة . والغريب أن هذا النوع من التعليم ظل سنوات طويلة يعمل في مصر دون رقابة أو سيطرة أو إشراف من الدولة . وكانت أول محاولة في هذا السبيل هي لائحة رياض عام ١٨٧٤ التي لم تر النور ووثدت في مهدها لأسباب معروفة من أهمها اضطراب الأحوال السياسية في مصر آنذاك . وشهد عام ١٩٤٨ أول خطوة عملية في هذا السبيل لكنها لم تكن فعالة . وجاءت الخطوة الكبيرة عام ١٩٥٨ بعد العدوان الثلاثي على مصر . وعندها كانت الظروف السياسية مواتية واستطاعت مصر أن تفرض رقابتها على المدارس الأجنبية باستثناء المدارس الأمريكية . وقد تحقق ذلك بعد حرب عام ١٩٦٧ عندما تمكنت البلاد من فرض سلطتها وسيطرتها على كل المدارس الخاصة والأجنبية بما في ذلك المدارس الأمريكية .

قائمة المراجع (قائمة مختارة)

أولاً : المراجع العربية :

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الأحاديث النبوية .
- ٣ - المعاجم اللغوية .
- ٤ - دائرة المعارف الإسلامية . نقلها إلى العربية محمد ثابت أفندي وآخرون .
- ٥ - إبراهيم العبيدي التوزري : تاريخ التربية بتونس . الشركة التونسية للتوزيع .
- ٦ - ابن الأثير : جامع الأصول من أحاديث الرسول . المطبعة المحمدية . القاهرة .
- ٧ - ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
- ٨ - ابن الجزار القيرواني : سياسة الصبيان وتدريبهم .
- ٩ - ابن حزم الظاهري : (الإمام أبو محمد علي بن أحمد) (١٩٨٢) . الفصل في الملل والأهواء والنحل . شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع . المملكة العربية السعودية .
- ١٠ - ابن حوقل (١٩٣٨ م) : صورة الأرض ، ليدن .
- ١١ - ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون . دار الفكر العربي . القاهرة .
- ١٢ - ابن سعد : الطبقات الكبرى .
- ١٣ - ابن سينا : كتاب القانون .
- ١٤ - ابن سينا : كتاب السياسة .
- ١٥ - ابن عبد البر النمر القرطبي (١٩٣٧) : جامع بيان العلم وفضله . مطبعة المنيرية . القاهرة .
- ١٦ - ابن قيم الجوزية (الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر) : تحفة المودود بأحكام المولود . دار الكتب العلمية . بيروت .
- ١٧ - ابن المقفع (١٩١١) : الأدب الصفيير . تحقيق أحمد زكي باشا ، الإسكندرية . مطبعة محمد علي الصناعية .
- ١٨ - ابن المقفع : الأدب الكبير .
- ١٩ - ابن مسكويه (١٩٥٩) : تهذيب الأخلاق . مطبعة صبيح . القاهرة .
- ٢٠ - أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي (الشاطبي) : الموافقات في أصول الأحكام . القاهرة . مطبعة صبيح .

- ٢١- أبو الأعلى المودودي : الحجاب . دار الفكر . بيروت .
- ٢٢- أبو الحسن محمد بن يوسف العامري: السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية. دراسة وتحقيق د. أحمد عبد الحلیم عطية. دار الثقافة للنشر. القاهرة .
- ٢٣- أبو الحسن الماوردي : أدب الدنيا والدين . مطبعة صبيح وأولاده .
- ٢٤- أبو الحسن الندوي (١٩٧٤) : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين .
- ٢٥- أبو سعد السمعاني(١٩٥٢): أدب الإملاء والاستملاء. ليدن . مطبعة بريل .
- ٢٦- أحمد أمين(١٩٤٨): زعماء الإصلاح في العصر الحديث. مطبعة مصر. القاهرة .
- ٢٧- أحمد أمين (١٩٧٩) : فجر الإسلام . دار الكتاب العربي . بيروت .
- ٢٨- أحمد بدوي (١٩٥٩): رفاعه رافع الطهطاوي . لجنة البيان العربي .
- ٢٩- أحمد شلبي (١٩٧٩): تاريخ التربية الإسلامية . مكتبة النهضة المصرية .
- ٣٠- أحمد صبحي (١٩٦٩) : الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي. دار المعارف . القاهرة .
- ٣١- أحمد عزت عبد الكريم وآخرون (١٩٦٢) : تاريخ العرب الحديث والمعاصر للصف الثالث الثانوي . وزارة التربية والتعليم . القاهرة .
- ٣٢- أحمد فؤاد الأهواني (١٩٧٥): التربية في الإسلام . دار المعارف. القاهرة .
- ٣٣- أسماء حسن فهمي (١٩٤٧) : مبادئ التربية الإسلامية . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة .
- ٣٤- الإمام أبوظاهر إسماعيل موسى الجيظالي (١٩٦٥ م) : قناطر الخيرات . مكتبة وهبة . القاهرة .
- ٣٥- الإمام القرطبي : الجامع لأحكام القرآن . القاهرة . دار الكتاب العربية للطباعة والنشر بالقاهرة .
- ٣٦- الإمام القشيري (١٩٦٦) : الرسالة القشيرية . مطبعة صبيح . القاهرة .
- ٣٧- الجاحظ : المحاسن والأضداد . دار النهضة العربية .
- ٣٨- السيد محمد بدوي (١٩٦٧): الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع . دارالمعارف . القاهرة .
- ٣٩- السخاوي (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) (١٩٨٩) : الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ . مكتبة ابن سينا .

- ٤٠- برهان الدين الزرنوجي (١٩٧٧) : تعليم المتعلم طريق التعلم . دار النهضة العربية . القاهرة .
- ٤١- جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي . دار الهلال . بدون تاريخ .
- ٤٢- جمال الدين الأفغاني : رسالة الرد على الدهريين . نقلها من الفارسية إلى العربية الشيخ محمد عبده . نشر دار الكرنك ، ونشر السلام العالمية . القاهرة .
- ٤٣- حسن إبراهيم حسن (١٩٧٣) : تاريخ الإسلام . النهضة المصرية .
- ٤٤- حسن إبراهيم حسن وآخرون (١٩٤٦) : النظم الإسلامية للسنة التوجيهية . المطبعة الأميرية بالقاهرة .
- ٤٥- حسن عثمان (١٩٧٠) : منهج البحث التاريخي . دار المعارف . القاهرة .
- ٤٦- حيدر يامات (١٩٥٦) : من مجال الإسلام . ترجمة عادل زعيتر . دار إحياء الكتب العربية . عيسى البابي الحلبي وشركاه . القاهرة .
- ٤٧- الخطيب البغدادي (١٣٤٩ هـ) : تاريخ بغداد . القاهرة .
- ٤٨- خليل طوطح : التربية عند العرب .
- ٤٩- ديورانت : قصة الحضارة (مترجم) نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
- ٥٠- رفاعه رافع الطهطاوي (١٩١٢) : مباحج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية . مطبعة الرغائب . القاهرة .
- ٥١- رفاعه رافع الطهطاوي (١٢٨١ هـ) : المرشد الأمين للبنات والبنين . مطبعة المدارس الملكية . القاهرة .
- ٥٢- روبرت بك (١٩٧٣) : التاريخ الاجتماعي للتربية . ترجمة د. محمد لبيب النجيجي و د. محمد منير مرسى . عالم الكتب . القاهرة .
- ٥٣- زين الدين العاملي (١٩٤٦) : منية المرید في أدب المفید والمستفيد . القاهرة .
- ٥٤- سامح كريم (١٩٩٩) : معارك طه حسين الأدبية والفكرية . مكتبة الأسرة . الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٥٥- شمس الحق العظيم آبادي (١٩٦١) : عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان . المكتب الإسلامي بدمشق .
- ٥٦- صاعد الأندلس : طبقات الأمم .
- ٥٧- طه حسين (١٩٣٨) : مستقبل الثقافة في مصر . جزآن . دار المعارف .
- ٥٨- عباس محمود العقاد : المرأة في الإسلام . دار الهلال .
- ٥٩- عبد الباسط بن موسى العموي (١٩٤٩) : المعيد في أدب المستفيد .

- المكتبة العربية بدمشق .
- ٦٠- عبد العزيز صالح (١٩٦٦) : التربية والتعليم في مصر القديمة . الدار القومية للطباعة والنشر . القاهرة .
- ٦١- عبد الكريم عثمان:الدراسات النفسية عند المسلمين.مكتبة وهبه . القاهرة .
- ٦٢- عبد الوهاب السبكي : الأزهر وتعليم المرأة .
- ٦٣- عبد الوهاب خلاف (١٩٥٩) : علم أصول الفقه . مطبعة النصر . القاهرة.
- ٦٤- عثمان أمين(١٩٦٥):رائد الفكر المصري الإمام محمد عبده.الأنجلو المصرية.
- ٦٥- عمر الدسوقي(١٩٧٠):في الأدب الحديث.جزءان.دار الفكر العربي. القاهرة .
- ٦٦- الغزالي (أبو حامد) : إحياء علوم الدين . مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني . القاهرة .
- ٦٧- الغزالي (أبو حامد) (١٩٦٣) : ميزان العمل . مطبعة صبيح . القاهرة.
- ٦٨- غادة الخرسا : الإسلام وتحرير المرأة . دار السياسة . بيروت .
- ٦٩- فاضل الجمالي (١٩٦٧) : تربية الإنسان الجديد . مطبعة الاتحاد العام التونسي للتوزيع . تونس .
- ٧٠- فتحية سليمان (١٩٥٦) : المذهب التربوي عند الغزالي.دار الهنا.القاهرة .
- ٧١- فتحية سليمان:المذهب التربوي عند ابن خلدون.مكتبة نهضة مصر.القاهرة .
- ٧٢- فتحية سليمان : التربية في المجتمعين اليوناني والروماني . دار الهنا للطباعة والنشر . القاهرة .
- ٧٣- القابسي : الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين .
- ٧٤- كراتشكوفسكي (١٩٦٩) : مع المخطوطات العربية . ترجمة محمد منير مرسي . النهضة العربية .
- ٧٥- ليفي برونفسال (١٩٣٨م) : حضارة العرب في أسبانيا . القاهرة .
- ٧٦- مقدادياجن (١٩٧٧):التربية الأخلاقية الإسلامية.مكتبة الخانجي القاهرة .
- ٧٧- مجمع البحوث الإسلامية(الأزهر)(١٩٧٢):التوجيه الاجتماعي في الإسلام.من بحوث مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية.مطابع الدجوي. القاهرة .
- ٧٨- محمد ابن سحنون(١٩٧٢):كتاب آداب المعلمين.دار الكتب الشرقية. تونس .

- ٧٩- محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية . دار الفكر العربي . القاهرة .
- ٨٠- محمد إقبال (١٩٦٨) : تجديد الفكر الديني في الإسلام . ترجمة عباس محمود . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة .
- ٨١- محمد بيسار (١٩٦٨) : العقيدة والأخلاق . مكتبة الأنجلو . القاهرة .
- ٨٢- محمد رشيد رضا (١٣٤٤هـ) : تاريخ الأستاذ الإمام . مطبعة المنار . القاهرة .
- ٨٣- محمد عبد الرحمن غنيمه (١٩٥٣) : الجامعات الإسلامية الكبرى . دار الطباعة المغربية . تطوان .
- ٨٤- محمد عمارة (١٩٧٣) : الأعمال الكاملة لرفاعه رافع الطهطاوي . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت .
- ٨٥- محمد عمارة (١٩٧٢) : الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت .
- ٨٦- محمد قطب : منهج التربية الإسلامية . دار الشروق ببيروت .
- ٨٧- محمد منير مرسي (١٩٩٢) : الاتجاهات الحديثة في التعليم الجامعي المعاصر وأساليب تدريسه . دار النهضة العربية .
- ٨٨- محمد منير مرسي (١٩٧٥) : التعليم العام في البلاد العربية . عالم الكتب . القاهرة .
- ٨٩- محمد منير مرسي (١٩٩٩) : الاتجاهات المعاصرة في التربية المقارنة . عالم الكتب القاهرة .
- ٩٠- محمد منير مرسي (٢٠٠٠) : التربية الإسلامية : أصولها وتطورها في البلاد العربية . عالم الكتب . القاهرة .
- ٩١- محمود قاسم : في النفس والعقل لفلاسفة الإغريق والإسلام . الأنجلو المصرية . القاهرة .
- ٩٢- محمود قاسم: جمال الدين الأفغاني وفلسفته: مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة
- ٩٣- منيف الرزاز (١٩٥٩): معالم الحياة العربية الجديدة. دار العلم للملايين. بيروت .
- ٩٤- محمد عزة دروزة (١٩٦٧): المرأة في السنة والقرآن. المكتبة العصرية. بيروت
- ٩٥- النواوي : تهذيب الأسماء .
- ٩٦- وزارة المعارف العمومية (مصر) (١٩٣١) : تقرير عام مرفوع إلى وزارة المعارف العمومية من أ.د . كلاهريد .

Selected References :

- 1 - Abdul Rahman Salih Abdulla : Educational Theory : A Qur'anic Outlook : Umm Al-Qura University -Faculty of Educaton, 1982 . Saudi Arabia.
- 2 - Barclay, W.1959 : Eddaucational Ideas in Ancient World. Collins, London, .
- 3 - Beck, R.1965 : A Social History of Education. Prentice-Hall Inc. Englwood Cliffs, N. Y. .
- 4 - Breasted, J 1913: A History of Egypt. Scriber - N.Y. .
1947 : A History of the Problems of Education. 5 - Brubacher, J McGraw-Hill Series N.Y. .
- 6 - Butts, R.1947 : A Cultural History of Education. McGraw-Hill; N.Y. .
- 7 - Calhoun C.1969 : The Educating of American : A Documentary History. U.S.A. .
- 8 - De Young and Other.1964: American Education. McGraaw-Hill Inc. U.S.A. .
- 9 - Dent. H.C.1963 : The Educational System of England and Wales . The University of London Press .
- 10- Dienko, M. : Public Education in the USSR. Proress Publishers. Moskow. M.S.
- 11- Eby, F . and Arrowood1964 : The History and Philosophy of Education . Prentice-Hall. N.Y. .
- 12- Evans, Sir Arthar 1927: The Place of Minos, London. .
- 13- Fraser, W.1963 : Education and Society in Modern France , Routledge & Kegan Paul. Ltd. London .
- 14- Full, H. 1967: Controversy in American Education . The MacMillan Company. N.Y. .
- 15- Haskins, C.1960 : The Rise of Univerities. Great Seal Books - Correll University, N.Y. .
- 16- Henry, Jules1963 : Culture Against Man . Random House. N.Y. .

- 17- Heyworth-Dunne, J.1938 : An Introduction to the History of Education Modern Egypt. London : Luzac Co., .
- 18- History of Education Society.1991: History of Education Quarterly. Edited by Reese, W. Indiana University Vol. 31 . Nos. 1,2,3. .
- 19- Husen, T. et al. (eds.)1985: The International Encyclopedia of Education. 10 Vols. Pergamon Press, .
- 20- Hurwitz, H., E & Maidment , T. (eds.)1970 ;Criticism, Conflict & Change . Readings in American Education, Dodd Mead Company. N.Y. .
- 21- Husain, S. and Ashraf 1979 S.: Crisis in Muslim Education ; Hodder and Stoughton and King Abdulaziz University Jeddah-London, .
- 22- Institute Pedagogique National1970 : The Organisation of Education in France. Cahier de Ddocumentation. Jan. .
- 23- Jackson, S. : Looking Ahead in Egyptian Education. Published by the Institute of Education. Giza-Cairo.
- 24-La Monts, J. 1949: The World of the Middle Ages. Appleton-Century Crofts Inc. .
- 25- Maspero, G.1901 : The Dawn of Civilization London. .
- 26- Ministry of Education1943 : Report on Educational Reform in Egypt, by H.E. Naguib El-Hilali Pasha , Minister of Education, Dec. 1943, Government Press, Boulaq, .
- 27- Ministry of Education , Egypt. (July 1929) . Report on Certain Aspects of Egyptian Education . Rendered to his Excellency , the Minister of Education. By Mann, F. Government Press, 1932.
- 28- Mohammed Wasiullah Khan (ed.)1981 : Education and Society in the Muslim World . London Hodder and Soughton and King Abdulaziz University. Jeddah .
- 29- Montessori, Maria 1964 : Spontaneous Activity in Education . Robert Bently Enc. Cambridge - Mass. U.S.A. , .
- 30- Mulhern, J. 1964 : A History of Education . The Ronald Press Co. N.Y. , .

- 31- O'leary, De Lacy 1939: Arabic Thought and its place in history .
Dutton Co. Inc. N.y. .
- 32- Poster, C. and Zimmer, J. (1992) : Community Education in The
Third World. Routledge - London.
- 33- Power , Edward J. 1970 : Main Currents in The History of Edu-
cation, MacGraw-Hill Book Company, New York, .
- 34- Rashdal, H.1936 : Universities of Europe in the Middle Ages . Ox-
ford .
- 35- Reforms and Restraints in Modern French Education 1971. Rout-
ledge & Kegan Paul Ltd. London .
- 36- Reisner, E.1931 : History Foundations of Modern Education. The
MacMillan Co. N.Y. .
- 37- Ross, M. 1976 : The University . The Anatomy of the Academe.
McGraw-Hill Book Company . U.S.A. .
- 38- Rubenstein, D. & Simon, B. 1973 : The Evolution of the Compre-
hensive School (1926-1972) . Routledge & Kegan Paul. London. .
- 39- Schachner, N.1938 : The Midieval Universities N.Y. .
- 40- Spencer, H. 1949: Education Intellectual, Moral and Physical.
Watts and Co. London. .
- 41- Spengler, Oswald1928 : Decline of the West. N.Y. .
- 42- Thorndike, L 1944 : University Records and Life in the Middle
Ages. N.Y. .
- 43- Tibawi, A.L. 1972 : Islamic Education : Its Traditions and Moder-
nization into the Arab National Systems . London Luzac and
Company. .
- 44- Ulich, R. 1950 : History of Educational Thought. American Book
Co. N.Y. .
- 45- Wagner, D.1978 : The Annual Meetings of the Middle East Stud-
ies Association : Symposium on Traditional Factors in Modern
Moroco. Ann. Arber, Michigan Nov. .

كتب للمؤلف

أولاً : كتب مؤلفة بالعربية :

- ١- أصول التربية . عالم الكتب - القاهرة - صدر عام ١٩٨٤ وله طبعة منقحة ١٩٩٩ .
- ٢- تاريخ التربية فى الشرق والغرب . عالم الكتب - القاهرة - صدر عام ١٩٧٨ وله طبعة حديثة ١٩٩٩ .
- ٣- التربية الإسلامية أصولها وتطورها فى البلاد العربية . عالم الكتب - القاهرة . صدر عام ١٩٧٧ وله طبعة حديثة ٢٠٠٠ .
- ٤- فلسفة التربية . إنجازاتها ومدارسها . عالم الكتب - القاهرة . صدر عام ١٩٨٠ وله طبعة حديثة ١٩٩٩ .
- ٥- المرجع فى التربية المقارنة . عالم الكتب - القاهرة . صدر عام ١٩٨١ . وله طبعة حديثة مزيدة ومنقحة عام ١٩٩٩ .
- ٦- الإدارة التعليمية : أصولها وتطبيقاتها . عالم الكتب - القاهرة . صدر عام ١٩٧١ . وله طبعة حديثة منقحة عام ١٩٩٨ .
- ٧- الإدارة المدرسية الحديثة . عالم الكتب - القاهرة . صدر عام ١٩٧٤ ، وله طبعة مزيدة ومنقحة وبها إضافات قيمة سنة ٢٠٠٠ .
- ٨- تعليم الكبار ومحو الأمية . عالم الكتب - القاهرة . صدر عام ١٩٧٨ وله طبعات أخرى . (بالاشتراك) .
- ٩- البحث التربوى وكيف نفهمه . صدر عام ١٩٨٧ ، وله طبعة جديدة . عالم الكتب . القاهرة . ١٩٩٦ .
- ١٠- العربية الحديثة للناطقين بالإنجليزية والفرنسية . عالم الكتب - القاهرة . جزان . صدر الأول عام ١٩٨٠ والثانى ١٩٨٥ . (بالاشتراك)
- ١١- المنتخب من عصور الأدب (جزان) . عالم الكتب - القاهرة . صدر عام ١٩٧٦ وله طبعات أخرى (بالاشتراك) .
- ١٢- التعليم العام فى البلاد العربية . عالم الكتب - القاهرة . صدر عام ١٩٧٢ وله طبعات أخرى .
- ١٣- إدارة وتنظيم التعليم العام . عالم الكتب - القاهرة - صدر عام ١٩٧٤ وله طبعات أخرى .
- ١٤- التعليم فى دول الخليج العربية . عالم الكتب - القاهرة - الرياض . صدر عام ١٩٨٩ وله طبعات أخرى .

- ١٥- اختبار القيادة التربوية ومجموعة الاختبارات الموضوعية فى العلوم التربوية . صدر عام ١٩٧٧ وله طبعات أخرى . وصدر فى طبعة منقحة عن عالم الكتب بالقاهرة عام ١٩٩٨ .
- ١٦- الاتجاهات الحديثة فى التعليم الجامعى المعاصر وأساليب تدريسه . دار النهضة العربية - القاهرة . صدر عام ١٩٩٢ .
- ١٧- الاتجاهات المعاصرة فى التربية المقارنة . عالم الكتب . القاهرة . صدر عام ١٩٧٤ وله طبعة حديثة عام ١٩٩٢ .
- ١٨- دراسات فى التربية المعاصرة . دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٧ .
- ١٩- التعليم الجامعى المعاصر : قضاياها وإتجاهاته . دار النهضة العربية . القاهرة . صدر عام ١٩٧٧ وله طبعة أخرى منقحة عام ١٩٨٧ عن دار الثقافة - الدوحة - قطر .
- ٢٠- المدخل فى التربية المقارنة . مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة . صدر عام ١٩٧٣ . وله طبعات أخرى (بالاشتراك) .
- ٢١- الإصلاح والتجديد التربوى فى العصر الحديث : عالم الكتب . القاهرة صدر عام ١٩٩٢ . وله طبعة مزيدة ومنقحة عام ١٩٩٦ .
- ٢٢- المعلم ومبادئ التربية . مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، صدر عام ١٩٩٣ .
- ٢٣- الاتجاهات الحديثة فى تعليم الكبار . عالم الكتب . القاهرة ١٩٩٧ .
- ٢٤- كيف تتفوق فى دراستك الجامعية ؟ دليل المتعلم إلى التعلم . صدر عن عالم الكتب بالقاهرة عام ١٩٩٨ .
- ٢٥- تخطيط التعليم واقتصادياته . صدر عن عالم الكتب بالقاهرة عام ١٩٩٨ .
- ٢٦- المعلم والنظام : دليل المعلم إلى تعليم المتعلم . صدر عن عالم الكتب بالقاهرة ، ١٩٩٨ .
- ٢٧- المدرسة والتلميذ : صدر عن عالم الكتب بالقاهرة ، ١٩٩٨ .
- ٢٨- مجتمع الفضيلة : الأخلاق فى الإسلام . صدر عن عالم الكتب بالقاهرة ، ١٩٩٨ .
- ٢٩- التربية المقارنة بين الأصول النظرية والتجارب العالمية . صدر عن عالم الكتب بالقاهرة ، ١٩٩٩ .

ثانيا : كتب مؤلفة بالإنجليزية :

Education in the Arab Gulf States . University of Qatar Education
Research Centre 1990 .

ثالثا : كتب مترجمة من العربية إلى الإنجليزية :

-Islam and Contemporary Thought . Four Public Lectures . By His
Eminence Sheikh Mohamed M. El - Shaarawi . Qatar National
Printing Press . Doha 1978 . (بالاشتراك)

رابعا : كتب مترجمة عن الإنجليزية :

١- المدرسة الشاملة : روين بيدلى . عالم الكتب القاهرة . صدر عام
١٩٧١ . (بالاشتراك)

٢- المدرسة اليابانية : سنجلتون . عالم الكتب - القاهرة . صدر عام ١٩٧٢

٣- التعليم والتنمية القومية : أدامز (محرر) عالم الكتب - القاهرة . صدر عام
١٩٧٣

٤- أنثروبولوجيا التربية نيللر : عالم الكتب - القاهرة . صدر عام
١٩٧٢ (بالاشتراك)

٥- فى فلسفة التربية : نيللر . عالم الكتب - القاهرة . صدر عام
١٩٧٢ (بالاشتراك)

٦- الأحلام : تفسيرها ودلالاتها: نيريس دى . عالم الكتب - القاهرة . صدر عام ١٩٨٦
٧- الضعف فى القراءة : تشخيصه وعلاجه : بوند وآخرون . عالم الكتب - القاهرة .
صدر عام ١٩٨٣ . (بالاشتراك)

٨- التاريخ الاجتماعى للتربية : ر.بك . عالم الكتب . القاهرة ١٩٧٣ . (بالاشتراك)

٩- نظرية الإدارة : جريفث عالم الكتب - القاهرة ١٩٧١ . (بالاشتراك) .

١٠- مدارس بلا فشل : جلاسر . عالم الكتب . القاهرة ، ١٩٧٤

١١- المدرسة والمجتمع العصرى : جوسلين . عالم الكتب . القاهرة ١٩٧٣ . (بالاشتراك) .
خامسا : كتب مترجمة عن الروسية :

١- مع المخطوطات العربية : صفحات من الذكريات عن الكتب والبشر
كراتشكوفسكى . النهضة العربية - القاهرة . صدر عام ١٩٦٩

٢- ثلاث أزهار فى معرفة البحار لأحمد بن ماجد : شوموفسكى . عالم الكتب
القاهرة - صدر عام ١٩٦٩ .

٣- الرسالة الثانية لأبى دلف . أنس خالدوف وآخر . عالم الكتب - القاهرة صدر ع
١٩٧٠ .

٤- الشعر العربى فى الأندلس : كراتشكوفسكى . عالم الكتب - القاهرة . صدر ع
١٩٧١ .